درب التيه

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: درب التيه
اسم المؤلف	: د. محمد سعيد شهاب الدين
الغلاف	: محمد ضوهـ
التصحيح اللغوي	: منير دياب
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٣١٣٣/ ٢٠١٦
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-٠٨٣-٣

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

درب التيه

د. محمد سعيد شهاب الدين

دار غراب للنشر والتوزيع

-١-

يسير كله وحدة واحدة كيان إنسانى لكنّه يستلهِم شعورًا مُغايرًا، يحس أنّه جسدٌ من ذات تكوين البشر أعنى من لحم ودمّ، لكنَّهُ يحس روحه تُحلِّق فى داخله و تجوس، تُحملِقُ فى كُلّ ما يقعُ فى حدود رؤيته وما وراء ذلك من ذكرياتٍ وأوهام، تُلبِسُ كل شىء إهابًا آخر أو تنزعهُ عنهُ، فيراها كما لا يراها غيره وكأنهُ يستشِفُّ ماوراء الجوامد والماديات من منظور مختلف ووجهة خاصة!!!!!!

وكأنَّ روحه تُطِلُّ من شرفتى رأسه الضيقتين العميقتين خلف حاجزٍ شفّاف... وكأنّ عيناه ذلك الزجاج الأمامى فى سيارة بينما روحه ذلك الجالس على التابلوه أمامه يرى له الطريق ويصفه له كما يشاء.. إنَّه يستشعر أنَّ روحًا أخرى تُطِل من داخله تنظر للكون من خلال عينيه فترى الأشياء وتنثر على لسانه وفى قلبه الكلمات!! لكنَّها بلا لسان رغم أنَّها لا تكاد تكفّ عن الثرثرة حتى يكاد ينصدع شِقّا مخّيه ويُصيبه الدوار...

ألا تملّين من الحديث؟؟ ألا تخلدين للسكون ولو للحظات؟؟

نعم تملئين علىّ وحدتى وأتسلّى معك وبك عن العالمين،لازلت أأنس بك وآنس لك حين يروق لى الصفاء وتحلو لى الوحدة فنتبادل أحاديثَ شتَّى، قد تكون ممتعة لطيفة حين تحملينني لذكريات أتمنى رجوعها ووجوهًا أشتاق لها، ولكن الويل لى حين تستثيرين مواطن الألم وتستحثينها بدَعَة، كمن يتفحص الرماد المنطفىء ينكت فيه بعصا الذكرى ليستخرج منه شرر الألم ولظى الذكريات الحزينة، لحظات الإخفاق والإنكسار والفشل، وحين تُمثّلين لى أحلامى مشهودة واقعةً وكأنى أحياها، فترينني ما أتمناه فى وجدانى دون أن يكون حقيقة واقعة!!

عاطفىّ تحرّكه مشاعره فى شخصيته كثير من الشفقة البادية والقسوة المُستترة والنقمة فى داخله وبين براثن ذاته تكمن الآمال..

الشجن ذلك اللحن السرمدىّ الذى يُعزف بداخله، والحزن والسكون سمْته الذى لا يفارقه، يستشعر شيئًا يسكنه ربما شيطان يطل من عينيه يرى الدنيا من خلاله يُملى عليه ما يقول ويفعل، فيخضع دومًا فريسةً للتردد والاهتزاز، فتراه يُحجِم عن الشىء ويفشل فى إتمامه حين يراجع نفسه مرة تلو أخرى قبل أن ينطق أو يتحرك.. يقف ينتظر يقتله التردد يراجع فى نفسه ما رتَّب أنْ ينطقه مرّات ومرّات ثم يُحجِم كالأخرس الذى على لسانه حجر ويجتازه منْ رتَّب له هذا الحديث غير مكترث ولا مُلقيًا له بالاً، وكأنَّ قسماتِ وجهه الوادعة تدعو كل من

يشهده للاستخفاف به وعدم الاكتراث له، كأنه لا شيْ أو كأنه أهون مِنْ أنْ يلفت نظرًا أو يجذب غيره لحديث.

شعور بالتضاؤل والضَّعة يسيطر عليه حتى أمام من يصغُر شأنهم بجوار شأنه أو من يعلوهم قدرًا ومنزلة فلا يستبدّ أبدًا معهم برأى أو يفرِض سطوته على غيره كائِنًا منْ كان، بل يتضاءلُ ويتضاءل فلا يمارس شيئًا من نفوذ كغيره...

* * *

أشهدُ التلفاز مع أختى الصغرى (سلمى) نلهو أمامه لا نعبأ بما يقدّمه فاجأنا انقطاع البثّ بعد صوت فرقعات متتالية وغمر الشاشة سواد كئيب أظلّها لفترة ثم توالت إذاعة القرآن الكريم، شىء دَفَعنى رغم حداثة سِنّى وعدم استيعابى لُمُجْمل ما يدور منْ حولى أنْ أقول منْ قبيل تندُّر وعبث الصبيان:

- السادات اتقتل السادات اتقتل....

ترُدّ أمى التى كانت خارج الحجرة لكنّها على مقرُبة تسمع صياحى:

- اسكت ياولد فأل الله ولا فألك.

صمتٌّ وواصلت لهوى مع (سلمى) التى لم تنتبه ولم تعبأ لشىءٍ من ذلك، تبدّلت الأجواء فجأة واستحالت كآبة غامرة انقطع التيار الكهربائى وأقبل ليل أكتوبر الصيفىّ القاتم يزحف على أرجاء المنزل فيحيله لقطعة من سواد لا تكاد ترى كفَّك حين تبتعد عن لمبة

الكيروسين التى لم تعد تبُثّ سوى ضوء خافت بعد أنْ غمر الهباب زجاجها، بدا كل شىء فى حداد وحزن وخيّمت سحابة قاتمة كئيبة على الأجواء فبدا ليلها متشحًا بالسواد الذى تسربلت فيه اتساقًا مع حال بلاد موشِكة على الضياع تكاد تسقط فيه، بدا مستقبلها غامضًا مريعًا لا تدرى ما يخبئه لها ضوء النهار، شىء من الصقيع والضجر المشوب بالخوف تسلل إلى ذاتى رغم الجو الحارّ، كأنّ أمى استشعرتهُ هى الأخرى فتسلّل إليها مثلى، احتضنتنى بقوة بينما تنتحب فى صمت فيرتجف جسدها ويسيل دمعها ساخنًا فى حنان، حين بدد الصمت صوت المذياع الذى يعمل بالبطارية معلنًا نبأ وفاة الرئيس فى مستشفى المعادى العسكرى بعد فشل محاولات إنقاذه.

فى الصباح أقبلت جدَّتى "فاطمة" فزِعة تصك وجهها الذى غزته التجاعيد فحفرت على صفحته أخاديدَ وتعاريج، بينما أبرقت عيناها العسليتان واتسعت حدقتها وهى تقول :

– الواد (فتحى) – ابن الكلب – لا يصغى لأحد ولا يكبر لكبير رأسه أنشف من الحجر الصوَّان، أمّه لا تكفّ عن العديد وكأنهم فى مأتم وأبوه "عبد الستار" صامت مُطأطىء الرأس فى حزن مُطبق يوازى عناده وإصراره أنْ ينفِّذ بكريّه الشاب الجامعى المتعلم والمكابر رغبته ولو رغمًا عنه، تركتهم وقد جمعوا له رجال العائلة والجيران بعد أنْ كبَّلوه قاعدًا وجلبوا له الأسطى (عطا) المزين ليجزّ له لحيته رغمًا عنه، بعد أنْ رفض توسّلات أمّه ولم يبرّ بأيمان أبيه التى أقسمها عليه مغلَّظةً

أنْ يحلِقها فتمادى فى غيّهِ وعناده، تسترسِل وهى تحكى عن ابن أختها الصغرى فتقول الأحمق سيودى بنفسه وأبويه موارد الهلكة وكأنَّه يُفصح عن هويته وذاته للجميع و يهتف بالعسكر والخفراء وجواسيسهم من أبناء القرية :

– أن خذونى خذونى...دا احنا عايشين أيام سودا بعد ما قتلوا الراجل الأمير فى العرض العسكرى فغاب الأمان عن القرية والقُطر كله، أصبح اعتقال الشباب بالزوفة عشوائيا بالظنة وكأنه موجة عاتية تجرف فى طريقها كل شىء دون ترو أو تعقُّل!! لماذا يُصرّ هذا الأحمق أن يضيع مستقبله لم يعد له سوى عامين فى كلية الزراعة تبدّل حاله كان كالقطة المُغمضة لماذا لم يعُد يلتفت لرجاء أبيه الذى شيَّبه الدهر قبل أوانه وأوهن ظهرهُ حمل همّ تعليمهم رغم ضيق الحال دون أنْ يشكو، يسافر يوميا للقاهرة عامل بوفيه فى وزارة الأوقاف ويراعى قراريط ورثها عن أبيه مع الفقر والانبطاح!!

حيا تلميذا نجيبًا هادئًا يُقدِّس والديه لا يرفع عينه من الأرض خجول كالبنت البكر يواظب على الصلاة فى الجامع "الصمدىّ" ثم تبدّل حاله منذ تعرّف هو وأصدقائه "جُبير" و"سمير" و"عبد الهادى" من سنوات على الشيخ "صالح عبد الكريم" رئيس الكوبرى الذى يصل بين شطرىّ القرية التى فصلتها ترعة (الباجورية) ويعتليه القطار بجلبته وضجيجه .....

أمّا الحاج "صالح" فلا ريب أنَّه رجل طيب اسم على مُسمَّى وجهه أسود ناحل شاربه أبيض يعتريه الشيب. رأسه دائما مُغطَّاة بطاقية شبكية بيضاء بينما عيناه فسيحتان جاحظتان يزعق فيهما البياض، قدم من أسوان منذ أمد بعيد وطاب له المُقام فى هذه القرية فى حضن الدلتا رئيسًا للكوبرى الخشبى الذى يصل بين دفتىّ النهير الصغير أحد تفريعات التفريعات التى تنبثق من النيل العظيم وتهيم فى أرجاء الدلتا ذاك المثلث المقلوب فى كل اتجاهٍ كشقوق التُربة، كان الرجل إخوانيًا قديمًا تشرَّب مبادىء "حسن البنا" حين التقاه صغيرًا وهو يجوب البلاد شبرًا شبرًا لا يدع قرية ولا نجعًا ولا عزبة إلا وله فيها مريدون وأنصار، فُتن بشخصيته كغيره. وتسرَّب إلى قلبه معسول تعاليمه وأحاديثه ورسائله، لكنه كان بمنأىً عن الطلب أو الاعتقال حين تشرنق فى عُزلته أوان محنة الجماعة وقَهْرهم، ثم حلا له أنْ يبثّها من جديد فى نفوس الشباب النابه الفقير الذى يدرج فى مراحل التعليم، وجد فيهم بذرة صالحة لغرسه فى ارتيادهم المسجد "الصمدىّ"، كانوا يسعون بدأب لمنهل يرتوون منه يُطفىء غُلّتهم العَطشى للمعرفة أو بصيص من نور يأتنسون به حين لم يجدوا فيه سوى حفنةٍ ضئيلةٍ من العجزة والمسنين وأرباب المعاشات!!

التوقيت والزمن يسمحان بذلك فقد أطلق "السادات" أوانها العنان للتيارات الإسلامية التى كبَّلها واضطهدها "عبد الناصر" وسمح لهم بالظهور من جديد بعد طول كبت ومعاناة يواجه بهم عدوه المُحدَث أولئك الفتيان الذين لم يروا غير "عبد الناصر" قائدًا ومُخلِّصًا!!

لم يجد "صالح عبد الكريم" المتشرنق فى ذاته خيرًا من هذه الفرصة ؛ ليفصح عن ذاته وهويته من جديد وكأنه يتسلّل ليعود كما كان فتيًا واعدًا ناهض الهمَّة بعد أنْ قصف به السن وتعاهده الشيب والمرض فى ضمائر وقلوب هؤلاء الفتية الواعدين الذين غدوا من وجهة نظره التربة الخصبة لإنبات زهوره البرّية الذابلة مرّةً أخرى. تحلّقوا حوله فى حلقة القرآن فى المسجد بين المغرب والعِشاء يتعلمون أساليب القراءة والتجويد ويتعاهدون حفظه، أنفذ إليهم رسائل "البنا" وتعاليمه حتى تشرَّبتها نفوسهم كتربة جافة تحن للرّى تظل تنهل وتتشرَّب ربما أكثر من حاجتها حتى تستشعِر أمان الارتواء،"فتحى" و"جبير" و"عبدالهادى" و"سمير" أُولى براعمه التى أثمرت أيّما إثمار ونثرت لقاحها فى نفوسٍ أخرى كثيرة، أعفوا لحاهم وارتدوا الجلابيب وأصرّوا على حضور محاضراتهم والتجوال بها بين أروقة الجامعة، كمن يفصح عن: هويته توجهه فكره دون تخفٍّ أو مواربة، دفعهم تهوّر الشباب وحمقه لهذا أم أنَّه المناخ الذى نمت فيه وتعاظمت جميع البذور التحتيه فبرقت وأينعت، وانبثقت منها فروع محمودة وأخرى شيطانية لئيمة كالأفرُع القاتلة التى تمتد لتخنق كل من اقترب منها دون تمييز وإنْ كان من استنبتها ورعاها!

كذا تحقَّقت نهاية "السادات" على يد بعض من أطلق لهم العنان وأتاح لهم العمل فى النور، لكنَّها الظُلمة حين تستبدّ بالأنفس فتقتحم فيها كل بؤرة مضيئة فيغدو أصحابها من هواة الظلام والدعاة إليه، دفع

"السادات" ثمن تربيته الذئب فى حماه غاليًا حين ظن أنَّ الذئب قد يغدو حَملاً أو يُقرَّ بالجميل ويأسره المعروف فلا يغدر بصاحبه، كذا دفع ثمن أخطائه....

أعقبها زمان من الذعر المتبادل بين قتلته وفريقهم وخلفائه،الجميع يرغب أن يتسيَّد الموقف ويدحر خصومه دون خسارة، تحتَّمَ على "مبارك" وشركاؤه أنْ يُجهضوا أى محاولة للإستيلاء على السلطة ويسرعوا فى القبض على المتآمرين "فالزمر" و"عبد الماجد" لم يزالوا طلقاء لهم أهداف محددة منها الاستيلاء على التليفزيون والإذاعة وإعلان قيام الدولة الإسلامية والسيطرة على معسكرات الجيش فى الجبل الأحمر واستخدام أسلحته ومُعدّاته واستهداف المقرّات الأمنية والشرطية ومهاجمة موكب الجنازة واغتيال أكبر عدد من القيادات فتصبح البلاد بلا رأس أو قائد، باتت البلاد بين حجرى رحى تتخاطفها مؤامرات وعواصف، فبدا الصراع خفيًّا جليًا تارةً فوق الأرض وتارةً تحتها وكأنَّ مِصر ثوب مخملىّ مخضوضر تتجاذبه أياد كثيرة يكاد يتمزَّق من كثرة الطامعين فيه الكل يجذبه نحوه دون أنْ ينتبه أنّه يمزِّق تماسكه ويفصم عرى وحدته ويُحيله قطعًا ورِقاعًا ممزقة.

لم يتورَّط "فتحى" ورفاقه فى هذا الصراع ولم تلوّث أياديهم بالدماء ولو بالعلم المسبق وإنْ كرهوا "السادات" وتمنَّوا موته شأنهم شأن باقى الجماعات، كانوا أقلّ شأنًا وهم فى أوّل الطريق أنْ يُدفعوا لهذا الصراع أو يكونوا جزءًا منه فقط شُغلوا بحروبهم الصغيرة جدالهم مع زملائهم

منْ تيارات أخرى مناجزتهم الحرس الجامعىّ والإصرار على الدخول وعدم تبديل الجلباب بزى إفرنجىّ (قميص وبنطلون) ومناقشات تطول وتقصُر حول فرضيّة اللحية والنقاب مع بعض الأساتذة والزملاء، كانت الجامعة تموج كسائر البلاد بتيارات شتى!

تفتّحت عيناىَ على هذا الصراع واختلطت فيها الأمور فأنا أحب قريبى "فتحى" (السُنىّ) وجهه صَبوح دائم الابتسام يُشرق بين لحيته الكثَّه المُشَذَّبة بعناية حين يزورنا فيمنح والدى أجزاء من (فقه السنة) وشرائط الشيخ (كشْك) (والمحلاوى) ويجلس معه لكن مولّيًا ظهره "للمفسديون" كما كان يسمّيه رغم أنَّ والدى كان يتابع برنامجًا شهيرا عن ذكريات الحرب العالمية الثانية على لسان بعض من حضروها ممّن لم يزالوا على قيد الحياة مصحوبة بأفلام وثائقية عنها، لكنَّه يُصرّ على عدم مواجهة التلفزيون أو النظر إليه فهو يرفضه كُلّه، ويرفض كلّ ما يجىء منه خيرًا كان أو شرًّا!!!!

يصحبنى أحيانًا للمسجد يعلّمنى الصلاة ويُصرّ على مداعبتى والتقرُّب منّى، أبى لا يجد غضاضة فى ذلك وكذا جدّتى التى تحوطنى كفتاة بكر، هو يُحب الشعر والرسم وله مكتبة جميلة فى حجرة طينية تجاور حجرة الفُرن بها أمّهات كتب فى الأدب والدين ما بهر قلبى ووجدانى عناوينها فقط مثل [العِقد الفريد- مختار الصحاح- لسان العرب - وحى القلم – تاريخ الجبرتى] ؛

لم أفطن مطلقًا لمضمون ما فيها فلم أتجاوز العاشرة من عمرى، كالأبواب الضخمة المغلقة على علوم وفنون وآداب ربما لا ترقى مداركى أنْ تطمح لما وراء دفَّاتها...

وهبنى القدر صديقى (وحيدًا) الذى تقاربت معى بعضُ صفاته. قصير لا يكاد يبدو من الأرض، ضخم الرأس واسع العينين اللتين تشعان تحديًا وعنادًا حين تربَّى شبه يتيم لأب حىّ غادره وإخوته (نبيل) و(علياء) فى كنف أم قاسية صمود جابهت وحدها مرارة الأيام وهجر الزوج وعكفت على تربيتهم من بيع الخبز والفاكهة فى سوق القرية. (وحيد) الذى لم تقهره مرارة النشأة والحاجة الملحَّة فغدا أكثر إصرارًا من أمه على النجاح بدون أب أو عائل!

، أرتدت المسجد مع "وحيد" فطردنا عجوز محدودب الظهر لا يبرحه يُعدّ نفسه قيِّمًا عليه بحجة إثارة الضوضاء والاجتراء على حُرمة المسجد :

- غور ياواد الجامع مش للعب العيال.

عُدت أسِفًا محزونًا لم يكن قصدى إثارة ضوضاء أو جلَبة فقط أردت أن ألج عالمه المخبوء وراء جدرانه العالية والذى يجدِّد الدعوة مرّات عديدة يوميًا ليلجه الزوار فما علىّ لو غدوت أحدهم؟ لقد صرت يافعًا بما يكفى لتلبية النداء دون أن يصطحبنى أحد، لقينى الأستاذ "فتحى" فى طريقه لصلاة العصر فمنزله على مقربة من المسجد بلحيته

المُشذَّبة غامرة السواد التى سرعان ما أطلق عنانها بعد زوال الغُمَّة وغدت سمتًا لم يتخلَّ عنه ،أخذنى من يدى وقال لى :

- ستدخل معى، لا يملك أحدٌ الحق فى طردك من بيت الله ما دمت تراعى آدابه. بينما الرجل المُسنّ الذى انحنى ظهره يرمقنى فى غيظ وكأنّى أفلتّ من حكم طرده القاسى رغمًا عنه.

- بيقولوا ياعم "فتحى" إنْ فيه عَفريت جوّه مقام "الصمدى"....

يضحك ويقول :

- اسمه عِفريت بكسر العين (قال عِفريت من الجن)

- حاضر عِفريت...

- طيب قوللى ياشاطر جمع عِفريت....

فأجيبه :

- بسيطة عِفاريت،،

يضحك فيشرق وجهه بالابتسام :

-لا يا ناصح جمعها عَفاريت

فأغتاظ فى أدب :

- ياسلام اشمعنى بقى.

فيسترسل فى شرح يقصر ويطول أعى بعضه ويضيع منى كثير منه!!

– بقى أن تعىَ أنَّ "الصمدىّ" لا ينفع أو يضُرّ فقط كل هذا بيد الله التوسُّل بالأولياء حرام ولولا أنَّ هذا المقام خارج مبنى المسجد لم نُصلِّ فيه.

أتيه بمنطقه وثقته بنفسه وعلومه وأستغرق فى صمتٍ متأمِّلٍ سعيد...

كان "للصمدىّ" قُدسيّة خاصَّة عند أهل القرية أجمعين يعتقدون فى بركته المطلقة يزورونه كل خميس بعد صلاة المغرب (ليلة الجمعة) يطوفون بالضريح الذى يضجّ بالنسوة والأطفال وروائح البخور وزجاجات العِطر الرخيص المنثورة فوقه،تهبه بعض الفتيات مناديل قماشية وبعض الشموع بينما يحككن ظهورهنَّ فى جدار الضريح الداخلى طلبًا للعريس ابن الحلال وهنَّ ينشدن :

– (كل جمعة نجيلك دستور يا "صمدىّ" والشعير شعيرك دستور "ياصمدى")

بينما تهتف جدَّتى من قلبها وهى تحملنى على عاتقها حين كنت صغيرًا لم أتجاوز السادسة :

– (ياصمدى يابو سمرة اتعطَّف علينا).

وعلمت فيما بعد أنَّه قدم من الجزيرة العربية مع جيش "عمرو" لفتح مصر واستوطن أحراش قريتنا ودفن بها بعد أنْ عمّرها وملأها بركة.....

فى الأرض السوداء (كيميت) ضربت الجذور ونبتت البراعم حيث الدلتا يحيط بها فرعا النيل كفكَّى السمكة أو طرفى مقص رغم أنَّه ليس ابنًا من صلبها ربَّما فقط بالتبنى أعنى أنَّ النشأة كانت فى أسرة متوسطة الحال تقطن الريف ولا تعمل بالزراعة فلا تمتلك أرضًا تضرب فيها بفأس أو تركب فوقها نَورجًا أو تُجرى فوق تربتها محراثًا، ربما كان الأجداد فيما مضى من الزمان، أمَّا الرعيل الذى شهدته وعاصرته لم يكن كذلك فالجدّ "إبراهيم" قارئٌ للقرآن فى مناسبات العزاء والمسجد بعد أن كسدت تجارة ورثها عن أبيه أغلق بعدها دكّانه ووجد فى صوته الرخيم وإجادته التجويد مع أحكام التلاوة وحفظه للقرآن عن ظهر قلب العِوض عن تجارة الجبن والسمن والسردين والحلاوة، والجدّة "فاطمة" أمّية مثلها مثل سائر نساء القرية حنون لم تنجب سوى ولدٍ وحيد هو (سالِم) الذى اكتفى بالتعليم المتوسط والتحق بوظيفة حكومية فى بندر القرية التى يقطنونها حتى لا يبتعد كثيرًا عن عيون والديه المتعلّقة به فى غدوّه ورواحه، كل ما امتلكوه منزلاً اتخذوه سكنًا لهم من بقايا إرث العائلة المنقرضة الذين هم آخر فرع فى شجرتها.

زوَّجوه صغيرًا لم يُجاوز العشرين من ابنة البندر "كريمة" التى عاشت عمرها الجديد فى القرية وافدة من الحضر للريف تنتظر ساعة الرجوع للبندر وحياة المدينة والتمتع بالمدنيّة وخدماتها وصخبها تُمنّى نفسها بأمل كاذب خبا بالتدريج حتى تلاشى - فمن اقتنصته مخالب البداوة والبساطة لا تُفلِته بيسر كما دخل فيها-.

وأنا الولد الأوَّل والحفيد المنتظر المُرَفّه الصامت الحزين الذى يؤثر الوحدة وحضن جدته الرحب الدافىء على الدنيا كلها، الذى بدا دومًا فى مُخيّلته جناحى طائر يضمّه ويحميه، أصرّت الجدة على تربيتى بنفسها ما عادت رأسى تفارق ذراعها الذى غدا وسادة لها وكذا حِجرها حين أحملق فى الفضاء وكتفها الذى غدا مركبًا لينًا أستند بكفىّ على رأسها بينما رجلاى مُدلَّاتان أمامها وخلف ظهرها، غدوت نزيل حجرتها فى الطابق الأرضىّ بعد إصرارها المستميت على الاستئثار بتربيتى ورعايتى عقب فطامى قائلة لأمى فى حزم وشدّة حموات الريف :

- "محمود" أخو "سالم" الصغير موش ابنه، اتشطرى انتى وجيبيله الولاد بقى....

لم تملك أمى سوى الرضوخ لتعليمات الجدّة الصارمة، لم يمنعها هذا أنْ تمنحنى وافر حنانها فغدا لى ما ليس لأحد فى الدنيا أُمَّان يريقان علىّ من حنانهما الوافر، فحجرة جدَّتى هى مُستقرى أستذكر فوق سريرها دروسى وأطالع فيها كتبى طيلة النهار بينما تمنحنى بين الفينة والأخرى ثمار فاكهة طازجة أو وجبة شهيّة، وتستقبلنى أوان عودتى من المدرسة بأغنيتها الشهيرة :

- م السنوية للكلية، وتزغرد فى سرور "محمود" افندى وصل.

كما يحلو لها أنْ تنادينى فتحمرّ وجنتاى من شدَّة الخجل، وأنهرها بغضب طفولى :

- اسكتى بقى.

وخوفى وارتعابى، و(فاتن حمامه) تهيم فى أحد أفلامها كفيفة محزونة ضالّة فى شوارع القاهرة تنتظر قدرها أخشى أنْ تقع ضحيّة للضجيج والوجوه المتجهمة القاسية الممتلئة بالشرِّ والخديعة فأدُسّ رأسى تحت اللحاف القطنى مُرتعِدًا باكيًا ؛ ليأتينى صوت جدّتى متهدِّجًا بين الحنان والقلق :

- ما تخافش ياحبيبى دا تمثيل مش حقيقة.

ثم تنهر أبى فى صرامة مُغَلَّفة بالحب والحنان :

- ماتطفوا المحروق ده بقى الواد بيتفزَّع طول الليل.

بينما أرتعد خوفًا على مصير بطلة الفيلم وتأثرًا لحالها- آه لو خلت الدنيا من الغدر والشر والخيانة - وكأننى أريد الهرب من واقعٍ شريرٍ أليم ووجوه الشرّ التى بدت وكأنها حقيقة واقعة لا مشهد تمثيلىّ فى فيلم.

الكِتاب هو الشىء الوحيد الذى أجد فيه ذاتى أخلو معه لأدفن خجلى حين اصطنع خَلوة أُطيل أمدها فأنأى بنفسى عن الآخرين، أعوِّض نقصًا كالحفرة الغائرة فيها، أوارى عجزًا عن مناجزة الأقران فى لهو أو لعب أو مزاح، لا زالت الغُصّة تعتصرنى كلما تذكَّرت شِجارًا أُقحِمت فيه مُنِيت على إثره بتورّم فى جبهتى، لم يختفِ أثرُهُ لليوم،لا زلت أتحسسه لأتذكّر فشلى وخيبتى فى كُرة الشراب التى احترفها

آخرون، بينما أجوب دروب القرية وشوارعها فلا أجد ذاتى، فأخلد لعزلتى وكتبى، لم أجارِ الفتيان يومًا فى نَزَق ولم أمتلك الجرأة لأختلس السجائر وأُجرِّب تدخينها مثلهم، كنت أُهرول بعيدًا بينما يجتمعون حول وجبة نجسة خسيسة فى المقابر النائية حول "هندى" الصبىّ الشاذ، لا أجد طريقى مشابهًا لمنحاهم فأأبى مشاركتهم ومجاراة فحشهم وبذاءات لسانهم ولغطهم فى سباب قاذع وشخير مفزع.

– أوَ ترى الحسد حبل أتجاذبه مع هؤلاء الأقران كلٌّ فى طرف حين أغبطهم على شجاعتهم فى مزاحهم ولهوهم و حريتهم فى فعل ما يشاءون دون خوف عقاب أو تبِعة؟ يصخبون لا يعتريهم خجل أو انكسار يتقافزون عرايا فى ترعة القرية ويسمَرون حول أكواز الذرة التى تُطقطِق تحت نار الراكية الصافية فيستعِر لونها بحُمرة الجمر فيحكى بعضهم إحدى مغامراته مع حبيبة أو جارة أو استراقه قبلة أو لمسة أو أكثر من ذلك مستترًا بين الحقول الكثيفة، أو يختفون فى كوخ ناءٍ يحتفلون بعشاءٍ فاخر لأوزة أو دجاجة سرقوها من إحدى العشش بعد مغافلة أصحابها، أُحسّ أنّنى أقلّ منْ أقران يُشبِعون الدنيا ونهمهم صخبًا وضجيجًا وفُحشًا وعويلاً، ربما يَعجبون لحالى خجلى ومواربتى، عجْزى أنْ أُسايرهم وإبائى الحادّ الذى لا يعتريه أدنى محاولة فى مُجاراتهم فيما يفعلون –

هل يهزءون منّى أم يغبطوننى ولكن علامَ؟!

على وجه تكسوه حُمرة الخجل إذا التقته فتاة أو خاطبتهُ؟ أم على فتى لا يكاد يبرح كتبه ودروسه قابعٌ فى أحضان جدَّته وادع كأنه أُنثى تختشى؟

ربما يحتقروننى ويتهيون عليَّ فخرًا، فما يُجدى التفوق العلمىّ لمن أخفق فى لهو الصبيان نزقهم وترهاتهم؟ فيتغامزون عنّى بسخرية:

- إنَّه لا يُجيد حتى ركل الكرة أو تصويبها.

وإذا شاركتهم لعب الاستُغمايَة فى الليل فأنا أول من يقع فى الفخّ حين تتعالى زَفَراتى وتتوالى أنفاسىَ اللاهثة ويعترى الضجيج قلبى الآخذ فى الانتفاض كأنَّه قلب عجوز ضامر عاجز عن الصمود أمام أدنى مجهود، ما يُجدى التميّز فى الدراسة أمام شعور مُتأصِّـــل بالعجـــز والرغبات المكبوحة وضياع سنى العمر دون التمتع بطعم الأيام ونزق الصبيان وتُرّهات الشباب؟؟؟

ربما تحاشى "وحيد" الانخراط وسط الأقران فى ألعابهم المُرهِقة لكنّه لا يكفّ عن تحدّى الخصوم ومناجزتهم مُبديًا أنَّه ليس أقلَّ من غيرِه!

- ماذا لو منحك الجميع وسام الرزانة والهدواء والطاعة والالتزام وأشادوا بك؟؟ وكأنهم يخلعونك منْ أبهى سنواتك ؛ ليطرحوك فى مرحلة عُمْرية جديدة وكأنك فتىً كُهل أو طُفل رَجيل (عاقل رزين) ماذا تُجْدى إشادتهم ومديحهم حين يُثنون على صفات تلبَّستك كبارد خفىّ استرق لحظات ومرح الطفولة ونزقَ الصِبا؟؟

قد يخلعونها عنك ويتعجبون إذا رأَوك تصخب قليلا أو تتهادى فى مرح مثل أقرانك فيقول لك أحدهم :

- مش انت اللى تعمل كده يا شيخ "محمود".. بينما أهُزّ رأسى فى تعجُّب!!!

- شيخ أيه؟ لست بشيخ؟؟؟

ألا نامت أعين الرقباء حين تغدو القرية مجتمعًا ضيّقا كثقب مخرز يضحى الجميع فيه عيونًا على الجميع ورقباء حتى على خلجات صدورهم، تخترقك سهام نظرهم فى كُل خطوة، لماذا لم تكن جريئًا مُتبَجِّحَاً أو معتزًّا جلْدًا واثقًا مما تفعل لا تُضيرك النظرات أو تقتحمك عيون الطفيليين، لكنَّك تخشى الكلّ وتهاب الرُقَباء وتعمل ألف حساب لكل من هبَّ ودبّ.

صبيًا يخشى الوحدة والجانَّ، صوَّرت لى حكايات جدَّتى أهوالاً خرافية خلف الباب المغلق فى ظلمة الليل خارج الدار عن الجنّية التى ترخى شعورها الطويلة فى قاع النهير الصغير تلفّه حول ساق شاب تختاره لتجذِبه معها إلى قرارٍ لا أوبة منه والمسحور ذاك الجنىّ الذَكر الذى كان يقطُن الماء يمسك عقِب القدم بأظفاره الطويلة ويجذِب الغريق معه للمجهول، وروايات أخرى عن سكان الدار الخرِبة المُهدَّمة الذين يغدون فيها ويروحون كلما حلَّ الظلام وهجعت العيون.عضَّدها ما سمعته من بعض الصبيان قصص وروايات يقشعرّ لها البدن تُجفِّف الريق فى الحلق، فأتساءل:

– لماذا خلق الله هذه المخلوقات التى لا تكفّ عن إيذائنا نحن البشر، يتشكَّلون ويستخْفون ويتحيَّنون الفُرَص لاصطيادنا فى عزلتنا وأحلامنا؟؟.

الجُبن أوَّل درس تعلَّمته فى حياتى من القرية فبدوت منطويًا خائفًا جبانًا. وقفت فى المرآة أتأمل ذلك الخط الأسود الذى نبت فوق شفتى العليا، وكأنّه ناقوس يدق فى أعماق جسدى ؛ فيردد صدى رنّاته مظهرى الخارجى الذى بدا يكتسى برداء الرجولة والفُتَّوة، مُفصحًا عن نقلة خطِرة كالقفزة الحائرة التى تقفزها رغمًا عنك لا تبدأها ولا تنهيها ولا تدرى أين ومتى تستقر؟ أو تصل قدماك للأرض من مرحلة عُمرية لأخرى من الصِبا والوداعة والنظرة البريئة التى لا تحمل أى معنى فقط كنت تُلقى ببصرك طاهرًا مُنزَّهًا فغدوت تسترِق نظرة تكشف وتُعرّى وتتوهم وتُمنّى نفسك بفردوس منشود فى أحضان أمنية لا تدرى كنهها.

كنتَ لا تعبأ بالأجساد ولا بالفروقات بينها لا تكاد تُميّز بين جسد أنثوىّ ملىء بالمنحنيات والثنايا والبروز وجسد الرجل الصلب المشوق بل طالما انتقدت ومججت هذا التنافر الواضح فى جسد إحداهنّ – متسائلاً فى نفور عن السرّ فى تحوُّل قوام الفتيات المستقيم إلى هذا التنافر والترهُّل؟؟؟

الآن فقط قد عرفت فتملَّكنى التَوق والتعسُّس لملاحقة هذه التضاريس بعينى التى باتت نهمة لهذه الثنايا والانعطافات الجسدية التى أضحت لديَّ أشهى ما تكون! جشّ صوتى وكأنَّه غدا يخرج من بين

حجرى رحى وتخللته نحنحة الرجال وعلا من داخلى نـداء صـامت – لماذا لا أحب كالجميع؟؟؟؟

حين أدركتُ الفرق الجوهرىّ بين الفتى والصبية وبـدا جـسد كـل جنس يتشكَّل بطريقة مختلفة يزداد غِلظـة وتـشويهًا بيـنما يـزددن نعومـةً وخجلاً وبـروزاتٍ شـهية كـثمار متفتحـة وزهـرات يانعـة... تُـرى مـا طعمهـا؟؟؟؟ لعـل قلبـى يظفـر بنـشوة لا تعـدلها سـواها تـصير جُـلَّ مُشتهاه!!!! بل لماذا لا أُحَب من إحداهن كسائر الأقران؟؟؟؟

لكل صديق حبيبة عداه!!! هل بداخله سرّ أم أنَّه الوقار الذى تلبَّس به من طول الصمت والاعتزال وعدم القُدرة على الاختلاط مع البشر فصار كالغُلّ يطوّق عنقه أو كالرداء الحديدىّ الخانق مثل أردية فرسان القرون الوسطى الذى تمدَّد داخله حتى فقد قدرته على الشهيق والزفير.

تمرَّدت على هذا كله حين شببتُ عن الطوق وكأنَّنى أُحطِّم كل قيد أُورِثته من قريتى وتعاليمها المُحبطة المتخلِّفة، فبتُّ أهوى السهر والليل والولوج فى عتمته بعد أنْ كنت أرهبه وأخشاه، وأخذت أُحطِّم التابوهات التى شيدتها واحدا تلو آخر ماعانيته سابقًا من استدعاء كل ما علَق بذهنى فى المنام فى صورة كوابيس مُزعِجة وأطياف متداخلة تجعلنى أتوارى وأحتمى تحت لحافى الكثيف، ربَّما نجحت فى اجتياز حاجزىّ الجبن والصور الشائهة التى انطبعت فى مُخيّلتى منذ الطفولة لكنَّ حاجزىّ الخوف والخجل من مجابهة الناس ظلاّ باقيين أمدًا لَمَّا يُحطّما

إلاّ بعد معاناة وملاحاة حين اجتزت المراهقة وقاربتُ على سن الشباب فغدوت عرضة للرِيَب التى سُرعان ما انقشعت غمامتها حين أكسبتنى الوحدة قراءة ونبوغًا أخرجتنى من دائرة المسّ والجنون لدائرة أخرى نبوغ وعبقرية عند البعض.

وأنا الذى لم أفلح أن أكون من الفاسدين أفلا أكون من المصلين؟؟؟

صار لجامع (الصمدىّ) أثرٌ فى حياتى، دنيا أخرى لا يرتادها الصبيان المأفونين إلاّ للاستحمام فى أدشاش دورات مياهه التى تخلو بيوتهم منها، حصيره الصيفىّ وسِجَّاده الأخضر(الموكيت) السميك حين يلفنا الشتاء بعباءته الباردة، سقفه بالغ العلو كأنه يُطاول السماء تحمله عروق الخشب الضخمة يتدلى منها بأعمدة معدنية طويلة مراوح عديدة ونجفة كريستال كبيرة، بينما يتوسط السقف فراغ مربع للإنارة ولدخول الشمس والهواء تحيطه حجرة مربعة قوائمها من الخشب مؤلفة من مجموعة من النوافذ التى يفتحها خادم المسجد من ناحية سطحه للتهوية، وتلك الساعة الضخمة بالغة القِدم ذات القاعدة الخشبية التى تُضفى على المسجد عمقًا ضاربًا فى قلب الزمن منذ أنْ أهداها "عطية باشا" للمسجد فى الزمن الغابر الذى ولَى مع زمن الباشوات فبدَت ذات قيمة رغم توقّفها عن العمل بدت متناغمة مع المنبر القديم الذى تعلوه قبة فوقها هلال كبير والذى عنى فى تصميمه بالزخرفة والأرابيسك والتشكيلات البديعة نقش على درابزينه من

الخارج صنع فى عهد المغفور له الخديوِ "عباس حلمى" رحمه الله، أمّا جدران المسجد بالغة السُمك والتى يبلغ عرضها متران إلا قليلاً وهى من طراز البناء القديم – الحوائط الحاملة – ترتكز فى أركانه الأربعة فتحات مستطيلة ضخمة لشبابيك كبيرة كأنها شبابيك حصن قديم قد غُلِّقت بأعواد الحديد القائمة أفقيًا كنوع من الحماية لكل منها ضلفتان يماثلانها ضخامة وقوة، وتلك الروح التى تجوس فى نفوس روّاده مع ضوء مصابيحه النيون وسجَاده الشتوىَ الأخضر الذى يُضفى على المكان والروّاد هالة روحانية خاصَة، سرعان ما انتقلت إليك فتشبَعت بها روحك فتملَّكها نوعٌ من الوجد له معنى لم يدم ولم ينمحِ أثره بعد، أُلفة بينك وبين المكان بكل ما يحتويه تربطك به وتجذبك إليه، شىءٌ آخر غير الصلاة والعبادة وكأنَّه باحة برْحاء للجميع ولكنَّها خاصّة شديدة الخصوصية عند البعض الذين غدوت منهم تربطهم برباط دوما ما يجذبهم إليه فغدا لصيقًا بك وبهم، حين تلزَمه بين آخرين تستذكر فيه دروسك مُستنِدًا بظهرك لأحد أعمدتة الإسطوانية أو مُرتكِزًا بمرفقك على جانبك مضطجعًا أو مُستلقيًا على قفاك مسندًا بالكتاب على صدرك أسفل المربع المفتوح فى سقفه كالحجرة الصغيرة تتيح للمسجد الاستضاءة النهارية والتهوية أو ربما تواصل النظر مع السماء راحة وبساطة وطبيعية كأنَّك فى حجرتك تخلد فيها للراحة وقتما تشاء بين الصلوات حين يخلو من الروّاد إلاَ قليلاً، وتنعم بجلسة الصفاء فى حلقة القرآن بين المغرب والعشاء بين رفقاء المسجد الذين يجمعهم رحابه....

نوع آخر من البشر يفيض بالبِشر والحميمية والحُبور وكأنَّك صديق قديم لم تغب عنهم طرفة عين يمتصونك بهدوء كأنك ماء وهم قطعة من الأسفنج المخملىّ الناعم.

لا يفرض أحدٌ منهم عليك شيئًا لكن لهم طريقة تجعل جُلَ أملك أنْ تغدو واحدًا منهم ربما دون أن تدرى أو تدرك كنه من تصبو وتتطلع أنْ تغدو كأحدهم فهم ملائكة تتهادى على الأرض مجتمع آخر صغير له عاداته وقيمه وتطلعاته مجتمع سام قيَمِىّ يقوم على الفضيلة والمحبة. أمَا تراهم يتعانقون كلما التقوا يتبادلون أحاديثًا ودية خالصة تنم عن محبة وإخلاص عميقين ويتسارُّون فى جوّ مفعم بالثقة حين ينتبذ أحدهم بآخر رُكنًا قصيًا فى أحد أركان المسجد، مُفعمة وجوههم بالبِشر حين يلقونه لا يبدو بينهم تضاغن ولا أحقاد ولا صخب كأنَّهم كائنات فضائية تمشى على الأرض!؟

أفرّ بكتاب وسط الحقول هربًا من صخب وضجيج وفُحش جارى (عبد السلام) الأمىّ المتباهى بجهله وكرشه وغطرسته ليس له نصيب من الفتونه سوى الجعجعة وسكنى الطريق أجوار منزله، رغم كونه أحد السُعاة فى مصلحة البريد وينمّى دخله من قِدرة فول وطعمية تعدّها زوجته لكنه لا يتوانى عن التفاخر بصولته يمعن فى تحدّى الجميع حين يطغى صوت الكاسيت على صوت الهاجعين فى عقور دورهم وفى مكامنهم، هو يقتحم السكون والطمأنينة (واللى عاجبه عاجبه) رُبّما استحدثتُ وحدتى فى الحقول البعيدة نحو البرارى فلها متعة خاصة

أنعم فيها بالطمأنينة التى لا يشوبها هدوء كثير وشعور إضافىّ أنك تملك الكون وحدك فتغدو المساحات الشاسعة من الأرض التى يغطيها البرسيم الأخضر كسجَّادة خضراء مترامية ذات وبرة خضراء كثيفة تتماوج مع الريح، وحين أجاور الساقية التى تجرّها بهيمة مُغشَّاة العينين خشية أنْ تُبصر حالها وأنَّها تدور فى دائرة مغلقة فتأبى استئناف الدوران ولو ضربها صاحبها. أتخيَّر لنفسى إحدى شجرات الكافور القديمة كعمر جدّى وقريتنا وأستغرق فى التأمُّل ومناجاة الطبيعة البكر والهواء الذى لم يعكِّر صفوه تلوّث أو دخان، فأمدّ بصرى لما وراء الساقية والطريق الترابىّ حيث المقابر قفر موحِشة رهيبة تهبّ من تجاهها رياح حارّة كأنَّها السموم فكيف تبدو فى عتمة الليل وظلمته الدامسة؟؟؟ وأعجب "لعزيز" اللحاد الذى اتخذها مسكنًا ومُقامًا! كيف يتسنَّى له أنْ يقيم فى دهاليزها التى يختفى من جاس فيها عن عين الطريق؟ ويجيب من يسأله متعجبًا عن حاله :

- دول عِشرتهم أحسن من عشرة الصاحيين لا بيأذوا حد ولا بيتدخلوا فى شئون غيرهم، كفاية الهدوء اللى أنا عايــش فيه وسطهم ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾...

يسير بتؤدة دون أنْ تترك قدماه أثرًا على التراب كأنَّه الطيف من شدَّة نحافته وقِصره وهزاله وعينيه التى استحال فيهما السواد رماديًا باهتًا ربما لتوغُّله فى أرذل العمر الذى عاين ويعاين فيه الراحلين صباح مساء يضمّخهم بالماء والكافور ويغمرهم بالعطر والحنوط ويكسوهم

البياض يعقد أسفل اللحى بمقدمة الرأس برباط أبيض حتى لا ينهدل الفك أو يفغر فاه طالما فُغِر للحديث والشجار واللجاج والخصومة، ويربط اليدين معقودتين على الصدر وتُقيّد الساق مُلتفّة على الساق يفتح القبر ويجهزه للضيف الجديد يمهد له اللحد فيكوّم العظام القديمة فى جانبٍ منه ويسوّى للضيف التراب يستقبله من الداخل كأنّه مُشرفٌ على آخر الدنيا حين يستقبل به القبلة ويُضجِعه نحو اليمين ثم يفك إساره ؛ ليعدو فى عالمه الجديد ودنيا المجهول يُغلِّق عليه القبر فيحكم الغلق فيبنى مع ابنه "صابر" فوهة المقبرة بالطوب الطينىّ ويمسِّدها بالطين ويتركه لدنياه الجديدة. هو القنطرة الأخيرة التى يعبر عليها أهل القرية للعالم المجهول، بينه وبينهم بل بينه وبين الموت كيمياء رُبَّما هو الكائن الوحيد الذى لا يخشاه ولا يرهب المقبرة من الداخل ولا يستوحش الجثامين ولا الأكفان ولا رائحة الموتى أو رائحة الموت نفسه التى يتنسمها بعُمق ومعبأ بها صدره لأنّ حياته لصيقة بالموت ورزقه كامن فى براثنه وسط الصراخ والعويل ونحيب الفقد، ولرُبَّما نشبت صداقة بينه وبين القابعين جواره فبادلهم الشِكاية والحكايات وقصّ عليهم أخبار ذويهم مَنْ تزوَّج ومن انتهى من دراسته ومَنْ أثرى أو ضاق حاله و لعلَّه صادق الملَكين وحفظ الإجابات المُنجية من الهلاك أو ربما ترفقا به وقامت بينهم أُلفة فلعلهما لن يرهقاه فى السؤال!! ألم يكن ينام على مصطبة فى مدخل المقابر؟ كالقيِّم على الجانب الأخير من الحياة والمطلّ على الدرج الأول من السلم المفضى للعالم الآخر، ولكن لماذا خُنت أصدقائك يا عمّ "عزيز" فبعت أحدهم لطالب طبٍ ابتغى جثمانًا يستذكر عليه دروسه؟ ربما كنت غِرًّا صغيرًا حديث عهدٍ بعملك الذى

ورثه الابن عن الأب والأب عن الجدّ فى سلسال طويل حين كانت هذه القرية أحراشًا وهيشًا وغابات من البوص والحشائش والرمال ودفعت الثمن غاليًا ستة أشهر من عمرك فى سجن المحافظة لم تُعِد الكرَّة بعدها بعد أن أعيى القرية دفن موتاها فى غيابك وتعاونوا على ذلك بجهدٍ ومشقَّة فكانت عودتك يا سفير الموت كأنَّها العيد للقرية ولك حين عُدت لرفقائك الذين ربما افتقدوك كما فقدت حريتك لم تستشعرها كاملة إلاّ بين الشواهد والجبَّانات واللحود!!!

مرَّ القطار معتليًا الجسر بصافرته العاتية تخترق الأفق يجلجل ويصطخب كأنه مارد متوحش رهيب يهيج التراب ويثير الريح والغبار من حوله فيصبح للجسر دويّ مفزع حاد. تسرَّبت لذاتى الملالة من حديث القبر الذى تسرَّب لنفسى وشطح بخيالى عن الاستغراق فيما أقرأ فقررت المسير، طقس آخر من طقوس الاستذكار فى القرى.

أمسكتُ بكتابى بين يدىّ ورُحت أُحملِق فى سطوره أستزيد وأُكرر تتقافز قدماى فوق الفلنكات الخشبية التى تحمل قضيب السكة الحديد فى الجانب الآخر المهجور الذى لا تسير فيه القطارات، فيلقانى الشيخ "إسماعيل حوّاش" يتقافز فى الاتجاه المعاكس خلف أتانٍ عجفاء حمَّلها سباخًا (بقايا روث من حظيرة البهائم) يُردِّد الألفية بصوت عالٍ كأنَّه يصيح :

ترفع كان المبتدا اسمًا والخبر تنصبه ككان سيدًا عمر

ككان ظلّ أمسى بات أصبحا

يرمقنى فيبسم فى وجهى يهتز كرشه المدوّر الصغير تحت جلبابه الخلِق وهو يقول مبتعدًا :

- شِد حيلك الامتحانات على الأبواب.

فأجيبه باسمًا :

- بشد فيه لحد ما قرب يتقطع شد إنتا يا مولانا.

- يا أفندى الكتاب هو طريق الخلاص من الفقر المذقع الذى ورثناه كابرًا عن كابر، سلام حتى لا أتأخر عن والدى فى الحقل.

يضحك من قلبه الذى لم يعتد السعادة والفرحة التلقائية فقط يختلقها اختلاقًا.

أستذكِر وأستذكِر ثم تقودنى عيناى هائمة نحو جسوم عجفاء كأنّها أعواد الحطب. الوجوهُ كالحة سمراء قد اصطبغت الوجنات بحُمرة الشقاء ووسخ الكدّ فى العراء، ودبَّ الجفاف فى الشفاة فتشقَّقت، لكنَّ شقوة الحياة ذات اليد الطويلة لا تبلغ ما تحت الثياب وربما لا تؤثر فيه إلاّ قليلاً!!

حين تبدو سمَّانة ساق إحداهنّ ليظهر دورانها والتفافها وأثرٌ قليل من النعمة وهى تُدلى ساقيها على جانبى ظهر ركوبتها فينحسر جلبابها لحدّ ركبتيها أو حين ترفع ذيل جلبابها لتخطّى قناة (مجرى الماء) تروى الأرض الجافة التى تحن للماء وتشتكى الجفاف وقد تشقَّقت تربتها كشفاههنّ، كانت "عايدة" أم مسعود تلك الفلاحة الشابة التى كلما

مرّت بى تهدينى التحية تضحك لى بعينيها وقد بدت غمّازة خدّها الأيسر شهية مُرحِّبة تهتز كلما تجاوزتنى تعمَد لتمايل خصرها فلا يهتز ردفاها المتصلبان الصغيران إلا قليلاً، ربما صدق ما سمعته عنها وشبقها الدائم للطلبة الذين يطرقون أجوار حقلها النائى فتستقدم أحدهم وسط حقول الذرة لتمنحه من ثمراتها الجافة، اشتدَّت وسوسة شيطانى الحاضر بقوة فى وحدتى الغائب عنى وسط الجموع.

كانت الشمس قد توارت عن الأفق وبدأ الغروب يُخيّم على الأجواء. هاتفنى صوتها الأنثوى بلكنة الأرض والنبات من حقلها :

- يا أستاذ "محمود" عاوزاك فى حاجة تعالى الله لا يسيئك..

نعم إنها تنادينى لعل دورى قد حان فأنا أطرق هذا المكان زمنًا نتبادل الابتسامات والتحية. لحظات ويطبق الظلام على الدنيا والخجل والمكان وتغدو حقول الذرة مكمَنًا آمنًا ، استجبت كمن يُرخى خطامه للحدث يقوده أنَّى شاء لا يكترث أين المُستقرّ فقط يخرج من كبته، وسجنه ويحطم شرنقته، انسقت لها مكبَّل اليدين كالمنوّم تنويمًا مغناطيسيًا تهيم حواسى فى كل وادٍ وتتخيل ما رتبته لها "عايدة" من مفاجآت ومِنح لن أرفضها أو ألفظها سأرحب بكل هدية تبادر بها وأردَّها لها بأحسن منها. حين تطوقنى بذراعيها وتمعن فى احتضانى وتقبيلى فأستسلم للمفاجأة فى البداية ثم أنساق معها كما أرغب يكفى ألا أكون المبادر وتكون هى البادئة فتمنحنى لذَّة الشعور الذى تتوق له كل ذرَّة فى تكوينى، يأتينى دون أن أسعى له ولكن!! كيف تكون القُبلة وما طعم التقاء الشفاه والتحام الأجساد؟؟

– هذه الأكواز من الذرة الخضراء طعمها أحلى من العسل إقبلها هدية منى.

بينما تحملق فى وجهى بابتسامة واجمة ما اعتراها من خيبة الأمل حين مهّدت لى الخلوة والقرب والذريعة ولم أحرِّك ساكنًا كالأبله تجرّه إليها فلا يأبى ولا يستجيب.خلّفتها بين أعواد الذرة وسط الحقل كأحدها بينما توارت الشمس بالكُلّية واختفى قرصها البرتقالىّ خلف جسر السكة الحديدية، توالى قدماى خطاها نحو منزلى أحمل هديتى عنوان خيبتى لأمى لتشويهم فى فرن الخبيز.

ظللتُ أرقب "عايدة" أيامًا على أطراف حقلها لعلها تدعونى لدروبه مرة أخرى لكنها لم تفعل فقط تومىء بابتسامة مقتضبة كلما مرّت بى وانبرت نحو عملها الشاق أوان غياب زوجها الخفير النظامى بالقرية، ربما لم تعُد تأمل فى كفّى الأستاذ الرقيقتين الناعمتين أنْ تُسقِطا كيزان الذرة وتمنحا جسدها الممصوص قليلاً من الدفء، لكننى لم أفعل ولن أفعل ولو دعتنى لحقلها ألف مرّة شىء من الخزى والانكسار تسرَّب إلى ذاتى لم أفعل لا خوفًا من ضميرى. بل لأنَّ حصار الجبن بداخلى لم يتقهقر، يكفينى تبكيت "وحيد" وتندُّره علىّ!

– (ياخيبتك يا كسفتى).

وهو يضرِب كفًّا بكفّ :

– تريد أن تجنى ثمار الحب الشهية دون أن تزرع وتحرث، تبغى الحصاد قبل أنْ تزرع!!

كان منذ صباه يعمل طوال إجازته الصيفية نادلا فى مقهى أو صبيًا فى مخبز خالته فى العاصمة الفسيحة، ثم يأتينى كل حين بأخباره وحكاياته ومنازعاته وكثيرٍ من قصص الحب وأغانى (عمرو دياب) التى كان دائما يربط إحداها بكل حكاية من غرامياته، فأتيه بمجابهته الحياة بكل هذه الشجاعة والأمل. فوجئت به ذات مرة يتعمّد إخفاء أثر جرح طولى فى صدره ترك فيه ندوبًا غائرة،كان يخشى أن يطّلع أحد على نقطة الوهن الكبرى فى حياته التى ربما تفوق خزيه من تنصّل والده من مسئوليته حيالهم.

علمتُ بعدها أنّ رفيق دربى الذى وهبتنيه الأيام عليل القلب لا يُرجى شفاؤه وأنَّ أيامه فى الدنيا مهما طالت قصيرة فاشتد حزنى الذى تلاشى حين رأيت (وحيدًا) يتجاهل هذا الأمر برُمَّته ويتحدّاه كما تجاهل كثيرًا من مآسيه ظروفه وقلبه العليل معًا. يجتاز أيامه مُسرعًا يحيا كل لحظة فيها وكأنه يخشى أن تفوته فلا تعود، يستذكر بجد و ينجح بتفوق، يحب فى كل يوم، ينشغل ثم ينسى ويشغلهن ويشغل الأيام كذلك....

صديقى أقسى حالاً وأسوأ ظروفًا يستشرف المستقبل الذى بدا له أنه لن ينعم منه بالكثير، يُقحِم "وحيد" نفسه فى مشاحنات الأقران يُمعن فى تحديهم ومناجزتهم يواصل الحرث حتى اللهاث دون أنْ يمنح نفسه فُرصة التقاط الأنفاس حين يعييها الاندفاع وكأنَّه يسابق أجله يخشى أن يسبقه عمره وكأنه يناضِله ويحقق فى دنياه وحياته القصيرة

مآربه!! يعرف ماذا يفعل وما عليه إنجازه يعرف ظروفه ويتعايش معها ويتغلب عليها بالحلم والحب والعناد...

وفى إجازة الصيف الطويلة حين أضيق بوحدتى أو يضيقون بطول مُكثى فى حجرة جدّتى من أثر لقبوعى الطويل وحيدًا بين أوراق وأقلام يتملك القلق أبى الذى بدأ يتسرّب لنفسه فينادينى:

- ألا تخرج لتشارك الصبيان لهوهم؟

أو يدعونى لحضور أحد الأفراح ومشاركة الشباب بعضًا من مزاحهم المباح.

أخرج حين تصفرُّ الشمس وتكتسى أشعتها الصيفية القائظة بقليل من اللطف بعد نهار طويل كأنَّه لا ينتهى، أشهدهم وهم يتشاحنون فى -الطريحة- يركلون الكرة كأنهم يمنحونها عنفوانهم فيتقاتلون عليها، فأكتفى بالمشاهدة متبرمًا من بعيد أنأى بنفسى عن مضمار أخفقت فيه بجدارة ومُنيت فيه بإصابة فى الجبهة تركت أثرًا أتحسَّسه كُلّ حين. صموت هادىء أستشعر نفسى غريبًا وسط الجموع أبحث عن دور فلا أجد ربما أحاول فأخفق.

فى كل مناجزة أتوارى حتى لا أغدو الأخير ثقتى تتلاشى فى نفسى، أستشعر أننى خلقت ؛ ليتفوق علىَّ أىّ منافس كأننى خلقت للفشل أو كأنَّنى وصيف الشرف من سيمنح مناجزه نشوة الانتصار بسهولة على منافس غير قوىّ لا يُخشى، حتى مناجزة الكلمات تتلعثم فى

فمى، وتتوارى خلفها أفكارى وحصاد الركون خلف أسوار كتبى، فأعجز عن البوح بما يجيش فى صدرى وما يعتمل فى جوفى من معانٍ خفيّه!! لا يكُفّ رأسى عن الضجيج. حوار داخلىّ يتواصل صخب الكلمات داخله، جعلتنى أستشعر فى قرارة ذاتى أنَّ بداخلى أمرًا مختلفًا!! أتُراه الجنون؟؟ يدفعنى أبى لاقتحام غياهب الصبا، يخشى أن تضيع أيامى سُدى فلا أجدها حين أبحث عنها وقد ولّت مسرعة هاربة!!!

بدا عسيرًا علىّ أن أواكب أيامى، أجوس فى عزلتى أتحسَّس مآربى بين أوراقى وكتبى أنفرد بهم عن دنياى المتلعثمة التى تجرجر قدمًا وتؤخِّر الأخرى وترى فى بُعدها عن الناس غنيمة و نعمة، شىء يتنازع ذاتى يدفعنى للتميّز فى مضمار أستشعر فيه كينونتى وتستشرفه أعماقى، تمرُّدى على الصورة البذيئة لمعظم فتيان القرية وعجزى أن أجاريهم أو أتلبس أفعالهم التى لا تنطلى علىّ ولا أرضاها لنفسى.

لم أفخر بتميُّزى فى دراستى لم أعش دور الطالب السوبر ولم أرتدِ ثوب التعالى والكبر. لم أُجِد هذا يومًا ولم أسع لزهو وخيلاء، فقط أقرأ وأقرأ ؛ فيزيد صمت لسانى وتتعارك الكلمات داخلى. صرت حبيبًا لليل الذى أمسى طريقى للوحدة حين تخفت الأصوات إلا نباح وصياح وصرير ونبرات مبحوحة لأصوات مختنقة مكتومة قد يحملها نسيم السحر الساكن خلف خصاص نافذة قريبة مجاورة أو شخير يقتحم الجدران ويتشاحن مع هزيع الليل وأنغام الصبا!!!

كل هذه الأصوات الليلية الكئيبة صارت سميرة لوحدتى الاختيارية حين أجلس على بسطة السلم الأخيرة التى تؤدى إلى سطح المنزل أقرأ وأرمق النجوم التى تشكّل تجمّعات فريدة. بينما النسائم الرقراقة تسعى إلى خدك تصُكُّهُ أو تُقَبِّلُه ببرودتها اللطيفة وكأنها تربت عليه. كأننى أروى غُلةً نهمة للكلمات عطشى للرىّ، لا أنسى حين قبَّل معلمى جبينى أو حين أخبرنى آخر بتمنيه أن يكون له ولد مثلى، ربما يطارد هذا الشعور الأخير إحساس الضعة، والفشل اللذين يقتحمانى.....

هل صرت الفتى الإنطوائى الذى خرج من براثن وحدته وعزلته الاختيارية حيث لا يجد نفسه إلاّ مع نفسه يصنع فى وحدته عالمه الخاص الذى يصول فيه ويجول؟ وحين يخرج من بيته يتعثَّر فى خطواته كأنَّ أعينًا ترجمه وكأنَّها إشعاعات تخترقه وتؤذيه؛ فيهرول مسرعًا يُحَمْلِق فى الأرض يبحث لخطاه عن طريق آمِن ينأى فيها عن نظراتهم المقتحِمة المتطفلة. ودّ لو تسربل فى شرنقةٍ تخفيه أو ارتدى قناعًا يحجبه عن أبصارهم حين يلتهمونه بحديد عيونهم، وكأنهم يطوِّقونه فيصبح ممشاه وخروجه وولوجه معاناة كبرى ودَّ لو أعفى منها فوُهب جناحان يحلِّق بهما فوق الأسطح المعروشة بالبوص والمغطَّاة بكثافة بعيدان القشّ ؛ ليطير من فوق مسكنه ثم يئوب إليه دون أن يرمقه بشر.....

لماذا يريدوننى أنْ أُحيَّى الجميع فينتهكوا خصوصيّتى. فقط أودّ لو أرتاحُ من تداخلهم وعيونهم المنطلقة كالكلاب الجائعة فى كل

الطرقات، أجاهد نفسى تقيَّة من شرهم ؛ فألقى السلام على "عبد السلام "جارى العربيد الذى يحيا عمره كله أمام داره لا داخلها فلا يلجهاّ إلاّ لمامًا يأكل ويشرب وينام ربما يضاجِع امرأته فيه بعد أنْ يكفّ الطريق عن استقبال المارّة حين يُرخى الليل والظلام سدلها!! فتخرج التحية متحشرِجة مهتزّة مهترِئة دون معنى لا تقاوم نسمات الريح التى تلقاها فتبددها وتبعثرها وتلقى بها بعيدًا عن أذنيه اللتين اعتادتا سماع الأغانى الشعبية الركيكة ومواويل الموالد التى تقضّ الآذان بصخبها بينما لايجد هو متعته إلاّ فى دويّها المُفزِع الذى يضيق به الجيران دون أنْ يجترئوا على مجابهته لتبجُّحِه وصلَفِه وتماديه فى الغىّ والعناد فلا يكفّ عن الشِجار واختلاق المشاحنات رغم أنَّه طبلٌ أجوف منتفخ على لاشىء فتوّة من صنع خياله الذى سوَّل له التمادى فنجحت اللعبة وصدقت الأكذوبة التى لم يكترِث لتكذيبها إنسان!!

ربّما لم تبلغ تحيتى أذنيه أو بلغته فى وهن فلا يبالى بها أو يردها دونما اكتراث كأنه يبصقها فى وجهى وحينا يتصامم كأنْ لم يسمعها أو ربما كان فى الواقع كذلك...

وصفه أقرباؤه بالمعقَّد بينما بكت أمه ظنًا أنّ مسَّاً من جنون أو شيطان أصابه إلاّ أنَّ جدَّته (فاطمة) كانت تواسيها فتقول :

– ابنى ده سيد الناس وبكره تشوفيه هوه بس بيستحى شويه ما تشغليش بالك بيه وما تفتحيش ودنك لحد.

فتعود(كريمة)لانشغالها بأحمال المنزل وخدمة الصغار التى لا تنفضّ أبدًا.

شعور بضآلة المكانة والمنزلة، الحرمان من متع الحياة وكأنّها تجافينى قدر مجافاتى لها، مُنغِّصات البحث عن كينونة وعنوان بينما سحابات القلق والتوتر تُبَدِّد صفو أحلامى، كالكابوس القديم الذى يزورنى كل حين فأرى نفسى حافى القدمين وسط ميدان فسيح زاخر بالبشر، أطرق ردهات إحدى المؤسسات الضخمة بقدميّ العاريتين دون حذاء وتغدو كل مأساتى : كيف أوارى قدماى عن أعين الناس الذين لا يلتفتون لى من الأساس؟؟؟

بل كيف وصلت لهذا المكان دون أنْ أنتبه لحفائى؟؟ وكثيرًا ما أشهد ورقة إجابة بيضاء على منضدة فى لجنة امتحان أعجز عن ملئها أو تفسير أسئلتها التى تبدو ضبابية غير واضحة وتظل بيضاء رغم محاولاتى اليائسة لملئها بينما يداهمنى الوقت الذى لا أملك حياله شيئًا سوى مزيد من التوتر والارتباك.....

غدا الورق له قيمة! كل مكتوب هو لا شك خلاصة فكر ودراسة وجهد، حتى لفائف الطعام وقراطيس الطعمية وكتب و صحائف غدوت للجميع صديقًا أدس أنفى بالساعات بين طياتهم ؛ ليحملونى لعالم آخر أسمى وأجلّ ربما مأساة أرثى معها لشخوصها أو قصّة حُب أعجب لأبطالها بل أتخيل نفسى مكانهم نعم سيأتى اليوم الذى أغدو فيه بطلاً لقصة حب غامرة، تهيم بى إحداهنّ وَجْدا وشوقًا وأعيش

الملاحم والسِّير كأنى أراها وأشهدها رأى العين. أعجب لقولٍ حكيم ردَّدته شخصية فى ملحمة ما، أبكى للمآسى وأنتشى بالانتصارات وكأنى أحد فرسانها المغاوير!

لا أجد ذاتى سوى بين دفتي كتاب أفتش فيه عنها فربما أجدها مبعثرة بين سطور من الوجد والقلق. وكأنَّى ولدت من رحم الكلمات أجد فى أحرفها دنياى الجديدة التى أنشدها فتضحكنى وتبكينى و"الشجرة الباكية" التى نبتت من دماء الأخ القتيل والتى تسيل من أغصانها قطرات كلما جاء الخريف وكأنّ روحه تبكى معها إحدى الأقاصيص الطفولية المترددة بين البراءة والوفاء التى جعلتنى بالغ الاكتئاب والتعاسة لأيام أرثى فيها لمأساة الأخ المغدور!

هل كنتُ رقيق النفس أم جبانًا يخشى الناس ويهرب منهم؟ فيتوارى فى لفائف ذاته وأوراقه وكتبه وصدر جدَّته الذى بدا أحنّ ما فى دنياه حصنه الحصين الذى يلقى بنفسه فيه لا يجد فى ذلك غضاضة فينسى فيه الدنيا ومجتمع القرية الذى - رغم ضيقه - يسع الجميع إلاَّه فيصبح فى عينيه ثقب مخرز يتعسَّس دروبه علَّه يجدها خاوية من المارَّة فينطلق فيها انطلاق السهم من القوس خشية أن يلقى أو يصادف إنسانًا.

لا أجد سلواى إلاَ فى هزيع الليل حين يخلُد مجتمع القرية للسكون فلا صوت يعلو فوق صرير الخنافس وصياح الديكة حتى المأفونين من هواة سهر الشوارع والحارات والذين يقضّ ضجيجهم وصخبهم

مضجعى ومضجع أصحاب البيوت جميعها يأتى أوان تغيب فيه أصواتهم وتخلو القرية وسكونها لي وحدي.

وأصبح الصيف كائنًا مزعجًا يجبر الناس رجالاً ونساءً على السواء على افتراش الطرقات ومداخل البيوت والمصاطب، واقتحام كل مارّ وكأنّ الطريق فى هذا الفصل بالذات غدا سكنًا ولواذًا هربًا من حرارة الأجواء فى النهار وصهد الجدران فى المساء، وطقسًا ترفيهيًا إجباريًا يتسلى فيه الجلوس بلوْك سيرة بعضهم حين يغيب ينهشون فيه الأعراض ويأكلون لحومهم الميّتة وينشبون عيونهم فى المارّة ؛ فيقتحمون خصوصياتهم وعادة القرية حين تلوك الألسنة العِرض والشرف أن تطوف حكاويها شرقًا وغربًا حتى تبلغ الجنين فى بطن أمه. لكنّها تتوقّف فى لحظة ما قُبيل أنْ تطرق صماخ أُذُنىّ صاحب الفضيحة، يعتقد فى قرارة نفسه كلّ من نهش لحم أخيه أنَّ بيته منزَّه وزوجته مُبرّأة من كلّ عيب(أشرف من الشرف) كما يقولون بالون منفوخٌ من الهواء كفخرهم المزعوم، يتيهون فخرًا بما لا يمكن الجزم به وربما كان محلّ شك وريبة وقد يكون فى الواقع تيس مستعار بينما يتسلل البغل الحقيقىّ فى غفلة من الرقيب المتشدِّق تحت جنح الخفوت والترقُّب فيطلق حينها العنان للرغبات الآثمة. فحين يتيه فتيان النزق والفحش الذين غدوا شبابًا بحسن اختيارهم زوجاتهن اللواتى هن أشرف من الشرف يكون بعضهم واهمًا أو متعمدًا الكذب على نفسه فحين خطب "حسنين" "سهير" العمشة ذات الرموش المتآكلة المعمّصة لم يكترث أو تغافل عن

كونه كان فى نهاية طابور طويل من العاطلين الذين تمددوا فوق جثمانها ينهشون الليمونتين العجفاوين فى صدرها ويلتهمون الشفتين المتشققتين والوجه المقوَّب الخشِن .....

غدت جلسة القرآن سلواى حين أجتمع مع الربانيين الجُدد الذين حلّوا فى طريقى وغدا المسجد أو الجامع كما كنّا نسميه جامعتى الأولى الذى جعلنى أتوق للجامعة الفعلية حين عاصرت الجامعيين النابهين فيه. وفى حلْقة القرآن حين تجمعنا وكأننى أرتقى فيها معهم وأستشعر التضاؤل فى حضرتهم رغم ما غمرنى من زهو غدوت أستطيل به على أقرانى قليلاً حين فُقتهم فى الدرس والتحصيل.

آمل أنْ أحظى بشىء لا يُدركه سواى فيُشار إلىَّ بالبنان فلا يدركنى التعالى ولا الخُيلاء فقط أضحى ذا مكانة لا أستبدّ فيها ولا أتعاظم فذاتى ليست مستبدة لا يعتريها الزهو.

لم أحتقر يومًا سوى الماجنين والفسدة وإن نازعتنى نفسى فى قرارتها – ماذا لو امتلكت جرأتهم؟: نزقهم واندفاعهم حين يطلقون العنان لرغباتهم وفحشهم وكل ما يخطر على عقولهم القاصرة المتبجحة ؛ فيفعلون ما يحلو لغرائزهم ويُهيىء لهم من شهوات، الأوّل فى دراستى ' لقب لم أسعَ إليه وإن راقنى ربما اكتسبته من كونى جارًا لصيقًا للكتاب، يبدو أنَّ صداقتى له ستؤتى ثمارًا لم أتوقعها، فأنا المُغيَّب فى أطمار الوحدة والعزلة والتنائى عن البشر أحيا بمبدأ – يانحلة لا تقرصينى ولا عاوز منك عسل – لم يبسم لى القدر طويلا فكما منحنى منعنى. ووجدتنى

أتراجع أمام آخر (حسين) ذلك القادم من مدرسة أخرى هابطًا علىّ بالبراشوت ؛ ليستلب منى الريادة بخفة ومهارة، ويتصدر المشهد كاملا ؛ فأُصبح وصيفه الأول والتالى بعده فى الترتيب. ما أصابنى بحنق لم يغادر حلقى فهى الهزيمة الأولى فى نظرى التى لم تنمح من ذاكرتى والتى لم أستطع التخلُّص منها وقتها. رغم إصرارى الذى سرعان مايدب فيه الوهن وعزيمتى التى أسرع ما تخور، غُصَّة فى الحلق وحقل أشواك اعترض طريقى الذى رجوت أن يكون آمنًا هادئًا. لم أعد أدرى هل أكره "حسين" أم أكره ذاتى التى عجزت عن استرداد الصدارة رغم محاولات مُضنية؟ لعلها لعنة أصابتنى كأحد المآسى حلقة من نار لا يمكننى الفكاك منها، استسلام المُضنى لأحاسيس أخرى.غمرتنى طوارىء داخلية استماتت فى غزو الجسد وقابلتها باستسلام المُرَحِّب السعيد. تُعرقِل هِمَّتى وعزيمتى وما يدفعنى لمواصلة طريق بدأته، رغبة مُلِحَّة تدعونى للحب يجيش صدرى بعواطف المراهقة ونزق الشباب الذى لم أترع فيه صبيًا. فحنّ إليه قلب جافّ لم يرتوِ أوتبلل به شفتاه.

نعم أردت أن أستشعر قلبًا يخفق من أجلى ولو من على البعد أو على سبيل النزق والترَّهات وأوهام الصبيان، أأعجز أن أرتدى بذَّة فارس الأحلام أم أنَّها لاتناسبنى؟

هل غدوت شيخًا على صباى؟؟ الويل لقلبى الذى يتوق إلى ما لا يجب، ويستشعر حاجته للأنثى.

كانت شمس الظهيرة تنعكس على صفحة النهير الصغير تُضوى على لألاء وجهه، وتضفى الأشجار المبعثرة على ضفتيه ظلالاً قاتمة خضراء تتراقص مع مويجاته الغير صافية.

بينما نسمات شوارد تعبث حول دفتيه فتمنح الظهيرة الصيفية القاسية لطفًا ووداعة، ترمق ضفة النهير الأخرى القريبة البعيدة بضعة بيوتات متناثرة هنا وهناك تمتد وراءها مساحات فسيحة من حقول مخضوضرة متفاوتة الاخضرار. لا تُبدى تنافرًا بل تناغم رائع رائق كسيمفونية هادئة تعزفها الطبيعة البدائية ومن ورائها جسر السكة الحديدية الذى يقطع القرية من أقصاها إلى أقصاها؛ يَقُضّ الضجيج والسكون الذى يتخلَّل هذا التوقيت فى القرية صافرة القطار وزلزلته الجسر العالى بينما تتعالى الضَّجَّة أوان اجتيازه الكوبرى الخشبى الذى خلّفه الإنجليز من تراثهم الصامد الذى يتحدَّى البِلى تومئ بدخوله أو خروجه من القرية.كانت ثمة جثة طافية على صفحة النهر مكبَّة على وجهها ظللت أسير بمحاذاتها على الشاطىء مع بعض الصبية والناس الحديث لا ينقطع :

- دى جثة راجل.

- أشمعنى يعنى يابو العُرّيف؟

- أصله مكبوب على ظهره إنّما الست بتبقى عايمة على وشها.

- شوف حكمة ربك ياأخى فى الستر حتى الغرقانين.

- الراجل ده باينه من "شبراشاص".

- ليه بقى يافالح؟؟

- لأن الجثة بتطفو على وش المية بعد تلت ايام يبقى أكيد غرق هناك ولما اتنفخ عام.

- ده لابس بدلة ياحرام شكله موظف مش فلاح ياتُرى كان بيتوضا فى المصلية اتزحلق وقع والا حد عملها فيه؟

- تلاقيه تار مش شايف الحبل اللى متعلق فى رقبته.

- والا تلاقى الجنية والا المسحور سحبوه معاهم تحت.

- مسحور يابن العبيطة أجرى بسرعة نادى "حسنين" الغفير من عند الدوار يبلغ حضرة العمدة.

- أهو هيتحجز عندنا فى خشب الكوبرى وقوايمه (السبعات والتمانيات) المتداخلة.

- هو انا لسه هاستنى أنا نازل أجيبه.

- خد ياض يابن العبيطة أرجع يا "شاكر" لا العمدة يسوّد عيشتك.

بينما يمضى "شاكر" المكتظ البدين حليق الرأس ذلك الفتى الذى ربما لا يكبرك كثيراً. ولم يحظ بأى قدر من التعليم مثلك فهو إمَّا فى الحقل يشتغل كالحمار وإمَّا خلف ركوبته المُحَمَّلَة بالسباخ والروث

وأحمال البرسيم حافيًا لاهثا مُتَعرِّقًا فى جلباب باهت رثَّ ليس تحته شىء صيفًا أوشتاءً. يواظب على الصلوات وجلسات القرآن التى يجد فيها متعة روحية فى حياته الخاوية إلا من الأعباء بينما قلبه كأنّه قطعة من حديد لا يهاب إنسًا ولا جانًا ربما يبيت فى الخلاء أو فى إحدى العشش المسكونة التى يخشاها الجميع بينما هو لا يأبه لشىء من ذلك وعندما تستفسره عن سرَّ هذه الشجاعة، ربما لا يعى مقصدك أو يظنّك تستهزىء به وتنكَّت عليه ؛ فيجيب بغلظة مشوبة بكثير من البلاهة :

- أهو كِده خلقت ربنا.....

انتفض "شاكر" قبيل الكوبرى حين ارتأى الجثّة الطافية قد رست بين نبات ورد النيل الذى يغطى صفحة النهر أسفل الكوبرى بين القوائم الخشبية التى تشكِّل دعامات لأساسه وتعطى مظهر أرقام سبعة وثمانية متداخلة نتيجة تقاطعها معًا، ومرق من جلبابه مروق السهم فى ثوانٍ وألقى بنفسه عاريًا وسط المياه بسرعة بارقة قبل أن يمنح أحدًا فرصة للتطلع إلى سوأته كأنَّه قرموط البِركة، ربما شغلته الشواغل أو كفته بلاهته التفكر فى أن يبدو كذلك، دفعته شهامة الأهطل أن يفزّ مسرعًا لاستنقاذ جثمان الغريق وهو يقول ناهرًا :

- جرى أيه يا أهل بلدنا واقفين تتفرجوا ده إكرام الميّت دفنه....

بينما صوت خفيض كأنَّه الهمس :

- العبيط هيودى نفسه ف داهية دا الموضوع فيه نيابة وسين وجيم...

لم يعبأ "شاكر" لشيء من ذلك ولا لتوبيخ العمدة "مصيلحى" له على جرأته :

– هيا البلد ناقصة مصايب لما تجيب لنا مصيبة طازه ما كنت تسيبه يا ابن العبيطة يمشى مع الموج لحد ما شبك كوبرى "كفر سنتراوه" يوقّفه إحنا مالنا نجيب لنفسنا وجع الدماغ ليه؟

تنفضّ الإجراءات بعد قدوم وكيل النيابة لم يعبأ "شاكر" بموجبات التوبيخ والإهانة التى انصبَّت على رأسه حين أقحم القرية شِبه الآمنة فى مصيبة طافت البلاد ورست على شاطئها. وانبرى وسط فاعلى الخير من الجُرآء من أهل المنطقة بشجاعة وجرأة فى تغسيل وتكفين الغريق بعد أنْ قيَّدت النيابة الجريمة فى خانة المجهول عقب أن أنهكت الفتى شاكر والخفراء بين متاهة من الأسئلة،ثم وورى الجثمان مقابر الصدقة المخصصة للمجهولين الذين لايُعرف لهم أهل..

تملَّكنى العجب من "شاكر"!! كيف واتته الجرأة على الاقتراب من جثامين القتلى وتحمّل مناظرهم البشعة المُفزِعة ؟؟؟ وهو يقص دون اكتراث كيف كان جلد الغريق ينسلخ بين يديه التى تدلكانه حين تغسيله!!!؟؟؟؟

لعلنى أضعف وأقل جرأة من "شاكر" أو "شكُّور" شبه الأبله البدين كما كان يحلو للمأفونين من الصبية أن ينادوه نكاية فيه واستهزاءً به، كيف تحدَّى الخوف ذلك المارد القابع فى أعماقى واستطال بعنقه الثخين عن الجبن والجبناء؟؟؟

لايزال كل حدث يواصل تحديه ويشرع لى لسان المغايظة والتبجُّح.

سألنى شاكر ذات مرّة :

- هوه الحفلة هتتنصب أمتى والسيما اللى هتيجى الطريحة؟؟

- فرح أيه وسيما أيه؟؟

- كنت ماشى زهقان من الحر فى الدار لقيت (زاهر) (وإسلام) بيعلقوا يفط الإعلانات وكمان بيكتبوا بالجير علي الحيطان ولما سألتهم بتعملوا أيه قالولى علشان السيما وهما بيضحكوا ويبصوا لبعض بس قالوا لى ما تقولش للخفراء اللى نايمين عند الدوار وتحت المحطة.

استأت لاستهانة شباب جامعى متدين بسلامة طوية شاكر وتندّرهم عليه.

فطنت كما فطن غيرى بعدها لشىء لم أُعره انتباهًا قبلها عن سرّ اليوم الذى أصبح على كل جدار فى قريتنا مُلصق أو مكتوب (الإخوان المسلمون على قائمة حزب العمل) كان الأمر وقتها برمته لا يعنى لى شيئًا ولم يتعدّ حدود أوانه لكن بدا أنَّه تمهيد لمرحلة عمرية جديدة يبدو أنّى مقبل عليها!!

مغرمُ أنا والشيخ "إسماعيل" بقراءة الشعر رغم صعوبة الحصول على دواوينه، حثَّنى على استعارة الشوقيّات من قريبى الأستاذ "فتحىّ " قائلاً :

– أليس فى مقام عمّك وجدّتك أخت لجدته، كما أنَه يحبّك منذ صغرك.ماذا عليك لو استعرت لنا منه "الشوقيات " ننهل منها سويًّا؟؟

استجبت لإلحاحه ورغبتى أنْ أتوغَّل فى أبيات "شوقى بيك" أمير الشعراء. تُرى مَن أمَّرَهُ؟؟

– لو سمحت ياعمّ فتحى ممكن تعيرنى الشوقيات؟

بينما " فتحى" ممددٌ فى سريره المواجه لمكتبته لا يقوى على الحِراك، بعد جراحة باسور خضع لها منذ أيَام :

– سأمنحك الشوقيّات على شرط أنْ تحافظ على نظافة الكتاب وتردَّه بحالته فى غضون اسبوعين.

ود مشوب بحزم مَنْ يُقدِّر الكتاب وقيمة الاطلاع.

– أفعل يا أستاذ لا تقلق سأحرِص عليه كما تودّ وترجو.

– إذن مدّ يدك وخذه من المكتبة سامحنى لا أقوى على القيام.

– لا عليك أعرف مكانه جيدًا شكرًا لك.

لفت نظرى دوسيه به حزمة من أوراق مصوّرة مكتوب عليه (من قتل السادات)؟

– ماهذا يا عم "فتحى"؟؟

– ده كتاب ممنوع من النشر كتبه أحد أصدقاء "الإسلامبولى" وبلدياته عن ملابسات واقعة قتل الطاغية من وجهة نظر القاتلين

تفاصيل تدبيراتهم ودوافعهم ومبرراتهم بدءًا من فكر "محمد عبدالسلام فرج" مؤلف "الفريضة الغائبة " يعنى الجهاد مرورًا بما حدث مع أبطال الواقعة ولهم اتفاقًا..

- ممكن تعيره لى أيضًا؟؟

- لا يمكن. لو رآه معك أحد تكون مصيبة..لكن يمكنك أن تزورنى ؛ لتقرأه عندى وتسلينى فى فترة مرضى والتزامى المكث بالمنزل.

إصرار دفعنى للموافقة فأزور "فتحى" بعد العصر وأنهل من خضمّ هذا المؤلَف الذى يلج بى فى كواليس عالم غامض خفىّ غيّر أحداثًا ووقائع فى مصرواستباح دم رئيسها. تتيح لى رفقة "فتحى" جوًا رائعًا هادئًا يناسب الاستغراق فى القراءة فهو لايقطع صفو متابعتى فيشغل نفسه حينًا بالمطالعة أو يُجيب عن استفساراتى حين يستعصى علىّ فهم شىء خصوصًا فى ملابسات هذا الفكر العقيم. وفى المساء ألتقى أنا و"الحواش" نقرأ فى شعر "شوقى" يقرأ علىَّ حينًا وأقرأ عليه فيصوِّب لى ما ألحن فيه من كلمات!

* * *

"إسلام" الواعد النابه الذى يجيد الإنجليزية بطلاقة فهو طالب فى كلية الآداب الفرقة الثالثة قسم لغة انجليزية، ويرتِّل القرآن بصوت رخيم كصوت "العجمى" وأئمة الحرمين، رَبعة الطول مع ميل للقصر فهو مدملج الجسد واسع الصدر مفتول العضلات بُنىّ الشعر كثيفه يُمشِّطه للخلف ويعنى بطوله، عسلىّ العينين فسيحهما،عظيم الأنف والشفتين ورغم كونه من نسل فلاح أمىّ لا يقرأ إلاّ أنَّه شديد الاعتداد بالنفس كأنَّه قائد مغوار أو الرجل الثانى الذى يبدو وجود الرجل الأول معه لا شىء. فشخصيته الفذَّة تمحو كل منْ صاحَبه وإنْ سبقه فى السن أو المرتبة، فى حلقة القرآن اليومية التى غدت إدمانًا لدىّ وكأنَّى أُغذّى روحى بمدد خفىّ وأمُدّها بزاد يجعلنى أشعر أنَّ فى بلدتنا آخرين ينتحون منحىً مغايرًا لمسالك النزق والخلاعة التى عكف عليها معظم فتيان القرية، كثيرًا ما كان يتقرَّب إلىّ هو وفريقه أحدس أنَّ مسلكهم الخلقى السامى الذى كنت أعجب به وله وراءه أغراضٌ أخرى استشففتها من التاريخ السابق لعصبة المسجد وعلاقتهم بالإخوان كما

قصَّ علىّ أبى فى السابق، غدوت كالفريسة التى تدرك جيدًا موضع الفخّ لكنّها لا تحاذر بل ربما راق لها الوقوع فيه..

ليلة شتوية باردة من ليالى طوبة اقتنصت منها ساعة بين المغرب والعشاء أحظى فيها بجلسة القرآن المباركة بين ذلك الشباب النابه. لم تمنعنى برودة الأجواء من الخروج فقد كانت جدران البيوت السميكة المتقاربة فى انجذاب حميمى كأنها توشك أن تتعانق تشكل حاجزًا لا بأس به عن البرودة والصقيع وخلوّ الشارع تقريبًا من المارّة وظلمته إلا منْ أضواء صفراء خافتة مُبعثرة تحت بعض مصابيح الإنارة المدلاة من الأعمدة يمنح المساء رغم برودته جوًّا أسطوريًا نقيًا أحرى به أنْ يوقظ الأفهام المغلقة ويمنح النشاط والطاقة للعقل المُضنى من طول الاستذكار والتفكُّر، انتهينا من جلسة القرآن وصلاة العشاء ورافقنى طريقى" إسلام " الذى بدأ يتودَّد إلىّ والذى بدا أنَّه يودّ أنْ يقول شيئًا يخفيه خلف حدقتى عينيه حادتى الذكاء والطموح. ليل الشتاء فى القرى مُعتم كئيب يبدو شديد الظُلمة وإن كان قمره بدرًا تراه دومًا يتوارى خلف تلال من السحب الرمادية القاتمة، فى الطريق القصير بين المسجد والمنازل القليلة المتجاورة المتكدِّسة التى تكاد تركب بعضها بعضًا التصاقا وضيقًا وتنافرًا هفّت علينا نسمات باردة من جهة نهير قريتنا الذى لا بد أن نسير هنيهة بمحاذاة ضفته فى الطريق الإجبارى لمنازلنا الفتى الجامعىّ وطالب الثانوية المنطوى تطرّقنا لأمور شتَّى:

– الطقس اليوم شديد البرودة الكل قابع فى داره.

– أشعر بارتياح غريب حين اجد الطريق خاليًا من المارّة وكأنى أملك القرية والدور الطرقات والحياة.

– منطقك غريب لكن منْ يقدر أن يعيش بدون بشر؟ أحيانًا الحياة لا يبدو جمالها إلاّ حين نحياها لهدف وخصوصًا تقديم الخير لغيرنا؟ فكّر أنْ تُحدِّد لك هدفًا تتخلص به من أنانيتك وتعيش به للآخرين.

ضاحكًا فى ما يشبه القهقه ببلاهة أوعزت "لإسلام" أنّنى لم أتخلّص من نزعتى الطفلية بعد :

– همّى مُنصَبّ على المذاكرة بجد وتقليص الفرق بينى وبين زميلى "حسين" الذى أخذ مكانى وحلَّ محلّى فى الترتيب أن أعود أوَّل مدرستى كما كنت، لكن هذا لا يمنعنى من مداومة القراءة والاطلاع خاصة فى فصول الصيف وزيارتى لمكتبة بيت الثقافة فى المركز.

– عظيم دأبك ومثابرتك فى طلب العلم وحرصك على التميُّز يُسعِدنا فنحن نحب أن يكون أصحابنا فى الصفوف الأولى وفى مركز الريادة دائمًا.

– ألاحظ دائمًا حديثك عن نفسك بصيغة الجمع!! أنتم مين؟؟ أنا أستشعر أنَّ رابطًا ما يجمعكم وأنَّ بينكم شىء غير علنىّ يضمكم ويوحدكم يعنى:

أنت مثلاً يا أستاذ "إسلام" آداب انجليزى والشيخ "عبد الهادى" مدرس لغة عربية و"مهدى" كلية حقوق و"النجار" زراعة و"زاهر"

كلية تربية بس حاسس إنْ فيه شيء أكبر بيجمعكم بيتهيأ لى أنى قادر على تخمينه.

- ذكاؤك نادر دايما سابق لسانك أنا راهنت عليك وكنت واثق أنى سأكسب الرهان أنت قصّرت عليا الطريق الطويل.

ضاحكًا قد برقت عيناى فبدت لثتى العليا التى تنكشف حين ترتفع الشفة أوان الضحك فقد كنت أحب هذا النوع من الإطراء يبدو أنى وجدت ذاتى فى النهاية بعد طول ضياع وأنَّ اعتكافى الإجبارىّ عن لغط الأقران بين الكتب بدأ يؤتى ثماره إشادة وإعجابًا - غدوتَ تفوقُ مَنْ يكبرونك سنًا وثقافة ودراسة - :

- أعرفكم جيدًا فأنتم "الإخوان المسلمون".

صمت "إسلام" بُرهة لم يبدُ فيها أنَّه انزعج من صراحتى النزقة التى لم تخلُ من صبيانية واندفاع بهدوء اتسعت خلاله عيناه الفسيحتان أصلاً فى الضوء الخافت الذى انبسط على أديم دروب القرية المظلم الكئيب المسلط من عمود النور المواجه لداره على الجانب الآخر من الطريق بينما نصف وجهه الآخر قد اكتسى ظلمة علامة على انعكاس الضوء من جانب واحد:

- أيوه والأستاذ "عبدالهادى" أميرنا لكننا أصغر وحدة فى كيان الجماعة العظيمة فنحن نتبع شعبة "شبراقمولا" تتفرع منها شعبتنا الصغيرة وغيرها و"شبرا قمولا" تتبع شعبة المركز ثم المحافظة ثم العاصمة ومكتب الإرشاد.

– يااااااااه – مجيبًا إياه كمن فاجأه هذا التنظيم والترتيب الأشبه بنظام خلية النحل – كنت أظن الأمور أبسط من ذلك يعنى الكبار فى القاهرة يعرفونكم وتعرفونهم وبينكم صلة واتصالات؟

يضحك "إسلام" كمن وجد سانحة ؛ ليبدو فيها ذو علم وخبايا يستأثر بها ويتعالى على من ظنَّه فى بادىء الأمر لقمةً سائغة وبمكرٍ ودهاء أجاب:

– بالتدريج تعرف كل شىء لا تستعجل الأحداث.

فى محاولة أخرى منى لاستعراض العضلات وأننى لست القروى الساذج المنطوى:

– ولكن لماذا قتل "الإخوان" "النقراشى"؟؟؟

لم يكن مقصدى استبيان الأمر برُمّته فلم يكن يعنينى ولم يكن اسم النقراشى يعنى لى شيئًا سوى اسم اقتحم بعض قراءاتى فلم أُعره اهتمامًا ربما كان اسمًا سخيفًا لرجلٍ كان مُستحِقًّا للقتل من وجهة نظرهم فقط. كنت سعيدًا فى قرارة نفسى بخوض التجربة ربما جاء اليوم الذى تتضح فيه معالم شخصيتى وأكتشف ذاتى، ربما ادخرنى الله بعد طيلة هذا الوقت من القبوع والسكون ربما الاستسلام ؛لأُبعث إنسانًا جديدًا بين مجموعة ممتازة من الشباب المثقف المتحمّس الواعد، وانبريت أُمَنّى نفسى بالأمانى لا يكاد يصل لأذنى كثيرًا مما كان يدَّعيَه "إسلام" من أنَّ الإخوان جماعة سلمية،وأنَّهم ليسوا قَتلة "النقراشى".

فقط سعيد بهذه القفزة من الزمن التى جعلتنى منتشيًا وقد تحررت فىَّ نزعات جديدة وجرت فى عروقى دماء أخرى صادقة.

- إذن فمن قتله؟؟؟ سؤال لم أطرحه ولم أبحث له عن إجابة.

أمَّا "إسلام" فيبدو أنَّه استغرق مع نفسه فى أحاديث شتّى أبرزها أنَّه ربما رازى إخوانة بهذا المُلسِن المُتفلسف :

- ما لهذا الفتى وهذه التفاصيل الدقيقة ؟؟!! أنَّى له بها؟

يبدو أنَّه لن يكون التربة الجرداء التى أستطيع أنْ أغرِس فيها ما شئت من أفكار وقيم، إنَّه يقرأ فى معارف شتى ولأشخاص عديدة وهذا ليس من تعاليم الجماعة، فهل يسهل قياده كما تبدى قسماته!!؟؟ ستفصح الأيام القادمة عن هذا الجديد المجهول الذى لا يبدو أنَّه صيد ثمين ولن يرحب به أميرنا الأستاذ "عبد الهادى" الذى يبدو أمام الجميع واهنًا وقورًا عذبًا وبيننا رأسه أصلب منْ حجر الصوَّان!

يبدو أنَّه اكتشف حقيقة صادمة تخصّنى لم ينمّ عنها مظهرى المتواضع الهادىء، جعلت الأفكار تتضارب فى رأسه قبيل أنْ نفترق على موعدٍ آخر بلقاء....

كان الانخراط بين صفوف الجماعة القروية الهزيلة التى لم يتعد عدد أفرادها أصابع اليدين أشبه بالالتحاق بركب قطار بطىء يكاد يتوقف من شدَّة الوهن والترنُّح. لكنَّه كان بمثابة تدعيم وضخّ دماء جديدة فى الجسد شبه الميت علّه يفيق ويُعزى هذا النشاط "لإسلام" الذى لم يكن

فى موضعه إطلاقًا وربما كان حقيق أنْ يحظى بمكانة أرقى تؤهله للتهادى بين الكبار وكان إسلام بمثابة القدوة والمثل الأعلى الذى تمنيت أن أكون مثله وأنْ أصِل لدرجة مماثلة لدرجته لا بين صفوف الجماعة بل فى مقدار ثقته المُطلقة بذاته وإمكانياته، ما جعلنى أحتذى به فضلاً عن دأبى الدائم القراءة وحرصى على الاطّلاع خاصّة فى كل ما يتعلق بالجماعة وشخصياتها ورموزها حتى غدوت مُلِمًا بكثير من الحوادث والأحداث التاريخية.

لم يصادف هذا النَهم ارتياحًا عند "إسلام" الذى كنت أعتبره أميرى الفعلىّ وصارحنى دون مواربة ما أزعجنى كثيرًا :

- "محمود" ينبغى ألا تقرأ إلاّ ما نرشحه لك. دعنا نبنى فكرك ونؤسسه لك بالتدريج الذى نحب أن تكون عليه. ثق فى أننا نعمل لمصلحتك وأنَّ لنا خطةً ومنهجًا فى التربية والتأسيس ينبغى ألاّ تحيد عنه فضلاً عن مبدأ السمع والطاعة الذى ينبغى أن تلتزم به..أفسدت القراءة وعشق الرسم أخًا من خيرة شباب الجماعة ربما منْ تبقى لنا بعد سفرالأخ سمير...

فتحى قريبك اللى كان خيرة أمراء البلد شوفه دلوقتى حتى صلاة الجمعة والجماعة ما بيحضرهاش يا فى عمله يا إمَّا بيقرا أو بيرسم.

- ماتنساش إنه تحمَّل صدمة كبيرة لّما رجع من العراق لقى "ياسر" أخوه الصغير ميّت بالفشل الكلوى وحصَّله والدته ووالده وياريتها

كانت بفايده رجع أبيض زى ما سافر بعد ماراح عليه شقى سنين العُمر.

– كان خطأه من البداية أنه لم يُطع تعليمات الكبار وأصرَّ على السفر ولو استنى مش بعيد كان بقى نائب أمير المنطقة قبل الأخ جبير اللى كان معاه خطوة بخطوة وماشاء الله منصب محترم فى شركات مصانع " الشهيد" للبلاستيك!! أمرٌ آخر ينبغى أنْ أشدِّد عليك فيه :

– اقطع كل صلة لك "بفتحى" لا تستقِ منه أفكاره التحررية ولا تتعدَ صلتك به صلة رحم قريب من العائلة وكفى.....

ماهذا الوجه الذى بدا فجأة أين كان يخفيه؟؟ مالى أنا وعقولكم الباهتة وإنْ كنت أعجب لها وأقتديها؟ أىّ منطق يمنعنى من التهام ما تقع عليه عيناى من علوم وثقافة، ألست بقادر على استيضاح الغثّ من السمين وما الضير فى أنْ أقرأ عن "البنّا" وله وعن "سيد قطب" وله ولو تعلَّلوا بعدم تفهُّمى الكامل لكل ما أقرأ أو عدم قُدرتى على تفسيرِهِ بصورةٍ واضحة.

غدًا يتضح الغامض ويستبين الخفىّ!!!

يبدوا أنَّهم ودّوا لو أستقى تعاليم جماعتهم منهم لا منْ رسائل "البنا" نبىّ هذه الجماعة ولا معالم "سيد قطب" أفكاره وشططه، اطّلعت على خبايا وأسرار كثير من رعيلهم الأول تلاشت الصورة المثالية بالتدريج لم يكونوا ملائكة تمشى على الأرض كانوا بشرًا خطَّائين تتنازعهم الأطماع والأحقاد هكذا أقرّ "صلاح شادى" فى مذكراته

(حصاد العمر) التى قرأتها فى مكتبة "فتحى"، ارتعت على الشهداء والمُعذَّبين قتلهم بدم بارد والتلذذ بخسفهم وسومهم سوء العذاب أى نوع من البشر كان الجلادون وأى نوع من القديسين كان المعذبون الذين تحمَّلوا فوق العذابات البشرية واستقبلوا الموت كما استقبل الأولياء آجالهم ومصائرهم!؟ شعُرت أننى كنت أجتاز "البوابة السوداء" مع "أحمد رائف" أنتظر معه ساعة الخلاص،أتهافت عليها كما يتهافت الصائم إلى شربة ماء أوان مغيب الشمس وأصبحت أنتظر (لواء الإسلام)و(الاعتصام)صبيحة كل اثنين لدى باعة الصحف.

لم أمقُت إنسانًا بعدها مثل مقتى "لعبدالناصر"، فى سباتى تنتابنى كوابيس تجعلنى مُطَاردًا من عسكر النظام،أو مشلوحًا كذبيحة بين يدىّ جلاد، أو تمزِّق لحمى كلاب شرسة لا ترحم من فصيلة الحيوان سلطتها على جسدى كلاب آدمية احتقنت قلوبها بالجاهلية والقسوة – ربّاه ماهذا الهوان – فى سبيل أى شىء كان كل هذا وماذا تحقَّق بعده من انتصارات وإخفاقات أو مجد للإسلام؟ الجماجم والرفات المدفونة فى عمق استاد القاهرة الذى كان "السجن الحربىّ"

فى أى شىءٍ اندثرت أمِنْ أجل مجد الإسلام أم من أجل مجد الساسة العظام؟ ربما توهّم البعض أنَّه يضحى بروحه فى سبيل عقيدة توهَّم أنَّ دمه سيكون لها الفداء!! ولكن فداء لما وممّن؟؟؟ توافدت التساؤلات على رأسى كلما استغرقت فى بحر الاطلاع وسبر غور جماعة انتميت إليها علّى لا أكون من الضالّين.....

هل كانوا بشراُ أم ملائكة؟؟؟ يدفع عنها الله الشعور بالألم والعذاب!!

تبًا لى مالى أشعر بالضآلة والخَور كما لو كنت سأُقرّ بكل ما أعرف من أول صفعة. أكُنت أتحلّى بصمودهم، وأُجابِه الجَلْد وتكسير العظام وتقليع الأظفار بقلب راسخ وعزيمة لا تلين، لالا أبدًا فأنا لا أُحب الألم ليست بى قدرة على تحمُّله ولا تحتمل كرامتى الإهانة، ربما يكون الاعتقال بلا إهانة ولا ألم هو الأنسب بالنسبة لى فهو على حد علمى قد يكون وسيلة للخلوة مع الكتب ربما فرصة للتحصيل وحفظ القرآن.

لم تزلْ فى حلقى غُصّة من تلميح "زاهر" السخيف بأنَّ الأحرى أنْ أسترجِع ما نسيتُه من القرآن خيرٌ لى من الانكباب على كتب وعلوم لا تنفع، ربما أوغر صدرى بمهارته فى حفظ القرآن وتلاوته لم يعد له سوى بضع أجزاء ويتمّه كله. لعله أراد لى الخير ولكنَّ طريقته فى النصح أثارت حفيظتى رغم وجهه الذى يفيض رقَّة وطيبةَ واستِكانة كان مثال الإخوانىّ الصِرف الذى لا يصدر عن رأى ولا ينبس بقول أو يخطو خطوة إلا بمباركة إخوانه ومن يسبقونه فى مراتب الجماعة، "زاهر" رأسه خاوية بينما أكدِّس فى رأسى علومًا وثقافات ربما لن تفيدنى بشىء ولا ترضى الله؟؟

حياة فيها تشويق كأننا فى رواية بوليسية لكنها كانت واقعًا أثار فزعى حين علمتُ أنَّ جحافل من عربات الأمن المركزى داهمت حجرة "النجار" فجرًا، واقتحمت منزله وقامت بتوقيفه أوان انتخابات اتحاد

طلاب كلية الزراعة. لكنهم سرعان ما أطلقوا سراحه، كان علينا أن نوطِّن أنفسنا على الزهد والقناعة فنصوم يومًا صيفيًا قائظًا ونُفطر جميعًا معًا....

فى حفل إفطار جماعىّ تجمّعنا فى منزل "النجار" طالب الزراعة الذى استقل بحجرة فى دار لهم مُنعزِلة مهجورة، والتى استغل باقيها فى تربية الدواجن وتجاور دارهم الأصلية التى يقيم فيها والده وأخواته على الناحية الأخرى من النهر. ما كان يستدعى عبورنا الكوبرى الخشبى شبه متسللين حتى لا يشعر الأمن باجتماعنا ؛ فيترصَّدنا.

كان الجوّ صيفيًا كئيبًا من أيام الصيف طويلة النهار ما يُعلِّمنا الزهد والاخشوشان فإنَّ النعمة لا تدوم كما هتف فينا الأستاذ "عبد الهادى" قُبيل صلاة المغرب، وقفنا فى صفين متزاحمين على حصير جافّ نظيف. صوت "إسلام" يقيم الصلاة ثم يتنازل الشيخ "عبد الهادى" مختارًا رغم كونه أكبر الموجودين سنًّا ومقامًا فهو الأمير والموظف الأثير فينا فقد كان "عبد الهادى" مثالا للأمير الجامعىّ الذى له تاريخ فى صفوف الجماعة ومن رعيل الشيخ "صالح عبدالكريم" الأول، ومن جيل الشباب الذى أشعل جذوة الجماعة الخامدة من جديد وكفى بها من فضائل، قدّم الأمير أخانا "النجّار" صاحب الدار قائلاً :

- لا يُؤمّ الرجل فى بيته، فصلى بنا صلاة خفيفة ثم تحلَّقنا جميعًا حول الإفطار الذى صُفَّ فى منتصف الحجرة تقريبًا على ورق الجرائد تناوب على إحضاره "النجَّار" و"خطَّاب" "وزاهر"، وتصادف وجود

"خطّاب" خريج التجارة الذى يعمل فى مطعم بالعاصمة بيننا. جلسنا جميعا فى دائرة كبيرة فسيحة تكاد تلامس ظهورنا جدران الحجرة من فرط اتساع الدائرة، كان الإفطار عبارة عن فول وجبن بالطماطم وباذنجان مقلى وبطاطس مقلية ومهروسة وجبة نباتية من الطراز الأول لا تحيد أنملة عن رأى "عبد الهادى" :

- اخشوشنوا فإنَّ النعمة لا تدوم.

والذى أعلنه بصوت جاد ردًّا على دُعابة "خطَاب" :

- إيه ده يا إخوان عزومة دى ولاّ تهذيب وإصلاح....

ما أعاده لصوابه فأكمل مسترسلاً :

- عندك حق ياشيخ هوه سيدنا النبى والا الصحابة كانوا بياكلوا المحمَّر والا المشمَّر اللى بنلُغ فيه كل يوم!!!

فى وقار المهذِب المتعلم وكان "عبد الهادى" قد أومأ "لمهدى" المحامى الهادىء إيماءة فهم منها أن يُدلى بدلوه فى الحديث حتى لا ينقلب لفُكاهة وهزْل خالصين فيضيع مغزى هذا الاجتماع الهامّ:

- نقدر يا إخوانى نجيب أطايب الطعام لكن زى ما نوّه أخونا "خطّاب" أن المغزى أنْ نوطِّن أنفسنا على الزهد والترفُّع عن متع الدنيا.

ثم استرسل وهو يلوك لقمة فى فيه قد غمسها فى طبق الفول الكبير:

– ليذكر كل منَّا حديثًا شريفًا وهو يأكل حتى يغدو كل عملٍ لنا مثوبة وأجر.

تطرَّق الحضور إلى أحاديث نبوية شتَّى، لكن يبدو أنَّ اللعبة كانت فى مهارة من ينتقى أقصر حديث حتى لا يشغله ذلك عن التهام الطعام ربَّما كان لهوًا مُعتادًا اكتسبه "إسلام" بحكم قدمه فى الجماعة حين جاء دوره فقال :

– قال رسول الله ﷺ:(لا تغضب).

ثم دسّ فى فيه قطعة خبزٍ كبيرة اشتملت على بعض من الباذنجان المشوى والمهروس وهو يميل للمزاح وإخراج الجلسة من نزعة جدّيّة ظاهرة لبعض الترفيه واللطافة بما فعل ؛ فضحك معظم الجالسين بينما اكتفى "عبد الهادى" بابتسامة لم تظهر فى عينيه ولم تنطبع فى وجهه إلا لحظة خاطفة..

احتفالية راقت لى تلا فيها "النجار" القرآن بصوت يشبه (الشيخ الحُصرىّ) وألقى "إسلام" خطبة رنّانه عن واجبات الفرد المسلم حيال الدعوة.بدأها بالصلاة والتسليم على رسول الله، وأسهب بعدها فى الإشادة بشهداء الدعوة من الرعيل الأول قائلاً :

– اقرءوا عنهم يا إخوان فهم المناضلون بحقّ الذين ضحّوا بحياتهم فى سبيل إعلاء كلمة الحق. هم ورثة المصطفى الكريم وأصحاب الإمام الشهيد الذى أرسى قواعد الدعوة الإخوانية التى

بذلت الدم عن طيب نفس ؛ رغبة فى صلاح الأمّة. اذكروا تعليمات الإمام حين قال : (أقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقوم على أرضكم) لسنا طلاب دنيا نحن نطمح لإعادة الخلافة الإسلامية الراشدة، وتطبيق شرع الله ولو كنّا خدمًا أو خفراء على أبواب من يحكمون. مهمتنا التغيير من القاعدة، بناء الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة اللبنة الأولى فى المجتمع المسلم. نريد مجتمعًا فيه الطبيب المسلم والمهندس المسلم والمعلم المسلم والموظف والصانع والزارع أن يغدو منّا مندوبًا فى كل محفل ومجال وصنعة ووظيفة أنْ يغدو كل فرد فينا قرآنًا يمشى على الأرض ؛ يهتدى الناس بقوله وأفعاله التى تنطق بمنهاجه،نريد أنْ تسيطر دعوتنا على القلوب مع العقول أن نسمع لها ولأميرنا ونطيع كلنا تروس فى ماكينة واحدة تدور لتُحقِّق المطلب العظيم لا يشذّ عنّا شاذّ، ولا يخرج عنّا خارج.

هدفنا الإصلاح من القاعدة، التغيير من قاعدة الهرم لا من قمّته ، لايهم أنْ نجنى نحن ثمار غرسنا. المهم أن نبذل الجهد والنتائج يحقِّقها الله وقتما يشاء على يد من يختار قد لا نكون الجيل الذى يقطف ثمرات الجهاد، لكن حتما سيكون هناك جيل يؤتى جهادنا ثماره بين يديه وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال..

وأتمَّها "مهدى" بالدعاء الطويل البالغ الخشوع،واختتمنا الليلة بصلاة العشاء التى أخرناها عن موعدها برأى شرعى حسَّن إرجاءها لنهاية الجلسة!!!

بدت قواعد اللعبة تفصِح عن نفسها فما كان "عبدالهادى" سوى أمير هشّ رغم أنَّه صلدٌ الطبع عنيد الرأى، وكان "مهدى" نائبه الخفىّ وعقل الجماعة الصامت الذى لا يتكلم كثيرًا. بينما "إسلام" اليد النشيطة وإعلامىّ المجموعة وواجهتها المثيرة. و"النجار" قرينه ورفيق دربه يليهم "زاهر" "وخطَّاب "الذى كان عضوًا غير بارز ربما على الهامش يضفى جوًا من الفكاهة بحسِّه الخاصّ وظرفه عندما يتصادف وجوده الشحيح فهو يعمل على عربة كبده فى "روض الفرج "وباقى الحضور بما فيهم أنا الذى كان يدفعنى طموح أنْ يغدو لى بينهم شأنٌ ورفعة!!

كنت أستشعر أنَّهم كل شىء فى حياتى التى تغيَّرت من الفردية والانطواء للعمل الجماعىّ المُشترك الذى يهدِف ؛ لإسعاد الغير رغبة فى إسعاد النفس التى شغلتها هموم الناس، وأنَّهم لا شىء بالمقارنة بالأفذاذ منْ رعيل الجماعة الأوَّل الذين حفروا أسماءهم فى قلوب الجميع من أهل الصلاح والخير، لعلّى كنت أتحمّل ما تحمّلوه حين أُقْحم فى التجربة الصعبة أو أصبر للسجن والاعتقال الذى كنت أرى فيه عزلة إجبارية ؛ تُحقِّق لى الوحدة التى أنشدها وتصرخ فى أعماقى بأزيزها الموجِع الذى يستعذب الفردية وينتشى لها ويفرّ من الصخب والجموع، حين يغدو السجن وسيلة للخلوة مع الكتب وفرصة لإجادة حفظ كتاب الله ونيل الدرجات العلمية عن جدارة. تخيل نفسك تجتاز الثانوية بنجاح وتدرس الماجيستير والدكتوراه بعد الدراسة الجامعية خلف قضبان

الزنزانة التى تُلقى على حجرتك خطوطًا متوازية مستقيمة من جرَّاء تسلُّل ضوء القمر البدرىّ خلالها رغم أنف الحرسْ. لك أنْ تعتنق فى رأسك ماشئت من أفكار حين يُحَدُّ الجسد فى حدود المكان لكنَّه يظلّ مُنطلقًا يعدو فوق حدود الزمان والفِكَر..

وماذا عليك لو متّ؟ أفلا تنطلق روحك القابعة فى سجن الجسد انطلاقة رائعة نحو الخلود فى المتعة والراحة واللذة والجمال!! أوَليست النهاية هى مصير كلّ بنى آدم؟ فلمَ لا تكون نهاية مُشرِّفة فداء لفكرة أو عقيدة ترضى الله ورسوله؟؟ أليس الموت فلسفة الانتقال من مرحلة لمرحلة ومن دار لدار؟؟ فلمَ الأسى على الراحل وهو يحيا فى مكان آخر بكيفية أخرى؟ ولو بدا أمام ناظرينا جثمانًا مُسجَّى تحت أطباق الثرى، اجتاز مرحلة الرؤية والسماع لمرحلة الصمت والسكون. لعلة ينتظر عند الضَّفة الأخرى من نهر الحياة أحباءه حتى يأخذ بيدهم لمنازل النعيم أو يبكيهم وهم يصطرخون فى الجحيم حيث الأبدية والخلود، تبًا لهذا العالَم الفانى المتغطرس كبرًا وتعاليًا وتنابذًا ونفوذًا،ما أقصره أمام عالم يمنحك الخلود والأبدية! حين يتوقَّف البشر عن التنازع ويكفّ قابيل عن إراقة دم أخيه والتمتع بزوجته فى لحظات من تيه الضمير وقسوة القلب . أوما تغنى الحور العين عن جميع حسناوات الأرض الذين تتوق لهنّ نشوة وافتتانا ؟ لماذا أهاب الموت لقد غدا أسمى أمانىّ كما غدا عند الإمام "البنا" والجماعة فى سبيل الله أسمى أمانيهم.

نعم فى سبيل الله أو ربما فى سبيل تحرير الوطن "كفهمى عبد الجواد" (شخصية نجيب محفوظ فى بين القصرين) أو فى سبيل نشر الدعوة والتمكين لها فى قلوب ماتت فيها كل نزعة للصواب، حين أُقتل شهيدًا تحت أسوار القدس أو بين سنابك خيل المشركين فيكون ألم القتل هو آخر ما يُبتلى به جسدى من آلام وتحلِّق بعدها روحى فى عالم الملكوت أرفل فى النعيم، وألقى من أحببت من الصالحين قديمًا وحديثًا!! ولكن لم تعُد للقُدس أسوار غدت الأسوار بيننا وبين القدس وغزة وفلسطين كلها، كما لم يعُد هناك مشركون بمنطق عقلى القاصِر.

أنَّى لى بمشركين أُقاتلهم فأموت بل أنَّى لى بخيلٍ ذات سنابك وهل يرضى "عبد الهادى" وجماعته عن "فهمى عبد الجواد"وهل يبدو لهم "محفوظ" إلاّ فاسقًا عربيدًا؟ نعم أنا على رأيهم أخبرَنى "إسلام" أنَّه أساء الأدب فى "أولاد حارتنا" وربما كفر كما كفر غيره من الأدباء.....آه ياعقلى.. تشتت وتخبُّط ليس له حدود...

- استعن بالله وعوِّد نفسك على قيام الليل والاستيقاظ مُبكرًا لصلاة الصبح التى تسمونها الفجر!!!

- حاضر يا شيخ "إسلام".

- نريدك أنْ تواصل تفوقك واجتهادك فى الدراسة ؛فالأخ لابد أنْ يكون رائدًا فى مكانه يُشار إليه بالبنان حتى تكون قدوة ودعوة فى ذاتك وشخصك، نرغب أنْ نجذب لنا أنظار الناس بأفعالنا وتميّزنا..

أعود لأستمع مع أبى لسهرة "النهر الخالد" فى التليفزيون يستضيف فيها "سعدالدين وهبة" "عبد الوهاب" يحكى حياته وذكرياته القديمة يجذبنى الحوار وتستفزنى الموسيقى التى تسوقنى سوقًا للطرب والانتشاء ؛ أُغالب صراعًا داخليًا بين الفكر الوافد الجديد بحُرمة الموسيقى وما أشبه بل بحرمة مشاهدة التلفزيون تلك الآلة الماكرة لهو الحديث التى تسوق الشيطان إلى داخل الدور سوقًا وسرعان ما أنتزع غلالة الشيطان عنى فأثوب لرشدى وتعليمات "إسلام" التى هى تعليمات جماعتى الجديدة المُجْبر على السمع لها مع الطاعة ؛ فأتوضأ وأصلى وأستغفر المولى على ماأسلفت من ذنب، لكنى لم أقوَ على مداومة الاستيقاظ مبكرًا للصلاة فديدنى حُب السهر والاستيقاظ متى يحلو لى!!

شتان بين الصورة الملائكية التى يبدون عليها وبين مايقبع فى تلافيف أمخاخهم

الطيبة والرزانة روح الفكاهة الحلوة والبسمة التى تنتشر فى صفحة الوجوه فتنطلق من تلك العيون اللامعة حادة الذكاء!!

تُرى من سأجاهد وأقتل على يديه فأُمنى بالشهادة أو ما يجعلنى أتحمَّل الألم والعذاب من أجله؟؟ من أجل ماذا؟؟ أو من أجل من؟؟

"السعدىّ" ذلك الرجل الفقير الذى طالما عطف جدّى "إبراهيم" عليه فمنحه لقمةً أو كِساءً والذى كان يتكسب فى صباه كما ذكر لى جدّى من بيع الماء فى قطار مصر فى نهار الصيف القائظ مقابل لقمة أو

مليمين حتى توسّط له أولاد الحلال ؛ليعمل فراشاَ فى مدرسة القرية.كان عدو الجماعة الأبرز واتخذته الجماعة القروية البائسة رمزًا لعملاء الأمن وجواسيس الشرطة!!!

- احذره فهو جاسوس حقير.

- ياعم لأ "السعدى" ده غلبان وعمره ما أذى حد.

يضحك "إسلام" فى باطنه وكأنَّه يكتم قهقهته فيه فلا يبدو على وجهه الممتلىء وعينيه الخضراوين سوى ابتسامة مكبوتة.

- بكره تعرفه على حقيقته اللى بتقول عليه غلبان ده ياما ودَّى ناس فى داهية.

يسترسل فى نُصحه الذى استبدَّت فى لكنته إمارات الغضب المُغَلَّف بلهجة آمرة:

- المفروض تسمع وتطيع الجدال ليس من الخصال المحمودة عند أعضاء الجماعة يعنى لما أقولك أرمِ نفسك فى البحر تنفذ من غير مناقشة وبعدين من غير ما تسأل هتعرف إنْ ده كان فى مصلحتك...

يرفع حاجبيه البنيين الغليظين فتتسع عيناه المصبوغة حدقتهما بذات اللون تقريبًا، فى دهشة مفتعلة قائلاً :

- مش يمكن أسد مفترس كان هياكلك واحنا كنا شايفينه وراصدينه.

مُذعناً دون اقتناع أومأت برأسى لأعلى وأسفل وكأنى أذعن دون لسان لأمر لم يرُق لى!!

- الأخ "عبد الهادى" مش مبسوط بطريقتك دى ومش عاجبه اندفاعك وجدلك أنا قلت له مرحلة وهتعدى ادعى له بالهداية...

- لكن أنا مش شايف أنّى أخطات لما عاوز أسأل وأفهم وأناقش.

- الجماعة لا تحتاج عباقرة وفلاسفة ومفكرين، فقط نحتاج أتباعًا مميزين سمتهم الطاعة المطلقة يثقون فى عقول أمرائهم ولو ألقوا بهم فى السعير من وجهة نظرهم القاصرة هم ينظرون أبعد من نظرتنا السطحية الضحلة ويرون الخير من حيث لا نراه أو نشهده...

شىء ما بدأ يُستَنفر بداخلى لم أعد خاوى الوفاض من تاريخ الجماعة ومراحل تكوينها ونشأتها حتى مواطن الخلافات الكبرى بين زعمائها وأيام المحن كما يُسمّونها ؛ فاسترسلت مع "إسلام" الذى كان الأقرب إلى قلبى فقد كنت أعتبره أبى الروحى رغم اقتراب أعمارنا فأنا فى مراحل النهائية فى الثانوية وهو فى السنة قبل النهائية فى الجامعة. فضلا عن كونه أميرى وانبهارى بشخصه وأسلوبه فى الحياة، وإن كنت أعجب لإيمانه الراسخ بكل ما يقول ويفعل، وكأنَّه ولد ومعه يقينه الذى لا يتسرب إليه شك وأنا الذى ولدت مستأثرًا بالشك كله فضلاً عن ارتياب الوحدة وسوء الظنّ، وعدم الاطمئنان لبشر وكأنّى جئت من كوكب عاجىّ كل آمالى لو رُددت إليه وابتعدت عن الأرض بضجَّتها وصخب أهلها، أمَّا "إسلام" فقد كان الفتى الأوّل فى الجماعة

ولا ريب :عقل منظّم وحماس لا يفتُر وإيمان وثقة فى تعليمات جماعته ونظرة واعدة للمستقبل الباهر الذى ينتظره بين صفوفها.

لست أدرى لماذا لم أؤمن يقينًا بشأن موضوع الموت أسمى الأمانى عند "إسلام" بالذات ربما عند كثير منهم، كنت أرى أنّ ما ينتظر "إسلام" فى صفوف الإخوان ربَّما ما يُعِدّ هو نفسه له الحياة والمجد لا الموت والتعذيب والنهاية؟؟؟

- أوَ يكون مقتلى على يد ضابط أو عسكرى مصرى بعد قتالى له جهادًا وتكريمًا؟

أم أنَّ المفاهيم تغيَّرت فلم يعد ينطلى معنى الجهاد على معطيات الزمن الآنىّ ولماذا أكون مُضطرًا أنْ أكره الخفير النظامىّ الذى أكله الفقر، ألأنّه يُنفّذ أوامر العُمدة فى منع التجمهر، ومتابعة أحداث مابين المغرب والعشاء فى المسجد وتبليغه بأسماء الشباب المواظب على صلاة الفجر، والعسكرى الذى ينفّذ أوامر الضابط والضابط الذى يطيع المأمور وهلم جرّا أليسو أهلنا ومنّا؟؟!!

بل لماذا أسعد بقتل السادات وأباركه رغم اختلافى معه (لم أكن أقصد نفسى فقد كنت أحب هذا الشخص وحزنت لمقتله بل كان هذا فى معرِض التعريض بفكرهم)

فأستبيح دمه وأرقص عليه ألم يكن يصوم ويصلى؟؟؟

صدرى بدا موغرًا ضد أهلى وأبناء جلدتى الذين لم أكن أعبأ بهم ولهم، لماذا أُرسِّخ معنى الكراهية فى قلبى ضد من أعرف ومن لا أعرف

من البشر؟ صحيح أنَّ الميراث ثقيل وأنَّ الجماعة ظُلِمت كثيرًا واضطهِد كثيرٌ من أبنائها وأوذوا لكن كيف نكون إسلاميين كما ندّعى ونحن نُحمِّل أنفسنا ميراث الكراهية اللعين جيلاً بعد جيل وكأنّه إرثٌ بغيض وجب على كل من انتمى للجماعة أنْ يحمله على عاتقه؟؟

لماذا أنظر لإخوانى فى الجماعة على أنَّهم فئة فوق البشر وأُعزّز انتمائى وأخوَّتى فى الجماعة عن الأخوة الفعلية التى هى رابطة الدم والقربى، أيكون الكلّ فى طريق الضلال بينما أنا فى ساحة الحق وحدى مع جماعتى أسرتى الجديدة بل وطنى الجديد الذى ليس قبله ولا بعده وطن ولتذهب كل الموروثات والمقدَّسات إلى الجحيم؟أليست نزعة جاهلية مُنتِنة كما وصفتم من قبل؟

وماذا عن المتدينين الذين ليسوا معنا؟؟ ماذا عن جدّى الذى لا يكاد يفارق المسجد

ويهزأ بى ويشفق علىّ حين يضحك فيبدو فمه خاليًا من بعض أسنانه بينما اصطبغت الأسنان الباقيات باللون البنىّ الداكن من جرّاء الإفراط فى التدخين قائلاً :

- إنت جيت ياعم الشيخ.

ثم يشير إلىّ بأصبعه الذى يبدو طويلاً كأنَّه قولحة ذرة :

- همَّا شباب طيبين صحيح بس ما تتبعهمش فى كل حاجة خد بالك أبوك قلقان...

عبّر أبى أيَّامًا عن قلقه الهادىء بتفتيشه مكتبى ومقتنياتى دون أن يصارحنى بشىء، ربما رأونى شببت عن الطوق وخرجت من شرنقتى ووحدتى وكانوا يخشون أنَّ دربًا من الجنون سوف يمسّ عقلى، ليجدونى قد أقحمت نفسى فى تيه جديد.

أواصل مع "إسلام" جدلى أبثّه شيئًا من قلقى :

- أيكون الكُلّ ضالاً بينما نحنُ فقط المهتدون الذين يمتلكون الحق المطلق الذى لا مِراء فيه ومعه مفاتيح الجنة ومغاليق السعير؟؟؟؟؟؟

- ليس الأمر كما تظن نحن لم نكفِّر أحدًا نحن دعاة لا قضاة كما صرَّح بذلك المستشار "الهضيبى" وأظنّك قرأت له هذا الكتاب؟؟ تعرف سمَّاه كده ليه؟؟ ثم يواصل كلماته:

- عندما اشتدّ التعذيب بالإخوة فى سجون "ناصر" ودعا بعض إخواننا إلى تكفيره والانتقام منه بعد تمثيلية (المنشية) الشهيرة رفض "الإمام الهضيبى" ذلك رفضًا قاطعًا وأخرج لنا مؤلفه الرائع (دعاة لا قضاة) يعنى نتسامح ولا نكفِّر من ظلمنا فقط نمتلك الفهم الصحيح للدين....

فى شىء من الذهول محاولاً أن أقنع نفسى بمنطقه الذى لا يتسرَّب إليه شك بدوت مستفهمًا أكثر من مستريبًا تساءلت :

- وماذا عن جاهلية المجتمع وخصائص العهد المكّى ومفهوم الكفر الجديد الذى أعلنه القطبيون وعلى رأسهم الشهيد "سيد قطب"

ألم يُصرِّح فى كتابه (معالم فى الطريق) منهج الحاكمية وأنَّ عدم الحكم بما أنزل الله كفر صريح يجعل صاحبه والمؤيد لهذا المنهج من أهل الضلال لا حرمة لهم ولا كرامة؟ أنا أرى مثلكم ضرورة الحكم بكتاب الله وتطبيق شرعه لكنّى لا أبيح النظرة التكفيرية المتعالية لمخالفينا – أسترسل فى شرح رأيى فإذا بنبرة صوتى تعلو يبدو أنى لم أتخلّ بعد عن اندفاعى ونزقى الصبيانى أو أنَّنى حاولت لكنَّى لم أنجح بعد فإذا به ينبهنى وقد جحظت عيناه ثم تأبّط ذراعى متنحيًا بى إلى جانب هادىء أمام المسجد لا ينتبه لحديثنا إنسان –

– لم يولد الإسلام مع ميلاد الإمام الشهيد ولن يوأد باندثار جماعة دعوية مجدِّدة كدعوتنا لا قدَّر الله، وما يكون حال الناس قبل ميلاد الإمام وجماعته؟

– مشكلتك يا "محمود" إنَّك قريت أكتر من اللازم قبل أنْ تتمكن مبادىء الدعوة من قلبك ووجدانك علشان كده تكثر من الجدل وده مش كويس على مستقبلك فى الجماعة.

– الدعوة لا الدعوة والجماعة صارا روحى التى لا ينبغى أنْ تفارقنى يكفى أنّى وجدت ذاتى واستبصرت لى هدفًا فى الحياة مشكلة السرّية والمطاردة والأمن مجرد هواجس تقلقنى ماذا لو غدت دعوة علنية يباركها الحاكم وتؤيدها الحكومات؟

– نحن يا محمود لسنا طلاب سلطة منهجنا {أصلح نفسك وادع غيرك} وقاعدتنا ليست تغيير قمة الهرم فلا معنى لذلك ولن يجدى نفعًا

نحن نسعى لتغيير الهرم من القاعدة نحن بناة مهمتنا تكوين الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم الذى بدوره سوف ينتج الطبيب والمهندس والمدرس والموظف والعامل وضابط الشرطة والوزير والحاكم.

نحن طموحنا أكبر من أىّ تصوّر وسيتحقق بإذن الله عودة الخلافة الإسلامية الرشيدة وعودة الدولة الإسلامية التى تحكم بالكتاب والسنة وفى هذه الدولة لا يهمنا أن نكون وزراء او خفراء فليقم المجتمع المسلم وليس ضروريًا أنْ نكون على قمة الحكم فيه.

يسترسل فيجشّ صوته كأنما غدا صوته انعكاس لجيَشان وجدانه بما يؤمن به من أفكار :

- أو ما ترانا لا نندثر رغم توالى المحن والنكبات أين "فاروق" "وناصر" "والسادات"؟ فنوا جميعا وأكل التراب لحومهم وبقيت الجماعة التى ظنُّوا أنَّها انتهت بحلّها وقمعها، ما فطنوا أنّ الدعوة فكرة وليست أشخاصًا يموتون ويفنون، أفكار الإمام الشهيد هى النبراس والمنهج الذى لم ولن يندثر أو يزول.

ما أشدَّ إيمانك بمنهجك وثباتك على مبادئك ويقينك فى كل ما تقول وتفعل آه لو أنَّ لى شخصيتك الفذَّة القائدة أنا لا احب الأمير "عبد الهادى" رغم ما يبديه من سماحة وصلاح ولا ما يتسربل فيه من رداء الورع والتقوى، حتى صوته الخفيض الذى يسرسع به وهو يؤمنا

فى الصلاة وكأنَّه فى حالة عِراك دائم مع نفسه لا سلام يعمد إلى إظهاره.....

صحيح أنَّ فى دعواهم روحاً جديدة نوع من المحبَّة يسرى فى عروقهم، الاستغراق فى العبادة والتبتل والخشوع، إدّعاء مراقبة الله فى السرّ والعلن ، دولة الإسلام فى النفوس ثم على الأرض (أقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقوم على أرضكم) كما قال "البنا" : الإسلام دين ودولة مصحف وسيف عقيدة وشريعة، هم يدعون إلى العمل والعبادة فالمسلم القابع فى المسجد ينتظر من يسعى عليه لا وزن له عندهم.

هم يقولون الشىء ويفعلون نقيضه متناقضات منذ نشأة الجماعة تستأصل كل دعاوى المثالية من جذورها بل تقضّ الكيان الذى يبدو صلدًا برجاله ومبادئه هشًّا مهلهلاً من دواخله المريضة، كلما قرأت فى تاريخهم استشعرت ضيقًا وحرجًا. لهم وحدهم منطق يخالف منطق الجميع يناقضه ربما يكذِبه، وكأنَّهم وحدهم الصادقون والتاريخ وشخوصه الماضين والمعاصرين كذبة!!

- نحن نحب الوطن وننتمى له لكن العَلَمَ وثن لا ينبغى تحيته والنشيد الوطنى باطل ممجوج. يا أخى ردِّد أناشيد إخوانك الحماسية اللى كتبوها بدمهم فى السجون :

للهِ الله يا دعوة الخالدين لقد أوشك البغى أن يهمدا

نثرنا دمانا الذكية نــورًا تنير الظـــلام وتجلو الردى

والاّ نشيد مسلمون والاّ :

أخى أنت حر وراء السدود أخى أنت حر بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصـــــما فماذا يضيرك كـــــيد العبيد

حسسنا بانتمائك وإسلامك اللّى أغلى من حياتك.

- أنا جلدى بيقشعر لما كنت باسمع "بلادى" دلوقتى بيقشعر برده بس باحسّ بالخجل من نفسى.

- مش أحسن لو تحس بالتأثُّر وانتا بتسمع القرآن، الإسلام لا يعرف حدودًا ولا وطنًا فكل شبر فيه مسلم فهو وطنى أشعر نحوه بالانتماء بل الدين هو الوطن الذى لا يعدله سواه !

سألنى "زاهر" يومًا سؤالاً خبيثًا :

- لو عشت بالخارج برّه مصر وكان من المفترض إنك تقيم مع واحد من اتنين مسلم أندونيسى مثلاً أو مسيحى مصرى تفضل تعيش مع مين؟؟؟؟؟؟؟؟؟

- ضحكت مندهشًا وقلت له :

- المصرى طبعًا شربنا نفس الماء وتنفسنا نفس الهواء ونبتنا من أرض واحدة أكلنا من زرعها ومشينا علي ترابها وسندفن فيها نتكلم نفس اللهجة ولنا نفس العادات مشاكلنا واحدة واهتماماتنا مشتركة.

أجابنى "زاهر" وقد اكتسى وجهه جدّية مفتعلة :

– المسلم أيًّا كانت جنسيته أقرب إليك من أى فرد مادام مختلفًا معك فى العقيدة يكفى أنكما تكفّران بعضكما ولا تتوجهان بقلبكما لقبلة واجدة، فضلاً عن أنَّه لايؤمن بنبينا عليه أفضل الصلاة والسلام دعك من دعوى الجاهلية ووطن واحد ولغة واحدة هذه ما فى القلب قى القلب.

كنت أحب الموسيقى القديمة وأطرب لها الآن أصمّ أذناى عن لغو الحديث حتى لا يُصَبّ فى أذناى الرصاص المنصهر!! الأغانى فسق والإعلام كذب وتلفيق سحرة فرعون، والجرائد الحكومية سلسلة متكررة من الأكاذيب، وهذا الرجل الفقير عينٌ لأمن الدولة على شباب الجماعة الواعدين!!

تحتَّم علىّ أنْ أعيش فى وطن أتمنى له الخير وأحمل لأهله الخير، أكره نسمة الهواء التى تجول فيه برئتىّ بل أكره كل ما فيه هم فى وادٍ وأنا وإخوانى فى واد، فأخى فى الجماعة هو أخى الفعلىّ الأقرب إلىّ من شقيق اللحم والدمّ،أصبحتُ أُغمِض عينىً عن أىّ شىء وكل شىء خشية أن تسوقنى قدماى للحرام الذى اكتنف حياتى منذ خضعت لزعمهم، أخشى كل شىء وأهابه فى كل يوم يعلو السور بينى وبين المجتمع ولا أزداد منهم إلاّ بُعدًا، أغدو أسير أفكارهم وحدهم، بينما عقلى يتساءل عن هذا القمقم الذى صرت فيه كالمارد العجوز الذى يضيق عليه شيئا فشيئًا يُطبق على صدره ويخنقه بأفكاره التى كلما كبرت ضيّقت عليه حياته..

بدا الشتاء باردًا قاسيًا بينما تلبَّدت سماء القرية بالسُحب وتحوَّلت أرضها الترابية القذرة إلى طين زلِق من جرّاء تعاقب رشرشة المطر ما كوَّن بركَ مياه صغيرة وكبيرة نتيجة عدم استواء التربة ووجود مرتفعات ومنخفضات فى طرقاتها ما يعرِّض المارّ للتلوُّث أو الانزلاق، الصغار يتغنّون فرحًا بالمطر ربَّما فرحًا بالسماح لهم بمغادرة المدرسة قبل انتهاء اليوم الدراسىّ فقد كانت هذه هى عادة المدارس فى القرى تلك الأيام وكأنَّ موسم التزلُّج والتقاذف بدأ أوانه بيد أنَّه تزلُّج على الطين والتقاذُف بكتله السوداء الأطفال يصطخبون ويتعالى صياحهم :

- يارب تجيبها زلابيه... يارب تجيبها زلاااااااابيه.

سرَ سعادتهم غير مفهوم ربما كان يعنى اختلاق وسائل للسعادة من أبسط الأشياء وأتفهها وربما كان البعض منهم سوف يبيت ليلة قارسة حين يتخلل المطر عروق الخشب والبوص المسقوفة به داره فتغرق الفرُش والأسِرّة وتضحى 'مناظر' النوم مفترشة ببعض الأوانى لتجميع الماء المتسرب من السقف فى بؤّره الكثيفة.

طقس شتوىّ أثير يبدِّل حال القرية ويغيّر جغرافيتها وخريطتها الفارغة التى لا تحتوى على شىء من الأساس، يغيض النهير الصغير ويصبح سهل العبور لا يكاد يبلغ ركبتىّ عابره فى أعمق بقعه.علمت فيما بعد أنَّ القائمين على الرىّ يغلقون الأهوسة الرئيسية التى تسمح بعبور المياه لبعض فروع النيل والنهيرات الصغيرة فى الدلتا بغرض تطهيرها من الرواسب وعمل صيانة دورية للجسور وتبطين بعضها

بالحجر وصيانة أساسات الكبارى، السؤال هو لماذا تغمر القرية سحائب من السعادة كلما حلّ هذا الطقس؟ فتهرع النسوة والفتيات لغسل أوانيهن فى أواسط النهر الغائض ودلك الحلل بطميه الرمليّ الرماديّ الغامق شديد النعومة بينما تنتشر القواقع فوق جُزيراته المتناثرة فوق أرضه التى لولا انحسار الماء عنها مابدت أبدًا ولا أشرقت فوقها شمس النهار ولا داعبت أشعتها الفضيّة رملها الناعم ولا قواقعها ولا انكشف نبت قاعها وكأنّه انكشف عنه غطاؤه فبدا عاريًا ذليلا ، حتى الصغار الذين كنتَ تحمل نُذُر الموت والغرق لهم تجرءوا على حرمتك واستهانوا بجبروتك ونفوذك وهيبتك فغدوت كالأسير العارى المكبّل الذى يعبث بجسده الصغار ويستهين بشأنه الكبار حين يمارسون رياضة القرية المميزة فى هذا الموسم وهى (الدَلش) تعنى أن يشمِّر الخائضون فيه عن سوقهم ويعبروا النهر من ناحية لأخرى، فغدت القرية كلها تجتازه مشمرة عن سوقها فبدت سيقان بضَّه تفوح منها رائحة الأنوثة كما تفوح من النهر رائحة الماء المختلط برمله الناعم تختلط به رائحة الزفارة المميزة للسمك الذى لا زال متناثرًا فى أرجائه وبِركه، رجالٌ وفتيان ينشبون مصايدهم وحواجزهم الشبكية لجمع فلول ما تبقى منه بعد انحسار الماء، وآخرون يصطادونه بالكهرباء صمموا مصفاة من شبك تحيط بها حلقة معدنية تتصل بعود طويل من الخشب تتصل الحلقة بسلك كهربائى يوصله الصيادون الماكرون بمصدر للتيار الكهربائى الذى عادة ما تكون الأسلاك المتصلة بأعمدة الإنارة يتلوّى السمك كالملدوغ حين يسرى التيار فى الماء فيتزلزل ويهتزّ فى ارتعاشة

تدعو للرثاء من فرط الألم يموت منها مايموت بينما يستسلم الباقى لاغتراف الشبكة التى تجمع السمك جميعه لا تُفرِّق بين حىّ وميّت. وكثيرًا ما تكون الضحية هى الجانى نفسه حين يسرى التيار إليه عن طريق الماء المنغمسة فيه رجلاه فيهوى صريعًا يتخبط كالقرموط المسكين الذى صرعه آنفًا قد ينجو وقد يغدو ضحية غروره وجشعه.

وتساءلت ربما أمعنت عيناى بحثًا لعلّى أجد أثرًا أو بقايا أثر لأسطورة قريتنا الأزلية "الجنّية" أم الشواشى والشعر الطويل المُنسرِح الذى يلتفّ حول ساق من ترغبه وتختاره ولات حين مناص فما وجدتُ غير حشائش (الريم) التى تنتشر فى القاع و"المسحور" الذى يتعشّق إحداهن فيقبض بأظفاره على وتر كعبها لا يتركه حتى تستسلم للغوص معه فى القاع، حكايات وأوهام عشنا فيها زمنًا كالحقيقة الراسخة لكنّها انكشفت وانكشف سرّها!!

أفيكون ما أحيا فيه وهمٌ آخر لعلَّه امتداد للجنّية والمسحور؟ أوما سمعت أو توهمت سماعه من هزيعها ليلاً حين تتبدّى فى صورة فلاحة آدمية تجاورها زلعة (جرَّة) الماء تناديك فى جوف الليل حين تجتاز ضفّة النهر وحيدًا :

- شَيّلنى ياجدع عِين عليّا يسترك.

وحين يدفعك داعى الشهامة للاستجابة ويتوه عقلك وأنت تسمع عزيفًا كالأنين يشبه الناى الحزين الباكى عن التفكُّر فى سرّ تواجدها فى هذا الوقت من الليل والظلام تصحبك بخفّة للقاع ربما فى جوف

الكوبرى الخشبىّ أعمق مكان عند (البَكَرة) ذلك الكيان الحجرى الاسطوانىّ الضخم فى منتصف النهر الذى يحمل جسم الكوبرى عند فتحه لمرور المراكب ذات الشِراع،فى "السبعات والثمانيات" ينعقد القران!!

أخشى ما أخشاه أنْ أُصبح فريسةً للأساطير التى أتعشقها وأغدو لقمةً سائغةً لها ربما كانت أسطورة الجماعة السريّة التى انضممت إليها مدفوعًا بحب المغامرة والتفرُّد أسطورة أخرى أو وهم آخر أصدق ما فيه أكذبه شعارات رنّانة تستميل النفوس لكنها جوفاء لا تنطوى على شىء سوى أطماع وأحقاد وكثيرٌ ممن يسيئون الفهم بل يسيئون إلى أفكار الجماعة..

جذبتنى رائحة الماء وطميه لا يخلق بى التجوّل فوق أرض "موسى" التى انحسر عنها الماء وسط النسوة الحاسرات السوق التى تبدو بيضاء بضة رغم وجوه بعضهن العجفاء التى اصطبغت من وهج الشمس سمرة كالحة ووسط الصبية اللاهين والصيادين، فاختلقت وهمًا اصطناعيًا برغبتى فى تجاوز النهر وعبوره للضفة الأخرى كأنّى أرغب فى اختصار الطريق ومع ذلك أتانى صوت لوجه لا ينطبع اسمه فى ذاكرتى :

– أيه ده يا شيخ "محمود" انتا "بتدلش"؟؟

فالتفتّ إليه ممتعِضًا فى ابتسامة أشبه ماتكون باستهجان مايقول دون ردّ :

- أنا رايح لواحد صاحبى فى العزبة قلت أختصر الطريق.

- طيب حاذر من البلهارسيا انتا راجل متعلّم وصدرت عنه همهمة غير مفهومة يبدو أنَّه يتفلسف ويقصّ علىّ مخاطر البلهارسيا.

- طبعًا طبعًا فى تبرُّم وضيق كمن ينبس فى ذاته (حلّ عنّى بقى انتا طلعت لى منين، خاف انتا على نفسك يا أخى وسيبنى فى حالى)

- سلامى للوالد.

- يوصل إن شاء الله.

مجتمع القرية الذى يقحِم نفسه فى أدقّ شئونك كأنّه ليس من حقك أن تتنفس دون رقيب، تكاد تنطبق بيوت القرية فوقك أو تنغلق عليك جدرانها من كلّ الجهات.

واصلت تطوافى فى قاع النهر، كانت فى رائحة الماء وزفارة أسماكه وتربته وطميه جوانب أخرى من حياتى تروق لى وتُحيى فى ذاتى مواتًا وشعورًا آخر :

أنّه لا قوانين راسخة فوق الأرض وأنَّ الجوامد قد تتحطَّم والثوابت قد تزول ولا يبقى إلاّ القانون الأزلىّ والبقاء لمن لديه القدرة على الاستمرار، كان افتراش شعاعات الشمس فوق الأرض المكشوفة للنهير الصغير يشبه تسلّل نوع من الكراهية إلى قلبى الذى ما وجد فى الاختلاط بالبشر يومًا أو الاندماج معهم خيرًا !!

جماعة تدَّعى الحب والرحمة علّمتنى الكراهية أن أبغض فى الله أتكون ذات الله محلاً للبغض لا لا لن أوافقكم على هذا لن تكون ذاتُ القدير فى نظرى سوى الحب والحب المطلق بلا حدود طوبى لمن قال (أحِبّوا أعداءكم) ولمن ضرب برحمته وعفوه وتسامحه المثل فأطلق الطلقاء ألم يسمِّ(الله) تعالى نفسه الرحمن الرحيم؟!

* * *

لا أنكر أنّى فى رحابهم وجدت بضعة من ذاتى، عرفت نفسى وسُرعان ما فقدتها، فتحوا لى آفاقًا رحبة فى دوحة خاصة هم وحدهم يملِكون مفاتِحها – لن أخرج من قمقم صغير ؛لأسجن روحى فى حديقة غنَّاء – مُغلَّقة فيها الأبواب عاتية فيها الجدران- أَوَ أتحصن بحديقة مسيلمة الكذاب ظنًّا أنّ فيها النجاة ثمّ تفجأنى حربة وحشىّ–

فقط سلِّم عقلك وأعِرنا أذنك وامنحنا خطامك مغمض العينين نمضى بك حيث نريد لا ترى موطىء قدمك ولا متى تتوقف عن الانقياد لكل ما يزعمون!!!

صممت أذنىّ عن كلّ صوتٍ عدا أصواتِهم، وأغمضت عينى عن الرؤية لا أفتحها إلا حين يأذنون لى ؛ فأشهد من منظورهم – أفيكون الحقّ أصمٌ أعمى؟! وكففت قدماى عن الولوج إلاّ فى طرقاتٍ يوطئونها لى رغم وعورة مسلكها، وطّنتُ نفسى على صلاة الفجر مذ عرفتهم، مُتعة من الصفاء الروحى تغمر الوقت وتتسلّل للنفس تنتشى بصفاءه وغموضه ؛فتبتهج طيلة نهارك، أيقظوا فىّ أشياء وأماتوا أخرى.....

كان الجو لطيفًا رطبًا يعكس نسمات النهير البكيرة التى ترافق خطواتنا، وصوت انسكاب الماء على جسد يستحم مسموع بوضوح وجَّهت نظرى صوب الصوت تجاه النهر الصغير راعنى مشهد أنثى عارية تستحمّ قد غمرت نصفها السفلى فى الماء الأسود وكأنَّه تشرَّب كل ظلام الليل فانعكست قتامته على صفحته وانسدل شعرها الأسود المبتلّ فوق وجهها فأخفاه لم يبد منها سوى ثديين عظيمين قد تدليا وكأنَّ ثقلها جعلها يبدوان فى هذا الترهُّل المنفّر، تواصل سكب الماء وكأنَّ شعرها الذى أخفى عنَّا وجهها حجب عن عينيها ربما عقلها أيضًا رؤية شابين يريانها بوضوح، كانت نظرة خاطفة لم أعقبها بأخرى ربما خجلاً من أميرى الذى بدا أنَّه رأى وعاين المشهد مثلى همست إليه فى دهشة واستغراب :

– أيه ده يا أخ إسلام فيه حد يعمل كده؟

– سيب كل واحد فى حاله.

وعرجنا مفارقين صحبة النهر نحو بيوتنا وانصرفنا لم نلتفت وراءنا ولم يدر بيننا حوار آخر عنها لم أسأله مرة أخرى خشية أنْ يظنّ بى السوء!! من تكون؟؟ وكيف واتتها الجرأة لنزول المياه فى الليل؟؟ لماذا لم يمنعها حياؤها من التعرّى فى طريق الرجال العائدين من صلاة الفجر؟؟ وما الضرورة لهذا الفعل المستغرب المشين؟؟

– رُبَّما كانت بلهاء لا تعرف الخوف ولا الحياء ولا تقدِّر الأمور ولا تأبه لانكشاف جسدها؟؟ ولكن أيتركها ذووها على هذا الحال دون

رقيب؟ ربما تسلَّلت منهم ربما أو كانت لها جرأة "شكّور الأبله" ذو القلب الطفولى الميّت لا تخش بحرًا ولا جآنًا!!

لعلّها كانت إحداهنّ تسلَّلت من تلك الأساطير وحكايات جدَّتى لتمثل أمام أعيننا وكان من حسن حظّنا أنَّنا لم نمعن فيها النظر وإلاَّ كانت سلَّطت علينا شعاعًا ناريًا من عينيها المخبوءتين تحت شعرها المنسدل، أو كانت امرأة عادية سوَّل لها حمقها النزول فى الماء فى هذا الوقت الخالى من المارة ثم فوجئت بنا ولم تحسب لذلك حسابًا!!!!!!!!!!

أم كانت حقيقة ما أكابد تجسّدت لى مرئية فى هذا الكيان الأنثوىّ النافر؟ لم نراجِع هذا الأمر ولم نذكره مرّة أخرى كأنه لم يكن...

* * *

أخبرنى "إسلام" فى نظرة ملؤها الخبث الريفىّ يتيه بها ويفخر أنّ (النظام الخاص) لا يزال قائمًا لم يُحلّ كما يدَّعى المدافعون عن سلمية الجماعة وأنّ سرّيته أمان وتِقية فما فائدتة إذا كان مُعلَنًا تبطش به قبضة الأمن الغاشمة مسترسلاً :

- تصوّر جماعة مبتورة الساعدين كيف تحمى نفسها؟

- تحمى نفسها مِنْ مَنْ؟؟؟

- المتربصين بنا وبجماعتنا كثير والكائدين لنا أكثر.

يُسهِب "إسلام" فى فخر فارتفع حاجباه وهو يقول :

- أبلى إخواننا أبطال (النظام الخاصّ) فى حرب فلسطين أعظم بلاء كانت فرق اليهود تتراجع أمام بسالتهم ففاجأتهم قوى الظلم واستقبلتهم فى السجون.

- لكنَّك أخبرتنى فيما سبق أنَّ (النظام الخاص) قد قوّضه الهضيبى بعد أنْ خرج عن السيطرة وتسليمًا بسلمية الدعوة!

- ليس كُل واقع يحِقّ لى إعلانه وليس من حق الإخوة الجدد الإطّلاع على كثيرٍ من التفاصيل، كما أنَّ الانتساب (للنظام الخاص) شرفٌ لا يُتاح إلاّ لصفوة الصفوة من الأعضاء الذين يحظون بثقة أمرائهم وبعد تزكية إخوانهم الكبار.

- قرأتُ أنَّ البيعة تشمل القسم على المصحف والمسدس فى حجرة مظلمة على ضوء شمعة لأمير مُستتر غير مرأى لا يبدو منه غير كفّه فقط.

فى دهشة جاهد إخفاءها :

- كان "صالح عشماوى" من الرعيل الأوّل على حدّ ما قرأتْ.

- دلالة ذلك أنْ أُسلِم قيادى لمجهول لا أراه فى ظُلمةٍ لا أدرى مُنتهاها؟

- ليس الأمر كما تظُنّ المعنى أنّك تستسلِم كُليًا لمبادىء الجماعة وأفكارها، تخضع وتُذعِن بيقين لا يقبل الشك وأنّك تنتمى لفكرة خالدة لا تموت وليس لأشخاصٍ يفنون!

أكاد أُجزِم أنَّ "زاهر" و"خطّاب" وكثير من الإخوان لا يدرون عن هذه الأمور شيئًا ربما لا يعرفون شيئًا عن تاريخهم القديم.

لست أدرى لماذا تطرَّق لذاكرتى قضية قرأت فيها منذ زمنٍ، كانت قضية ثورة بعض الإخوان ومعهم (النظام الخاصّ) عقب مقتل "البنا" على تولّى المستشار "الهضيبى" رئاسة مكتب الإرشاد وقيادة الجماعة

رغم كونه من الإخوان المغمورين وليسوا ممن لهم السبق فى الجماعة مع وجود من يفوقونه خبرةً وعملاً وجدارة لنيل هذا المنصب!!

فتذكّرت مقالة أحد ثوار الإخوان وهو إخوانىّ قادم من أقاصى الريف كان ممن اقتحم شقة المرشد وأخرجوه منها عنوة بالروب والبيجاما وحين سُئل عن هويته أجاب :

- أنتم لا تعرفوننى فأنا من إخوان تحت الأرض.

نقضت هذه الواقعة كثيرًا من أفكارى عن الجماعة وأنهم بشرٌ يصيبون ويخطئون ليسوا منزَّهين عن البشر بل يعتريهم الحقد والحسد والتضاغن، وجميع الآفات البشرية التى تعترى البشر!! فلماذا أُسَلّم قيادى تسليمًا مطلقًا كأنَّنى بلا عقل لإنسان قد تكتنفه الأطماع ويُداخِله الزلل فيسوقنى إلى حيث لا أدرى ولا أرغب فقط لأنَّه أميرى ويرجو لى الخير ولن يوجهنى إلا لما فيه صلاحى وصلاح الأمّة..

أفلا يستخدمنى كورقة أو أداة ضغط لأكون فى خدمته لا خدمة الدين؟ وأعمل وفق مصلحتِه هو وفكره هو دون غيره، ماداموا يتضاغنون ويتصارعون على السلطة لحدّ إهانة أكبر رأسٍ فيهم فما الذى يتبقى من القيم والمثل التى يتشدق بها "إسلام" و"عبد الهادى" وكبراء المنطقة الذين تعرَّفت إليهم بحكم كونى واحدًا منهم؟!

أمرٌ آخر أرَّقنى لم يغمض ليلتها لى جفن مقولة : إخوان تحت الأرض.. إخوان تحت الأرض يالله فى جماعة النجدة والنجاة تطرق ذهنى هذه العبارة الفجَّة..

أوَ يكون هناك إخوان تحت الأرض لعلنى منهم الآن كملحها وسمادها وحصاها وترابها؟ وإخوان فوق الأرض يحظون بالشهرة والنفوذ والزعامة والتقدير!!

إخوان يُشار إليهم بالبنان فوق أكتاف آخرين قد تطأهم النعال ؛ فيضيعون هباءً ربما دون أن يشعر بهم أحد!! وما الضير أليس كل ذلك فى سبيل الله وفى سبيل مرضاته؟؟ نعم نعم لسنا طلاب دنيا ولا شهرة ولا نفوذ فقط أن يرضى الله عنّا ويجعلنا فى عباده الصالحين!! ولكن مَنْ أدرانى أنَّ ما يأمرنى به أميرى فى مرضاة الله وليس توطيدًا لنفوذ بعض المتصارعين من إخوان فوق الأرض على كراسيهم ونفوذهم؟

أفأكون فى جملة الجماهير الإخوانية كالحطب الجافّ الذى تُشعل به الاحتجاجات ويُستقوى به عند الحاجة؟ وأصبح فى جملة الجموع المعدَّة للتفاخر والتباهى بينما هم فى الواقع لاشىء سوى لبنات سفلية يقوم عليها البناء العظيم لا تُرى ولا يشعر أحدٌ بقيمتها.

- إخوان تحت الأرض - زلزلتنى العبارة التى طرقت كل خامل فى تلافيف مخّى أوَ نكون نحن من هؤلاء الذين يُدعون للاحتشاد ؛ ليحصدهم الرصاص وتدوسهم المدرَّعات ويُمنَّى بعدها الكبراء بالحظوة ويكتسبوا المكانة والنفوذ؟؟؟

رأسى يكاد يشتعل. ما تغنى الثوابت المتأرجحة بين الأطماع البشرية؟ غمرنى القلق واستبدَّ بى التوتُّر فبلغ بى مداه.....

كيف يتصارع الربانيون هذا الصراع الذى تكتنفه الأطماع وتُحرِّكه الأحقاد؟

والذين عُلِّقوا على أعواد المشانق وقَطَّعت لحومهم السياط هل ذهبت دماؤهم هدَرًا أم أنَّهم انساقوا خلف وهمٍ كاذب وقيم خالية من معانيها!!

هل هذه فروسية النهار يارهبان الليل؟؟ حين تحملون مرشدكم بملابسه المنزلية وتهددونه بالقتل؟ أم حين تدسّون فى علبة حلوى قنبلةً تنفجر فى المهندس (السيد فايز) العضو القيادىّ فى النظام الخاصّ فتقتله مع أطفال وتنهار به بلكونة منزله؟

بأىّ جريرةٍ استبحتم آنفًا دم الأطفال ودماءكم ونهلتم منها ولمَّا ترتووا يا أبناء الرعيل الأوّل؟؟؟

اقشعرّت نفسى هم يقولون مالا يفعلون، أقوالهم محض إدّعاء تاريخهم ينفى ويُثبِت.اضطُهدوا وعانَوا وظُلِموا وظَلَموا واستباحوا الدم فاستُبيحت دماؤهم، شعور بالرفض ينتابنى وكأنَّنى مأسور مُكبَّل أنشُد الخلاص لم أعُدْ أحتمِل تجمّعاتهم كلماتهم المكرّرة الرتيبة كأنَّهم دومًا فى استقبال إشارة ما من غرفة تحكُّمٍ رئيسة! متى يتوقّفون؟ متى يبتسمون؟ بل متى يتنفسون أو يَحْيون؟ حتى قسمات وجوههم وتعبيراتها التى تتشابه فى أمور بعينها طريقتهم فى الترحيب بك حتى زرّ القميص العلوىّ عند العنق الذى كانوا يُغلقونه أجمعين وكأنَّهم نُسخة كربونية لشخص واحد انتشرت فى القرى والنجوع والمدن.

أقبل الصيف وانتشرت فى الأجواء نسائم أغسطس الشحيحة الرطْبة التى لا تُبدَّد حرًّا قادمةً من فوق صفحة النهر والتى لا تتقهقر أمامها موجات الهواء الساخن الذى يلفحُ الوجوه فى تلك الظهيرة الصيفية القائظة و تحمل من وهج الشمس نارًا حامية، ومع ذلك أجبت دعوة بقضاء يوم فى الهواء الطَلق على ضِفة نهر أكبر يتفرع منه نهير بلدتنا الصغير ويغدو متنزهًا رحْبًا أسفل كوبرى ضخم عملاق فالشاطىء غاية فى الفساحة كأنَّه روضة خضراء أرضها نجيل وزروع مختلفة متفاوتة الحجم لكنَّها لا تصل لحجم الشجرة الكبيرة التى يُستظلّ بها يبدو أنّ هذه التربة من أرضٍ ينحسر عنها الماء أوقاتًا مُحدَّدة من السنة يستغلّ بعضها الفلاحون فى زراعة الجزء الذى يبتعد عن المجرى قدر المستطاع حتى لا تفسد الزراعة لقربها من الماء، شمس الظهيرة تلتمع كصحائف من الفضة فوق صفحة النهر، اكتست الوجوه طبقة رقيقة من السُمرة بفعل أشعة الشمس الحارقة التى لفحتها بعد أنْ ظلَّت مُصلتةً عليها معظم النهار تقريبًا زاد من تأثيرها ابتلال الأجساد بالماء من جرّاء الاستحمام فى النهر فى الفترة المفتوحة من برنامج اليوم الملىء بالتكاليف.

- اليوم طاعة واختبار لقدرة تحمّلكم ومثابرتكم على تحمُّل الشدائد، يجب على الأخ أنْ يعدّ العدّة ليوم تكون المواجهة فيه حتمية أو يقع فى أيدى أولاد الهِرمة الكفرة الظالمين، يجب أنْ نكون مُدرَّبين على مواجهة أهوال قد يُلاقيها بعضنا حتى لا تلين عزائم الرجال.....

هكذا خاطبنا شاب لا أعرفه قد نصَّبه المنظمون أميرًا على المعسكر يبدو أنَّه من إخوان منطقة مجاورة لنا كما بدا من لكنته وجلبابه. دُرِّب جيدًا على قيادة المجموعة بصلف وسُخف ممعنًا فى استفزازنا أجمعين لاختبار قدرتنا على تحمّل الأوامر الصارمة وخضوعنا الكامل لمبدأ السمع والطاعة..

بدأت نُذُر التمرُّد تتراءى أمام عينىّ وأنا أعلن على الملأ تبرُّمى ورفضى لكثير من وقائع هذا اليوم خصوصًا حين أُمرنا بالاصطفاف وأن نُلصِق صدورنا العارية بالرمل الساخن كأنَّه الجمر!!

- انزل يا أخى ونفّذ أمر الأمير ربنا يهديك...

بينما يهم "صُبيح" الرجل الذى يساوى عمره ضِعف عمرى من إخوان "شبرا قمولا" وهو موظف بسيط ويعمل نجّارًا أيضًا له لحية صغيرة سوداء (سكسوكة) هى كل مانبت فى وجهه، ويؤمن بمبادىء الجماعة إيمانًا راسخًا كأنَّها تعاليم الإسلام، وكنت تعرفت عليه فى معسكر اليوم بحكم جوارى له فيه.

- لأ يا أخى مش هانفذ الرمل شديد السخونة ولا فائدة من إحراق جلودنا بالرمضاء.

- الإخوة عمرهم ما هيؤذونا أنا سمعت انهم جربوا على نفسهم ده قبل ما يطلبوه مننا.

كان يحادثنى وهو يكشف قميصه القطنىّ الأصفر عن صدره وسط طابور طويل حذوا حذوه ويدسّ صدره فى رمل الهجير الناعم شديد السخونة.

بدوتُ وسط الصفّ كالنغمة النشاز وسط لحن متناغم بالغ الدِقة أو كالآبق من قطيعٍ مطيعٍ خاضع.

– يسترسل فى أسى ماذا لو تعرّضت للضغط والإكراه من الشرطة فخوَّفوك بالعذاب أو سحلوك فى الرمال؟

– هذا من الأمور التى لا نعتادها بتكرار فعلها ستظل تحرقنا النار كلما غمسنا فيها أصابعنا لن نعتاد لهبها ولن نأخذ منه مناعة.

– اسمع وأطع لا تتفلسف أنت تُهدِر قيم وتعاليم الجماعة.

– أنا فقط يا أخ "صبيح" أناقش لأفهم وأعرِض رأيًا يحتمل الصواب والخطأ.

يبدو أنَّ هناك من يرمقنى من على البعد ويسجل تمرّدى على الأوامر دون أنْ يُعقِّب أو يُبدى أنَّه مهتمّ، سرعان ما صدرت الأوامر فى صورة صوتٍ عالٍ أنْ انهضوا فوقف "صبيح" ومعه الطابور الطويل ونظر إلىّ بفخرٍ قائِلاً :

– يا أخى ما كل هذا العناد نزلنا ولم يحدث شىء وقمنا ولم يصبنا مكروه كانت الرمال شديدة السخونة فى البداية تكوى الجلود لكنّها سرعان ما استحالت حضنًا دافئًا كصدر الأم الحنون... ألم أقل لك؟

كان يكلمنى بينما ينفِض الرمال الملتصقة بصدره، داخَلنى شعور غريب بالجُبن والتخاذل، أكلهم شجاعٌ إلاّ أنت؟؟ ماذا عليك لو سمعت وأطعت مثلهم أنت تتحلّل من بيعة وعهد فى عنقك وتثير حُنق المسئولين عنك؟! لعلك تختلق المشكلات كما قال عنك "عبد الهادى" يبدو أنَّ هذا المعسكر الغربال الذى سيصفّى كل ماهو غير إخوانىّ، ربّاه أمَا آن لهذا اليوم أنْ ينقضى؟؟

صرخ فينا أمير المعسكر :

- ياجنود الله وياشباب الإسلام تعلمون أنَّ الساحرة العجوز "شاهندة" على بُعد كيلومترات قليلة منَّا تأخذ الصبيان والأطفال تحببهم للشيوعية وتزيّنها لهم بالمال والترغيب وتنفِّرهم من شرع الله، فتعالوا نربّى أنفسنا لدحْر هذه الشمطاء وخططها الكفرية.

- "شاهنده"؟؟ مَن "شاهندة" تلك ياأخ "صبيح"؟؟؟

- "شاهندة شوكت" شيوعية تحارب دين الله وكانت من جنود الطاغوت عبد الناصر.....

ساقونا لمكان آخر فيه كتلة كبيرة مُتجمّعة من روث البهائم (الجِلَّة) المتعفنة التى تفوح منها روائح كريهة من جراء التعفُّن بينما انبثق منها الدود، فى مشهد غاية فى البشاعة طلب أمير الرحلة الشاب المتغطرِس أنْ يحمل كل أخ بكفّيه منْ هذه القذارة وينقلها لمكان آخر بعيد، فى مشهد غاية فى التقزّز والنفور كادت تنقلب له معدتى ومعدتهم أجمعين.

هتف فينا الأمير صارخًا حين استشعر كراهية الكثير لهذا الفعل :

- احتجزتنى قوى الظلم ذات مرة طيلة يوم كامل فى مِرحاض ملوَّث بالغائط وتفوح منه روائح غاية فى القذارة فى المخفر ليُدحضوا همَّتى ؛ فماذا كنتم فاعلون لو تعرَّضتم لما تعرَّضت له؟ نحن نربّى رجالاً على المكاره يصبرون ولا يضنّون على الدعوة بالروح لا بتحمُّل حَمل بعض القاذورات.. فاستجابوا جميعًا مذعنين،

وأبيت وأصررت على الإباء لم يلحّ علىّ أحد فى تنفيذ الأمر يبدو أنَّهم أسقطونى من حساباتهم.فقط طلب منّى أمير المعسكر كتابة اسمى وتعليقى على أحداث اليوم وتحفّظى على ما رفضت تنفيذه من طلبات، درسٌ فى الطاعة اجتازه الجميع وتعثّرت فيه، الكل بالغ فى الثناء والإشادة بالمعسكر وتنظيمه وأميره عداى صدَعتُ برأيى وكأننى أتنفس لأول مرة منذ زمن طويل :

- التألُّم بالنار والاقتراب من المقذور أمر لا يمكن اعتياده بالتكرار ربما يحتمله الإنسان حين يفرض عليه أمَّا تجريبه فهو أمر غير منطقى لا يرضاه الله ولا يقبله العقل..... نظر إلىّ الأمير الذى كانت عيناه شديدتا الضيق تكادان لا تبدوان فى رأسه الهزيل كالنواة وجسده النحيل الفارع الطول كأنَّه مخرز فى تؤدة وهدوء نظرة ترجِأةٍ لا تحمل معنى الرضا وكأنَّه يقول :

سأنظرك حتى حين!! مفهومنا للديموقراطية مختلف يا فتى تتلخلص فى كلمتين : اسمع وأطِع.....

يبدو أنَّ الانطباع السيء الذى خلفه المعسكر لكلينا بات أثره واضحًا على "إسلام" فى جفائه معى لكنّه لم يقطع جسور المودَّة نهائيًا..

لعلَّها نوبة تمرّد فيما ينتابنى من إباء فى رحلة بحثى عن التميّز الذى أخفق فى مسعاه فأَمنى غالبًا بخيبة الرجاء، أأبى أنْ أُصبح معهم على الهامش ولكنى كلّما خضت فى بحرهم ازددت حيرةً وعطشا، أرفض دور الوصيف فى الحياة لا زال رقم اثنين يؤرقنى لا أقبل به فى دراستى، أناضل من أجل نيل مركز أفضل، ترتيبى الأول الذى سُلِب منّى، أفأكون فى الصفوف الخلفية فى جماعة تعادى الدولة وتلفظها القوانين؟؟ ما عرفته عنهم بعد اقترابى اللصيق منهم بحكم كونى صرت أحدهم جعلنى أنقلب على كافّة مبادئهم وثوابتهم الراسخة وأنَّ الدنيا فى قلوبهم وإن أنكرتها ألسنتهم!

فى ليلةٍ صيفية مقمرة من ليالى الصيف التى أعقبت صلاة العشاء خرجت مع "إسلام" و"النجار" و"زاهر" الذى استأذن سريعًا، يرافقنا "جُبير" ذلك الأخ المسئول الكبير عن المركز نسير بمحاذاة النهير الصغير الذى يخترق القرية، كنت أتيه "بجُبير" إعجابًا. عيناه السوداوان اللتان تبرقان حدّة وذكاءً، لحيته المُشذَّبة السمراء التى تغطى وجهه ووجنتيه على الطريقة البنّاوية فى تناسق وتنظيم،جبينه الذى يشع وضاءة ونورًا، تاريخه القديم فهو من رعيل المنطقة الأوّل الذى أحيا نشاط الجماعة وطرق أبواب الجامعة بالجلباب فى اواخر السبعينات تمسكًا بمظهر الدين فضلاً عن منهجيته. ربما صدَّا لهجمة الشيوعيين

الشرسة واستحواذهم على الحِراك الطلابى الذى كان فى الجامعة أوانها على أشُدّه، كان "جبير" رئيس حسابات بمصانع (الشهيد) الإخوانية للبلاستيك ويبدو أنَّ له نفوذًا يرقى به إلى دوائر صنع القرار فى مكتب الإرشاد كان هذا سبب افتتانى به بالإضافة لشىء آخر هو طيبته المتناهية وخلقه الدمِث.كان يتلو القرآن وكأنَّه يتقافز بآياته الكريمة وبالمستمع فوق السحاب يستشعر كلّ ما يقرأ ويتلو وكأنَّ كل آية تهيمن على روحه وجوارحه تغمره الرحمة والنورانيات، كنّا نقطع الليل فى رمضان للاستمتاع بقراءته الرصينة فى تراويحها الهانئة، اليوم "جُبير" عندنا يالها من سعادة، أخلِق به امتدادًا "للبنّا"، كانت رفقة الأخوة فى الطريق تمدّنى بزاد من التقوى والقوة وهم يتناولون قضايا شبابية خاصّة مثل غضّ البصر وكيفية مقاومة الشهوة والرغبة والاستمساك بالصيام أشياء تروق لى لا أنكر فيها عبق التجربة الإنسانية المميّزة فى درء كيد الشيطان، اليوم أمر مختلف كان الحديث موارَبًا حرص فيه معظمهم على التورية ربما رغبة فى عدم اطّلاعى على أطرافه بدأه "جبير" بحوار عام عن الأوضاع فى مصر اكتسب طبعه حِدّة لم أتوقعها منه كأنَّه شخص آخر لا أعرفه ولم أكن فُتِنت به، فصوته يمتلىء حنقًا وغيظًا ونفورًا وهو يقول :

– الخنزير ده عدو للإسلام كفاية إنْ الطاغوت الكبير متمسك به فى الوزارة من زمن ومش عاوز يمشيه.

يجيبه إسلام الذى كان يجاوره عاقدًا ذراعه فى ذراع جبير بينما أنا والنجّار نسير بحذوهما كأنّنا جدار من الجلابيب المتباينة الألوان تسدّ نهر الطريق..

- طب وبعدين الحالة الأمنية متأهبة لاقتناص إخواننا النشطاء وكل من له دور فاعل فيها.

- الخنزير ده ربنا يخلّصنا منه بقى اللى يشوفه يقول ملاك لكنه فى الحقيقة شيطان.

الاثنان يتبادلان حديثًا مُطوَّلاً يداخله قليلاً النجّار مؤمِّنًا ببلاهة على كل ما يخوضان فيه، بينما أنا فى صمت مطبق دافعه الذهول أنْ أرى الأخ "جبير" قدوة قدوتى على هذا المنحى ينتهج نهج سبّاب محترف!

زاد من تبرّمى أنْ عرفت من يقصدون فقد كان رئيس وزراء البلد أوانها وهو عالم اقتصاد كبير يتَّسِم بالطيبة الشديدة التى ترقى لحدّ البلاهة!! هو لا يصلح أنْ يكون رئيسًا للحكومة لكنّه ليس خنزيرًا بل عالمًا جليلاً، ربما أطلق لوزير داخليته العنان فى التنكيل بأعضاء الجماعة وقادتها لكنّه ليس خنزيرًا أنا لا أطيق عليه وصف كهذا وممَّن؟ من جبير الذى عددته صحابيًا سقط علي زماننا من عهد الصفوة والصالحين، أصاب لغطهما استنكارى ونفورى وزاد منه لجوئهما لتورية وإبهام ما يرميان إليه حين تحادثا فى أمر الجماعة الصغيرة عندنا ونشاطها المحدود الذى لا يرضى عنه المسئولون، بدا أنَّه قادم لتنفيذ أمرٍ بعينه يخصّ شأن الجماعة.غاب عنه الأمير اللذين حرصا ألاّ يكون طرفًا فى اللقاء فقال

إسلام بعد أنْ استوقفنا الحديث أمام منزل خرب يبرز بزاوية فى الطريق الذى يحاذى النهر فيضيق أمامه :

- امنحه فرصةً أخرى هو بدأ يكثِّف من نشاطه ويزيد من همّته.

- لا أنكر ورعه وتقواه ولكنّ أسلوبه منفِّر يثير القلاقل ويخمد من نشاط الجماعة وهو مع ذلك صديق قديم ورفيق جهاد ودعوة لكن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الأشخاص...

يقاطِعه إسلام بأدب :

- معذرة يا أستاذنا نحن معه ولن نتخلّى عنه فقط امنحه فرصة أخرى يعلم الله مدى إخلاصه وحبّه للدعوة.

- أعلم أعلم...

يصمت برهة كأنّه يزِن ما يقول ثم يُكمِل :

- لكنّها الأمانة التى لا يستحق أن يتولاها إلا من كان أهلاً لها مِن أصحاب الاستحقاق لا الحظوة والأثرة.

تحوَّل الحوار بينهم إلى همس كأنّهم فطنوا إلى وجودى فجأةً وأنّهم ما كان يجب عليهم أنْ يطرقوا أمرًا بالغ الخصوصية فى شأن الجماعة أمام شخص ربما لم يدِن بالولاء الكامل لها بعد ولم ينجح فى اختبارات الطاعة التى عرضوه عليها، تبادلوا نظرة مغزاها : ماذا لو فطن لمقصدنا رغم حرصنا الكامل وتوريتنا الحديث كله؟؟

توالت الخُطى بطيئة متثاقلة تعكس رغبتهم فى إتمام أحاديثَ شتّى لا يسعفهم الوقت ولا المكان لإتمامها، لم أكنْ أطاولهما رغم قصرهما فى جلبابيهما ربما تعمّدت التصاغر أمام أميرى وأمير منطقتى كنوع من التواضع والاحترام لما أوليانى من مكانة رفيعة ولكن خجلى القديم وتأدبى جعلنى أتراجع بمقدار خطوة أو أكثر عن مستوى خطواتهما وكأنى أتضاءل فى حضرتهما، كان الأمر مصيريًا يتناول تشكيل جماعة القرية تلك النواة التى تنبثق من وحدات أكبر تصُبّ فى النهر الكبير فى "المنيل" عند أعضاء مكتب الإرشاد وكبيرهم "حامد أبوالنصر" الشيخ الهرِم الطاعن فى السن، استشعرت تحرّجهم فاستأذنت فى الانصراف بعد أنْ أيقنت أنَّ "جبير" كان قادمًا بأوامر مُشدَّدة لعزل "عبد الهادى" ربما لتنصيب "مهدى" أو "إسلام" خلفًا له وأنَّ هناك محاولات جادّة للاستمساك بأميرهم وعدم إحداث شرخ فى صف الجماعة التى اعتادت على هذا خلال تاريخها الطويل...

كل شىء ينهار حتى القيم والمثل والثوابت محاولة أخرى لعزل "عبد الهادى" الذى ربما كان رفيق عُمر "لجبير" وعلى كتفيه نهضت الدعوة وتحمّل فى سبيلها كل الأهوال والاستهزاء آنفًا من لحيته الكثيفة التى كانت تغطى صدره والكيد له اليوم من عناصر الأمن لدرجة أنّهم عطّلوا ترقيته عدَّة مرّات!

صحيح أنَّه لا يروق لى وأنّ الكيمياء بينى وبينه غير متوائمة رغم كونه أمير القرية ومعلمها ؛ لأنَّه لا يراعى التهذيب فى أوامره ولا اللياقة

فى تعامله مع إخوانه ربما كنت أحدهم على الأخصّ لا أنسى أمره الفجّ الذى جعلنى أستشعِر الحرج :

- أخفض صوتك وأنت تتكلم معنا لا يسمعنَّ تحاورنا الناسُ.....

ومناجاته أحد الإخوة فى حضورى على مرأى منّى مع حرصه التام ألا يصل إلىّ شىء ممّا يقول!!

لكن لا يسعدنى إقالته بهذه الطريقة الفجَّة وكأنَّ مأساة إقالة "البنا" لصفيّه وأخيه ربما المؤسس الأصلى للجماعة الأستاذ "أحمد السُكَّرىّ" تتكرَّر من جديد بعد تبادل السباب والتخوين علانية على الصحف حينها لحد وصف السُكّرىّ للبنّا وقتها بالشيخ الكذّاب وإرسال البنّا خطابًا للسُكَّرىّ يهدِّده بالانتقام والعقاب.

بدا "إسلام" و"النجّار" مستميتين فى الدفاع عن بقاء "عبد الهادى" لم أستشعر فى "إسلام" النيّة الخالصة وإنْ تظاهر فى إبدائها، كان "مهدى" المحامى الفقير ألدغ اللسان حادّ الذكاء يُمنّى نفسه بوكالة النيابة فهو من أوائل دفعته فيلتحق بسلك القضاء أسوة بإخوان عائلة "الهضيبى" البارزين لكن إحباطًا شديدًا لازَمه لم ينل مما ارتجاه شيئًا فلا هو عُيّن فى الجامعة ولا قُبِل فى سلك القضاء أطاح عدم وجود واسطة لديه وانضوائه فى صفوف الجماعة ما وشت به تقارير سرية وملف باسمه فى مكتب [أمن الدولة] بطموحاته كلها، لم يكن أمامه إلا العمل محاميًا قرويًا ضئيل الدخل والحال يحيا على ما يُمنح له من فُتات مكتب محامٍ قديم فى البندر وما فاض عن حاجته، يبحث عن ذاتٍ

فقدها وأمنيات مستحيلة بالسطوة والريادة ابتغاها وكدّ فى سبيلها فلم يجدها سوى بين إخوانه فى القرية كان الأقوى للترشُّح لخلافة "عبدالهادى"، وكان الخبث والطموح يستميلان "إسلام" يستثيران شهيته الجائعة للحظوة والمعالى لكنَّ لسانه كان ينطِق بما لا يجيش فى صدره.. ربما مكرًا أو حذرًا وذكاءً يدفعه لترقُّب النتائج وعدم تعجُّلها فقد كان فلاحًا فصيحًا يعرف متى يقول وماذا يقول وماذا يفعل!!

* * *

دُعيتُ فيمن دُعى لندوة عظيمة يُحاضِر فيها فقيه الجماعة الأول ذلك الشيخ الطاعن فى السن من رفقاء "البنا" وألأقطاب مؤلف فقه السنة فضيلة الأستاذ- سيد سابق – يحمل من رائحة الأيام الجليلة عبقها.

سألت "إسلامًا" فى دُعابة اعتدناها كما اعتدنا كثيرًا ممّا نقول ونفعل فى تكرار حياتىّ مُملّ سخيف :

- امُجلببين أم مُبنطلين؟؟؟

فابتسم هازًّا رأسه :أنِ الأمر كما تشاء....

كان الجمع كثيفًا راعنى كأَنَّه يوم المحشر العظيم وفود من الإخوان من كل حدب وصوب كأنّه نمل انحدرت عنه الشقوق فى قيظ صيفٍ عظيم، راعنى هذا التواجد والحضور الطاغى!

– ياااااااااااااه كل دول إخوان تحت الأرض ما احنا كتير اهوه –

لم أجد مكانًا فى المسجد الفسيح ولا فى أجواره فقد انتشر إخوان تحت الأرض ومنهم من قدم وانتظر من الضحى وقبيل الظهيرة ما اضطرنى للجلوس للاستماع فى دهليز ملحق بالمسجد على حصير خلِق، لم يصل لأذنى غير صوت متضعضع لعجوز هرِم يجاهد الأنفاس ليخرج صوته ضئيلاً واهنًا من وراء مكَبِّراتِ الصوت، لم يُعِدْنى الصوت للماضى ولا تنشَّقت عبير "البنّا" فيه. فقط ملكنى الضجر من الزحام واللغط واصطخاب الإخوة كأنَّنا فى سوق طرقت ذهنى طوارق شتّى لا تَمُتّ لبعضها من قريب أو بعيد :

- أعدادٌ رهيبة من مركزٍ واحد تصلح لتكوين كتيبةٍ ضخمة قوية.

- أين قوات الأمن منَّا الآن؟؟ هذا تجمُّع إخوانىّ علنىّ للجماعة الأولى المُعادية للدولة، لعلهم لا يجسرون على الاحتكاك بنا أو استثارتنا،فقط يرصدوننا من بعيد، يخشون صولتنا، هل واتى زمان قطف ثمارك يا "بنّا"؟

لم نلتق فرادى ولا فى الخفاء. كياننا واضح وضوح السماء لعلّنا نتحدّى دولة الظلم والفساد بعنجهيتها وغرورها، ونُبدى قوتنا كما أبدتها جيوش الفتح الأعظم على جبل " أبى قُبيس " فأشعلت عشرة آلآف نارًا، لعلنا اليوم عشرة آلآف أو يزيد..... ولكن أما كان الإخوان مئات الألوف؟؟ لهم فى كل نجع وعزبة وقرية شعبة وأنصار ثم تفككّوا وتلاشوا فى غضون شهور ومن استمسك منهم انصهر فى أفران العذاب فما عادت لهم قوة تُذْكر.....

– لا لا عادوا أقوى من السابق وأشدّ. استشهد "البنا" ورفاقه وعُذِّب الكثير ذهب "فاروق" وهلك "عبدالناصر" "والسادات" وبقيت جماعتنا خالدة أفكار تولِّد أفكارًا فى العقول والصدور والمِحن.....

فى ترّهات الحدث عقلى يتمخّض وتتعارك فيه الأفكار، جيشٌ قويّ ضد مَن؟؟؟؟؟

لا تأخذنَّك العِزة بالأثم رجال يقهرون أوطانهم ليتنا كنَّا سلاحًا فوق رقبة المستعمر أو اليهود حين كانت القضية والهدف واضحين وضوح الشمس!!

يثير انتباهى فيجتثّنى من أوهامى التى غبت فيها عن الحاضر فى حديث عقلىّ مطوّل صوت الشيخ الواهن يزمجِرمن الميكروفون :

– ليت "البنّا "حيّا فشهد اجتماعكم أيها النبت الأصيل.

فيهيج الجمع تكبيرًا وتهليلاً وحمدًا.

أعود أدراجى لحديث ذاتى :

– يبدو أنَّ الرجل خطيبًا مفوّها ، ولكن ماذا عن حذائى تركته فى الخارج وسط مئات الأحذية ماذا لو ضاع وأنا فى هذه البلدة؟؟ كيف أعود؟؟ مصيبة سوداء ليتنى وضعته إلى جوارى (كده كده اللقاء باظ وما شفناش الراجل ولا سمعنا منه حاجه)

فرصة لقرض الشعر (وهوه ده وقته ؟ وقته ونص لحد ما يخلّص) :

وأخوف ما أخاف عليه نعلى إذا القوم تولَّوا مدبـــرينا

فإنَّ النعل بالأمــوال يُشــرى وليس بغيرها يُشرى المتينا

(والله شاعر ياواد) كرّرهم بسرعة حتى لا تمحو آفة النسيان بيتيك اللطيفين، آه لو استمع لهما الإخوة لاتهموك بالزندقة هههههه ماعلينا.

فى خلاءٍ فسيح لقرية مجاورة دُعيت لصلاة العيد كان الأمر يروق لى فى البعد عن جوّ القرية المتطفّل الخانق وآداء الطقوس والشعائر الدينية بطريقة مختلفة تشوبه روحانية خالصة محببة تجعلك ترجع معهم لعهد الصحابة والتابعين، فور أنْ خرجنا من حدود القرية تعانقت أذرعنا كأننا بنيانٌ مرصوص نكبِّر طوال الطريق تكبيرات العيد دون الصلاة على رسول الله ﷺ فهذا مما لم يرد فى السُنّة،فنحن من نُحيى السُنَّة كما فعلها النبىّ الكريم ونميت البدعة ومُحْدثات الأمور، كأنّنا خلْق وكلّ الناس خلق آخر!

صوتنا يتجاوز الحناجر ويخرج من الأعماق كأنّما يُرجِّع صداه صفحة النهير الذى نسير بمحاذاتِه، يحمل معه الحنين والسعادة وكأنّ الصبح الذى يولد من جديد يحيى موات قلوبنا فيبعث فيه الإيمان من جديد.

تذكرت صلاة العيد الماضى كنت أجلس بجوار جدّى الشيخ "إبراهيم" فى الصفوف الأولى من المسجد "الصمدىّ" يُكبِّر بصوته

الرخيم المنغّم يرن صدى صوته فى الميكروفون جميلاً عذبًا حين يبلغ الصلاة على محمد وعلى آل محمد وعلى اصحاب محمد عليه الصلاة والسلام ويميد نصفه العلوىّ يمنة ويسرة فيحيل نظرته نحوى وهو يبسم ليُقرِّب الميكروفون من فمى مُجلجِلاً بين الاصوات الفرِحة الوادعة ننعم جميعًا بنعمة التلقائية والتلاحُم واليقين فتغمر تكبيراته آفاق القرية وأجوارها.

وصلنا الخلاء، كان الجوّ صحوًا تشوبه لذعة بردٍ خفيفة لطيفة قاربت أنْ تبدِّدها الشمس المتأهبة للبزوغ، تردّدت فى الأجواء أصوات ناحلة لأطفال ينشدون أناشيد إخوانية تعتمد على رخامة صوتهم الطفولىّ يبدو أنَّهم تدرَّبوا عليها جيّدًا :

مسلمون مسلمون مسلمون حيث كان الحقّ والعدل نكون

سرعان ما انتهوا ليبدأ الإمام البليغ المُفوّه خطبة العيد وكأنَّها تنطلق من قلبه لا لسانه،كان الشيخ "صدقى ناجِح" قصيرًا فى بدانة أظهرها بوضوح قِصره البادى،عيناه صغيرتان مستديرتان يشع منهما غور وغموض كأنهما تشعّان ذكاء رغم انطفائهما، له لحية صغيرة تنبت فى أسفل ذقنه فقط، عُدنا وفى الطريق تبادلنا حديثًا ودّيًا خالصًا تطرَّق فيه "إسلام" للحديث عن الشيخ "صدقى" الذى يبدو أنّه أمير المنطقة بأسرِها وعن نشأته مسيحيًا حتى أنار الإسلام قلب والده النجّار البسيط وتبحُّرِه فى العلوم والقرآن حتى صار إمامًا وقائدًا.

قال "إسلام" فى زهو وانبهار :

- ظلّ "علىّ" ابن الشيخ "صدقى" يبكى لأنّ أخاه الأكبر فاقه فى حفظ القرآن الكريم.

بينما يدهشنى حديثه الذى أستمع إليه فى صمت.

- أىّ جيلٍ هذا أم أىّ خلْق هؤلاء؟؟ لعلنى وجدت هنا مدينة الفضيلة والنور، وإنْ داخلنى شىء من الحسد فقد كان "بدر" أخو "علىّ" الأكبر يناهزنى فى العمر فلا غرو أن أتمنَّى أن أغدو مثله فاضلاً نقيًّا كما يدّعون.

يجيبه زاهر فى نبرة حزن وخشوع وكأننى لست معهما :

- الحاج "ناجِح" والد الأمير "صدقى" وهمّا بيغسّلوه لقوا أيده اللى فيها الصليب بيضا زى الشمعة عليه رحمة الله، شوف ربنا لما يرضى عن العبد؟؟

* * *

أعدَّ "زاهر" العُدَّة لزيارة من نوع خاصّ لم يفصح عنها :

- الجمعة القادمة سنزور مدينة طنطا فى زيارة روحانية خالصة.

- ما برنامج الزيارة يا أخّ "زاهر"؟؟

- كل شىء بأوانه يا أخّ "محمود" الأفضل عدم اللجاج والإكثار من طرح الأسئلة.

لم يفاجئنى ردّ "زاهر" الذى اعتدت منه الصلَف، نظر نحونا النجّار باشًّا كعادته كأنّه طائر السلام فى الجماعة و تنحّى بى جانبًا وهو يهمس فى أذنى :

- السريّة أهم صفات الدعوة والمقصود منها سلامتك وسلامتنا جميعًا، من الخير ألاّ تعرف وجهتنا إلاّ فى حينها.

اطمأننت لرأى "النجّار" الذى تودِع بشاشته فى قلبى معانٍ خاصّة.

أقبلت "الجمعة" كعادتها وارفة هادئة،صلينا الجمعة ثم استقللنا القطار تسفعنا أتربة وأرياح، بلغنا (طنطا) بعد ساعة، أمام مستشفى المبرّة أبلغنا "زاهر" بتفاصيل الجولة:

- اليوم يا إخوانى زيارة مرضى لا ولا كلّ المرضى بل علامات على التضحية والفداء والجهاد، نزور جرحى المجاهدين الأفغان!!

سعِدتْ نفسى بهذه المفاجأة السارَّة أخيرًا سألقى من أذلوا الروس الملاحِدة وكسروا أنف جبروتهم، دقائق وأصافح أصحاب " عبدرب الرسول سيّاف" و"ربّانى" و"حكمتيار"، رأيتهم بسطاء يرتدون ذات الملابس البشتونية المميزة البيريه والقميص الطويل والصديرى المفتوح طول الجسام كأنهم عمالقة بيض الوجوه أكاد أرى شرايين وجوههم الدقيقة تحت جلودهم الشفّافة، جلسنا إلى أسرّتهم أحدهم فى شرخ الشباب كأنّه شجرة باسقة تكاد تغطى لحيته صدره والآخر فى خريف العمر شيخ واهن ضعيف لحيته كندف القطن الأبيض تتكثف على وجنته وأسفل ذقنه، لم تسعفنا اللغة هم يتكلمون "البشتونية" و"الأُرْدية" لا يعرفون غيرهما فقط سرَتْ بيننا لغة حميمية بالأعين تتخللها ابتسامات ذابلة وإيماءات بالرأس، لم تكشف لنا لغة الإشارة عن مكنون الصدور ربما دفء أجواء العنبر الذى خُصِّص لهم هو ما جعل اللقاء أكثر أُلفة، سألت الشيخ المجاهد "عبد التواب" هكذا كان اسمه عن بلدته قائلاً:

- أنت من "كابول"؟؟

لم يعِ الرجل المجاهد طريح الفراش مقصدى نظر نحوى بعينين زائغتين،تقدّم "النجّار" نحونا هاشًّا قائلاً لى:

- حاول تتفاهم.

ثم وجه نظره نحو المجاهد "عبدالتواب" قائلا وهو يشير بسبابته إليه:

- بلدك مدينتك يور كنترى.

فهِم الرجل أخيرًا سؤالى وأخذ يُجيب بكلام طويل غير مفهوم فأهزّ رأسى كأنّى أفهم مقصده بينما داخلى يؤنّبنى على سؤال لم أجنِ منه سوى أنْ بدوت بمظهر الأصمّ فى حفل زفاف يرى الضجيج ولا يفهم منه معنى!

ودّعناهم بالاعتناق وتقبيل الأكتاف سَمْت السلام الإخوانىّ الذى تعلّمته بعد أنْ أودعتْ فى صندوق صغير - أشبه بصناديق النذور عند أضرحة المساجد وُضِع فى مدخل العنبر- حفنة من أوراق مالية لا تتعدّى جنيهين عملاً بتوصية "النجار" :

- تبرعوا يا إخوانى لصالح المجاهدين الأفغان وليجُد كل منكم بما يقدر عليه ولو خمسة قروش ليس المهم قيمة ما يُدفع الأهم هو قيمة العمل والنية فى أنْ يكون هذا جميعه عملاً خالصًا لوجه الله.

غادرنا المبرّة على وعد بلقاء على الرغم منْ أنّ هذه المقابلة لم تُثلِج صدرى ولم توافق ما انتويته فيها، كنت أظن أننى أستطيع أن أتوغّل

معهم فى أحاديث شتّى عن الجهاد وبلادهم وقتال الروس ألا إنّه شىءٌ جليل، لكن غدا اختلاف الألسن عقبةً كئودًا فى تحقيق ما أريد.

اقتادنا زاهر مع باقى الإخوة فى زيارة ترفيهية لمعرض الكتاب فى طنطا، صورة لا تُذكر مقارنة بمعرض كتاب القاهرة لكنّى وجدته فرصة لابتياع بعض من كتب أدبية، أمسكت "بالأغانى" "للأصفهانىّ" أسأل الموظف عن ثمنه كأنى وجدت جوهرة ثمينة رمقنى "النجار" الخلوق فسارع نحوى :

- أغانى أيه يا أخ "محمود" ده اسمه كلام ياراجل مش شايف أخوك "زاهر" شارى " أشراط الساعة" اقرأ مايفيدك يا أخى ربنا يهديك.

أعدتُ الكتاب موضعه مخزيًا كأنّى ارتكبت جُرمًا تنبغى منه التوبة بينما رأسى تعتورها الظنون والريَب.....

تاقت نفسى لارتقاء درجات المنبر، أستشعر ذاتى جديرًا بهذا الأمر، ربما أجدر من "زاهر" نفسه الذى بدأوا يصلحون من شأنه ويعدّونه لارتقائه رغم ثقافته ومعلوماته الدينية الضحلة، ألأنَّه أخٌ قديم؟ ألأنّ ولائه المُطلق لهم دون سواهم؟ ألأنّه يسير على درب السمع والطاعة منذ نعومة أظفاره؟ ربَّما دون لحظة تمرّد واحدة داخلته! وهل أغدو أنا كإبليس الذى دفعه حقده للتمرُّد فطُرِد من الجنّة؟؟

واتتنى الفرصة حين عرض علىّ المسئول عن مسجد أهالى فى عزبة نائية الفكرة التى راقت لى،كانت العزبة تمتد على صفحة النهير وتبعد كيلومترات عن قريتنا تتميز بالبساطة ويتميز أهلها بالطيبة الشديدة كان

علىّ أن أُطلِع الأخ "عبدالهادى" وأطلب موافقته كما نصحنى "إسلام" بما يشبه الأمر:

- أريد أنْ أخطب الجمعة فى مسجد [الساحلية] عرضت على القائمين على المسجد الأمر ورحبوا بذلك..

حدجنى بنظرةٍ كلها تعجّب وكأننى اقترفت جرمًا عظيمًا وكأنه يهتف فى باطنه :

- مالنا ولهذا الولد لا يكفّ عن الثرثرة واختلاق المشاكل متفلسف و(عامل نفسه مفتى) هو لا يعرف قدره ولا يقدِّر للناس أقدارهم أنا أميره الذى يجب أن آمره فيطيع أما يكفيه ما افتعله لنا من قلاقل ألَّبت المهيمنين على أمرنا فى معسكر طرح النهر!!!

- لم يكتمِل إعدادك لهذا ونحن الذين نحدَّد التوقيت الملائم لذلك.

- لكنّى أرى فى نفسى الاستعداد لهذا الأمر كما أنّ هناك بعض الإخوة أفوقهم قراءة وعلمًا أرى نفسى أجدر منهم على خوض هذه التجربة.

- نحن نحدِّد من هو الأجدر ولست أنت.

- دورك أنْ تسمع وتطيع لا أنْ تناقِش وتجادل وتثير من حولك العواصف أنَّى تواجدت.

- إنَّما يدفعنى حبى لمصلحة الجماعة وحرصى على انطباع الناس عنها أنْ أقرأ وأُطالع وأسأل وأناقش مدفوعًا بالحب لا الكراهية أليس من الشك يولد الإيمان ومن التمرّد ينبثق اليقين.

- لازلتَ صغيرًا عودُك أخضر وعظمك طرى كانت الجماعة قبل أن تولد بعقود وستستمرّ وتظل ما شاء الله لها البقاء ربما بعد أنْ نفنى نحن.

- هذا ظلم أنا أرى فى نفسى القدرة على الدعوة وأرى أنَّ صِغرالسنّ لن يكون أبدًا عائقًا وقد يكون حافزًا لى ودافعًا لغيرى ومزيّة لجماعتنا العظيمة أنَّ العلم فينا لا يقتصر على سنّ أو مرحلة عمرية.....

يبدو أنَّ الانفعال أخرجنى عن طَورى فبدا ذلك على وجهى ونبرات صواتى التى خالجتها نبرات غاضبة فقَسَمات وجهى يبدو عليها الغضب كصفحة شفّافة تعكس ما وراءها من حزن أو سعادة لاتدارى من ذلك شيئا.....

- ينبغى أن تتعلَّم كيف تخاطب الأمير فلا تلحّ فى معاندته ولجاجه.

قد اكفهرَّ وجهه وضاقت عيناه وتغضَّن جبينه وهو يحملق فى وجهى ويغادر قائلاً :

- انتهى الأمر لا تفتحه ثانيةً إن أردتَ الاستمرار فى الجماعة..... سلام.

صكَّ الأمير "عبدالهادى" وجهى برفضه القاطع فبدا وجماعته عقبة كئودًا تَحُدّ طموحى، ربما أرادت له العنجهية والإمارة أنْ يبالغ فى

تحكّماته وإنْ تعلَّل بخوفه علىّ من الفشل فى مقتبل العمر وأنّ أوانه لَمَّا يأنِ بعد، أو أوعز له "إسلام" أميرى المباشر بدافع الغيرة أو تقليص النفوذ الذى تنامى بعد أنْ أمعنت التمرّد فى المعسكر الأخير والذى ربّما يكون استمرارًا للقفزات السريعة فى مجالى الدراسة والجماعة وكأنّ كل رئيس يخشى على مكانه وكلّ أمير ينزع لتثبيت نفسه فى موضعه،يخشى من يهدد استقراره فى مكمنه!!

اندفعتْ فى رعونةٍ وطيش الأسير المكبَّل الذى انتُزِع من القيد للتوّ، خرجت من عباءتهم حين نفَّذتُ ما أردتُ رغمًا عن أنوفهم، كمن أطلق ساقيه للريح لا يلوى على شىء، وكأنَّنى أخرج من جلدى الذى اصطبغ معهم بالكآبة والسواد وأرتدى إهابى الجديد، أتنسم هواءً آخر غير الذى عبَّئوا به حياتى ورئتىّ، أخلع من علىّ أكاذيبهم وأطهر نفسى من السواد الذى كلَّلوا به قلبى وذاتى..

شرارة الخلاص التى انطلقت فى معسكر إعداد النفوس على تقبُّل كل ماهو قبيح ومؤلم وانتهت بدوىّ إصرارى على الخطابة استشعارى أهليتى لها.

كنت فوق المنبر البدائى فى عزبة (الساحلية) البدائية البسيطة كمن يهتف من أعماقه بصيحة الخلاص،وكأنها صرخة الوليد حين يعبىء رئتيه بالهواء النقى لأوّل مرة يستشق إكسير الحياة، كانت عن الإسراء والمعراج فى هتاف روحى مع الأنبياء والصالحين جعلت أرقى مع الحدث كأنَّنى أصعد وأعلو حتى الوصول لسِدرة المنتهى....

الويل للنفوس الطامعة التى يجمّدها الطمع فتغدو كالجمادات تحركها الأيادى وتنحت فوق وجوهها نقوش البغض والكراهية أزاميل تحركها أصابع من لهب!!

استشعرتُ عُزلةً ووحدة بعد أن انقطعتُ عنهم وانقطعوا عنّى وإنْ لم أنقطع عن المسجد وحلقة القرآن الأثيرة الحافلة بالروحانية والتوهُّج فقد كان المسجد هو الحصن والمعزل عن أقران السوء، كنت أخالط الجماعة لكننى لم أعدْ واحدًا منهم كالنحلة تمتص رحيق الأزهار الفوّاحة وتترك ما عداها، اعتزلتهم واعتزلونى فلم يعُد "إسلام" يسأل عن أحوالى أو يمنحنى النُصح. وجدت نفسى غير مدعو فى لقاءاتهم أو حفلات إفطارهم الخاصة ؛ فعلمت أنَّنى أُخرِجتُ منهم، حزنت بقدرٍ يُعادل استشعارى الارتياح!!

لم أدرِ هل كان اقترابى من شخوص جماعة القرية اقترابا لصيقًا وانبهارى بهم أولاً وبرموزها ثانيًا نقمةً أم رحمة؟؟ ربَّما لم يستطيعوا احتوائى لطبيعتى الملولة المُتردِّدة، أم فررتُ منهم لّما عاينتهم واقعًا وشخوصًا لا شعاراتٍ وتعاليم، هل أحببتهم بصدق وتمنيت الموت تحت لوائهم؟؟ صورة "البنا" التى كنت أُحدِّق فيها فأستشعر الضياء كأنّ نورًا يُشِعّ من عينىّ الرجل ومن جبينه الوضَّاء أتسلل فى ابتسامته المشرقة وعينيه اللامعتين حادتى الذكاء ووجهه الصبوح فأستشعره مخلوقًا غيرنا يحمل ملامح الذات البشرية التى تفيض سماحة وحبورًا. بيد أنَّه لا يمتّ للبشرية بصلة فى شرورها وآثامها وكأنّه كائن نورانىّ عظيم أرسله الله على رأس المائة عام ؛ ليجدِّد الإسلام ويحيى موات القلوب!!!

ورحت أكرِّر على نفسى السؤال عن الشخص الذى افتتنت به وكان السبب الأولىّ لانضوائى فى صفّ الجماعة فغدا السبب الأهم لخروجى منها وتحرّرى :

– هل "إسلام" مخلص فى دعوته وإيمانه بها أم أنَّه انتهازىّ عبقرىّ يدرك متى يرتقى السفينة ويضرب فى البحر بمجدافين ومتى يكون أول الفارّين؟؟

كلما شهدته يصلى قريبًا من نافذته المطلة على الطريق فى حجرته المضاءة ؛ ليعرف كل من شهده حرصه على قيام الليل....وحين أسرّ "لمهدى" ضاحكًا أنَّ له فى كل طريق نظرة أولى يُحملِق فيها كيف شاء؛ لينتقى له عروسًا بعد أن شارف الليسانس على الانتهاء، فردّ "مهدى" فى خبث الصبوة ودعابات الشباب :

– ولكن مامدى نظرتك وكم من الوقت تستغرق فيها ياعريس؟

هل هو مُراءٍ كبير أم أنَّه خالص النية والضمير فى دعوته وجهاده؟؟

والشيخ "جبير" الذى تحسبه ابنًا "للبنّا" فى روحانيته وإخلاصه يسبّ بأقذع السباب بين إخوانه، بينما تتمايل الأبدان خلفه فى انتشاء وخشوع وهو يرتِّل فى صلاة القيام فى مسجد العزبة القصىّ!! وحين تخلّى عنه قناع السماحة والصبر فبدا لسانه الفظّ يقذع الناس قذعًا سخيفًا : يؤنبهم كتلاميذ فى معيته وإخوان فى جماعته حين تكاثر اللغط فى أحد المساجد وعلتِ الأصوات والضجيج من مدعوى عقْد قرآن قُبيل أن يبدأ حديثًا يفرضه على الحضور فرضًا ؛ فلم يكترِث له أكثرهم ما أهاج غروره وأخذ يحملِق فى الجالسين بغيظٍ شزرًا وهو يصرخ :

- لسنا فى سويقة ولكنكم جلبتم السوق داخل بيت الله.

لم يُقِم لمن يكبره سنًا ومقامًا وربما علمًا وزنًا وكان المقام مقام تلبية لعقد قرآن يُسمح فيه بتبادل التحية وعبارات الودّ والتهانى وجو فيه مرح واستبشار!!

هاهو "جبير" يعتزل الجماعة بأسرها ؛ ليقيم فى مدينة طنطا بجوار فرع شركة ومصانع (الشهيد) التى غدا يترأسها، ويعتزل المسجد القروىّ وبيته وبناتهِ ؛ لينعم بأحضانٍ دافئة لعروسٍ شابة - حسب شرع الله- تُنجِب له الولد، عقب إقامته لعقيقةٍ كبرى لصغرى بناته فى جمعٍ إخوانىّ غفير، ما دفعنى للتساؤل :

- ماذا لو كان تحت إمرة "جبير" هذا فرق مُدرَّبة على العمل السرىّ ونظام خاصّ كمجموعة "السندى"؟؟ هل كانت تنطلِق من مسدساتهم رصاصات رحمة تقتل أعداء الدين؟ كرئيس الوزراء الذى رجمه سابقًا بلسانه السليط وعدّه خنزيرًا نجسًا يستأهِل من الله اللعنات!!

تملّكت القشعريرة فؤادى. أوَ يكون الجهاد بيننا فينا فنصوِّب رصاصاتنا فى صدورنا حين نختلف أو نتضاغن ونتعارك ونرى بعضنا بعضًا فى ضلال مبين ؛ فننشر الكراهية والدم بديلاً عن المودَّة والحب والتسامح!! وانهارت أفكارٌ وشخوص سبق وأنْ أحطتها بهالة من القدسية والتكريم.

* * *

حتى وحيد صديق العمر تعالى بقرنيه ورفض دعوتى الانضمام لجماعة القرية وقال:

- أنا لا أقبل أنْ يكون إنسان مسئولاً عنى، يابنى أنا انفع أبقى مسئول عن جماعتك كلها (فى صلف وعناد من يعاند القدر ونفسه والأيام) ما انتا عارف انى مسئول عن أمى واخواتى وتعليمى وكتبى....

وبدت عضويتى فى الجماعة حاجزًا هشًّا منعنى عنه لفترة، سرعان ما تلاشى، وكذا انشغاله طيلة الصيف بالعمل فى القاهرة تارة صبى فرّان وتارّة صبى قهوجى لا يخجل من ذلك ولا يجد غضاضة فى إطلاعى على كل ما دار فى غيبته الطويلة.. عمله... مغامراته... "بوحة".. و"سُندس".. وحبه الأثير لابنة عمه "منى" المخطوبة لغيره والتى لا يُنسيه حبه لها مغامراته وشقاءه، كنت أنتظر عودته الشهرية ؛ ليقصّ علىّ رواياته التى ربما يبالغ فيها وأتوق إلى سماعها منه بطريقته

التى تحوى كثيرًا من المبالغة وأنا أتخيل نفسى مكانه فى علاقاته وجرأته على اقتحام قلوب العذارى وأحيانًا ملامستهنّ...

يااااااااااه كيف يكون الشعور بمسّ أجسادهنّ لعلهنّ ناعماتٌ كأوراق زهر الياسمين.

- والبنت بتسيبك تبوسها كده عادى وتغمض عينيها ازاى يا"وحيد"؟

- وماذا عن ملامسة التفاحتين اللتين تفوقان فى طراوتهما قطعة الإسفنج المخملية الرائعة (فى بلاهة كأنّنى طفل يزدرد ريقه حين يلوَّح له بقطعة شيكولاته...لكننى لم أذقها أبدًا ولا حتى زارت حلاوة نكهتها طرف لسانى).

- هههههه هتستنى طول عمرك غلبان كفاية تسمع كلمة باحبك بالدنيا وما فيها.

كنت أعجب "لوحيد" وحواديته التى لا تنتهى كأنَّه يغترف من نهر الحكايات والحب ولا أستطيع أنْ أكونه أهيم مع خلجات عينه وأنفاسه كأنّها تكشف لي عن سرّ العشق والوله، وأتساءل عن السرّ الذى يُبيح لقلبه العليل أنْ يسع كلّ هذا الحب والطموح وأنَّى لجسده المهزول أنْ تستبدّ به كل هذه الرغبات؟ وأنَّى لنفسه المكبَّلة بقيد الفقر كل هذا الدأب والأمل فى استشراف مستقبل أفضل؟ بل أنّى له المستقبل وقلبه لا يكاد يحتمل سنوات عمره ؛ فيترنّح نحو المغيب كلما

مرّ منها قطعة... فهل تكفى نبضاته المتأرجحة الضعيفة كل هذا الطموح واللهاث والحب كمن يلاحق عمره ويصرّ على أنْ ينجز فيه رغم إدراكه قِصره وإنْ كان لا يُصرّح بهذا ولا يحب أن يخوض فيه كأنَّه لا شيء وأنَّ تجاهله له سوف يمحوه من سجل حياته ؛ فيتناسى أنّ قلبه المعتلّ حتمًا سيتوقّف عن الضجيج فى لحظةٍ مفاجئة فأراد أنْ يجتثّ من الدنيا كلّ شيء سريعًا وينهل من كئوسها المترعة قبل أن يتوقّف ريقه عن الجريان فى حلْقه وتنقطع أنفاسه إلى الأبد.....

"وحيد" أجسر منى يعمل فى إجازة الصيف ؛ ليعول نفسه ويكفى أمه التى تتكسب من بيع الفاكهة والخبز مئونته، ناجح فى دراسته واضحة أهدافه يدرك مراده ويعمل على تحقيقه بدأبٍ وإصرار عنيد كرأسه المتحجرة غير منتظمة الجمجمة كأنَّه مارد جبار لا قزمٌ عليل!!

ربما أنا الذى أحسد "وحيدا" رغم قسوة ظروفه فى كل يوم عناده وبراعته، متحديًا مرضه وفقره فلا يبدو إلاّ قويًا فتيًا ناضجًا مرغوبًا من جاراته وزميلاته، لا يضع العراقيل أمامه بل تحت قدميه ليجتازها وثّابًا يتملكه الزهو والفخار.

كان يُملى علىّ وكأنّه يُحفّظنى كشيخ الكتّاب الذى لا يكُفّ عن التكرار ولا أملّ من الترديد خلفه فلا ينتابه السأم ولا تضربنى الملالة ما سأقوله "لنجاة" طالبة معهد التمريض التى أعجبتنى وراقت لها نظراتى ؛ فغمرتنى فى أسر عيونها السوداء الفسيحة كأنّها ساحة النهير الصغير أو صحنان من صاج مُلئا بالعسل!!

يسترسل فى الشرح كأستاذ محنَّك لتلميذه المُتأتىء المُتلعثم خائب الرجاء الغير نجيب يصف ويصف كأنّه يُفصِّل مشهدًا قبل أنْ يقع بصفته خبيرٌ بعالم النساء ونزق ودلال الفتيات!

قصة فاشلة من قصصى الأولى كمن يرغب فى الاستشعار بسنى عمره التى غُيِّبت طويلاً بين أعوام من الانطواء والتردد وأعوام أُخرى وسط جماعة التغييب والوهم. كنت أتمنّى الحب ولا أستطيعه أحبّه بذات الشاعر ونفس تهفو للجمال لكنّها كانت تحُول بينى وبين قلبى ؛ فغدا اليوم بلا قيود، ولكن لماذا "نجاة" بذاتها؟؟ ولماذا يختار القلب أيهنّ بذاتها؟ فى عينيها إذعان مشوبٌ بالدلال تتفجّر منهما ينابيع أنوثة طاغية، لم تكبِّل نفسها بتلك القيود القروية البغيضة التى تعدّ الأنفاس وترقب خلجات الأعين وتُنصِّب من شخوصها رقباءَ على غيرهم كأنَّنا جميعًا عيونٌ على ذواتنا.....

- "محمود" إنطوائىّ خدى بالك عليه يا حاجَّه ليطلع موحود ومعقّد خليه يلعب مع العيال.

- "محمود" متكبر علينا ليه يا أم "محمود" دا حتى السلام بتاع ربّنا ما بيقولهوش ماشى باصص فى الأرض ماحدش عاجبه هوه علشان شاطر فى المدرسة مش هيعبّر جيرانه وأهل بلده والاّ أيه؟؟

- "محمود" هيضيع ماشى مع الإخوان ماكان فى حاله من مدرسته لمذاكرته لكتبه

للجامع ايه اللى لمّه على المعفرتين دول؟؟

- "محمود" من ساعة ما فكّر نفسه هيبقى دكتور وعياره فلت قاعد مع البت "نجاة "عينى عينك على المحطة وبيتمشى معاها على الزراعية.

وكأنَّهم يودون لو يتسللون تحت جلدك كداء الجَرَب فلا تتخلّص منْ تطفُّلِهم إلاّ بعد أنْ تُمزِّقه بأظفارك.

كانت "نجاة" مُتفتِّحة بحكم نشأتها القاهرية غزت القرية بالبنطال فى تمرّد واضح على تعاليم الريف الراسخة ونظرة أهله المشوبة بالنقد المُفعمة بالاحتقار لمن تُقيم علاقة علنية مع شاب ولو كانت فى حدود اللياقة والتهذيب.

مجتمع القرية المتحفِّظ المحتشم الذى ينتشر فيه تلاوط الذكران وسط أعواد الذرة وزنا بعض الفاحشات فى موسم الحرّ والحصاد بين قراريط القلقاس وهتك ستر الجيرة والقربى حين تسنح الفرصة بعيدًا عن أعين الرقباء. يتعالى ويهبط ويتأجج حين يشهد قصة حبٍ صبيانية بريئة فى العلن بينما يغضّ السمع والبصر عن مصمصة الأثداء والمفاخذة فى العشش الخرِبة حين يفرش الظلام جناحه الكثيف فوق البيوت والحقول!!

كلّ شىء يجب أن يتمّ فى الخفاء يُبيح الفُحش سِرًا ويلعن الحب العذرىّ إذا طرقه نور الصباح!!

حتى "نجاة" كانت أقوى منّى لم تأبه للغمّازين ولا بسمات الاستهزاء الخبيثة فى عيون العابثين، ربما أسعدهم توقُّع سقوط "محمود"

الرزين الطيّب المترفِّع عنهم فى بئر نزواتهم السحيق كما صوَّرت لهم خيالاتهم..تمنّى استسلامه لشهواته حتى لا يتيه عليهم، حتى إخوانه القدامى شمتوا به :

- ألم نخبركم أنّ عقيدته رخوه ينتابها الدَخَل وإيمانه ضعيف حمدًا لله أنْ تخلّصنا منه ومن شياطينه!!

قضت "نجاة" طفولتها وصباها وبزغت ثمرات أنوثتها فى العاصمة الفسيحة [الترعة البولاقية] ذلك الاسم المركَّب الذى يطلَق على تلك المنطقة الشعبية فى شبرا الحىّ العتيق الذى يزخر بالبَشر والأحداث الضجيج والزحام والأخلاط وكثير من الحرّية والمدنية، قطعة من قلب القاهرة تضم المسلمين والأقباط وكثيرًا من القادمين من أعماق الريف من الشمال والجنوب ؛ فغدت انعكاسًا طيّعًا لثقافات وحضارات وأقاليم مختلفة، القاهرة كما يجب أن تكون (قاهرة الفقراء) لا الشوارع الفسيحة والعمارات الفارهة البناء والمتاجر والمحلات الضخمة، حتى المنازل المُطِلّة على النيل ليست بعنفوان مثيلاتها فى مناطق أخرى تبدو بسيطة بدائية طيبة متواضعة لا متعالية شمَّاء، فالحوارى ضيّقة والمقاهى بدائية على الطراز البلدى يتخلل كل ذلك صوت الطرْق على المعادن فى ورش الحديد والألمونيوم والنحاس وكذا النجارين والسمكرية وفنيو اللحام. وكأنَّها منطقة عمل على الدوام لا تهدأ ولا تنام!!

مُحنَّكة بيد أنَّ قلبها رءوم كأنَّها أمّ أبيها لا ابنته لم تكن غير ذات تجربة بيد أنَّها كانت أوّل اختراقٍ لى لتلك الشرنقة التى طوَّقتنى والهالة

الصلدة التى حوَّطتنى. تنسمّت معها أريج العطر وشذاه الفوّاح ؛ فاستشعرت حلاوة خالدة حين مسَّت راحتى يد أنثى لأوّل مرّة فى حياتى وانسابت كلمة - أحبك - من شفتيها لحنًا شجيًّا هدهد مشاعرى وأشعرنى بكينونتى.....

فى حديقة جميلة تتوسط جزيرة فى نهر الطريق تحتضن أشجارًا كثيرة باسقة وارفة الظلال وكأنّها قطعة من الجنّة وسط ضجيج السيارات المتسارعة على الجانبين، تغطى أرضها خُضرة كثيفة تُبهِج الأعين التى تستريح للون الطبيعة وتنفِر من اللون الرمادىّ والأسود الذى يكتنف الطرقات والنفوس والبيوت. ثمة أكشاك خشبية ومقاعد رخامية أُعدَّت للجلوس، بدا الجوّ صحوًا مشمسًا من أيام الشتاء النقية التى تضفى عليها الشمس صباحًا ألقًا وجاذبية ودِفئًا وكأنّ ضوء الشمس الغامر يفرض سطوته وحضوره الطاغى وكأنّه يقول: أنا الحب فى صورته الجلية معلنٌ غير مخفىّ.....هذا هو الحبّ أو الوهم بالحب فى تجربته الأولى يسرى كالنور فوق الحشائش الخضراء ونسيم الضحى الذى ينعكس على الوجوه ؛فيصيبها بعض من برودته اللطيفة فى نهار الشتاء المُشْمس.

اخترنا كُشكًا خشبيًا هادئًا للجلوس عبارة عن أريكة خشبية تُشكَّل دائرة غير مكتملة الاستدارة لها قوائم خشبية معروشة بسقيفة من خشب متقاطع يغطى الأريكة شبه المستديرة تتخلل الشمس أعواد المظلة الخشبية وتتسرب خلالها ؛ فتبدو كخطوط عريضة تتخللها

الظلال.غير أنّ أشعتها حانية لم تكن لتؤذِ فى هذا التوقيت من اليوم : أحبك. لحن يشدو متناغمًا مع الزمان والمكان...آه لو طال العمر ثم توقَّف عند هذه اللحظات ولم يتعدَّاها إلى غيرها، حين التقت شفاهنا وامتصصت رحيق الحب من ثغرها الوضيء وشفتيها المكتنزتين منحتنى القبلة اتفاقًا حين دفقت من فيها عبارات الحب واستسلمتْ لها حين خفرتْ فى عُذرية وخجل فأسبلتْ نظرتها الخاضعة على أديم الحشائش الخضراء..

لا زلت مكبّلاً لم أبرأ بعد أخشى تهامسهم وتغابنهم وأستشعر الحرج إنْ رآنى أحدهم فى موضع اتهام وشبهة. لازلت جبانًا أخشى تناثر اللغط من حولى، مجتمع ضيّق يردّد صدى الصوت ربما الأنفاس فى أرجائها لا يكتم فيه سرّ ولا يخفى فيه مناجاة.

بعضهم لا يجد (المشّ والبتاو)! لكنّه لم يُحرَم أظفارًا ينهش بها لحم من يُحسِن ومن لا يُحسِن إليه، ولم يعدِم قواطِع وأنيابًا يُمزِّق بها عرض أخيه،ولسان حادّ يلوك به شرف ذويه يزيد فوق النميمة كلمات ويفتعل من محض خياله الأهوال ؛ ليصنع مادة دسمة للتشهير والتندّر المشوب بلكنة تحسُّرٍ كاذبة، كمن ينفخ فى النار ويصنع من الشرر حريقًا هائلاً ثم يعجب كيف اشتدّ الحريق!!

تخطر فى ثقة وتحدٍّ : وجهها داكن السمرة يعكس لونه خمارها (المُوف) بينما عيناها الفسيحتان الرائقتان تفيضان سحرًا وحزنًا، كل ما فيها جذبنى غلب سمتها الريفىّ الجديد الذى تلبّست به نصفها

القاهرىّ فتخلّت عن البنطال وضفيرة ذيل الحصان التى كانت تتهادى فى مؤخر رأسها.كأنَّها فرسة جامحة بعد أن جذبها منها طالب أهوج يتلبّسه فلاح همجىّ وكأنّه جذب حبل ناقوس الجهل والتخلّف ؛ ليجعلها تتخفّى فى رداء يغمرها فاستسلمت وانطفأ شموخها وتسربلتْ فيه كأنَّه ستر يقيها الأعين الجائعة لكل شىء واللا شىء، وسورٌ يعصمها من نزق واندفاعات الحمقى عقب أنْ انتابتها حالة نفسية غاية فى السوء...

فشلت كأبيها أنْ تتواءم مع المجتمع الجديد الذى كانت تحِلّ فيه قبلاً كالضيفان وتحسبه المجتمع المثالى الفضيل!!

لماذا عُدّت أيها الموظف البدين أبو البنات؟؟ أحنينًا إلى الجذور فلتغُص حتى أُذنيكَ فى الطين بحثًا عنها؟ ولتتحمّل فى ذلك الانزلاق والاتساخ ومرارة التشفّى والاستهزاء بك وأنت تحاول أنْ تستعيد درس الزراعة الأوّل الذى انمحى من ذاكرتك؛ فبدوت كالمُهرِّج الذى لطّخ ملابسه وهو يحاول زراعة قراريطه التى ورثها بيديه فمُنِى بالفشل وغدا أضحوكة وهو يسقط فى بركة الطين أمام الفلاحين أوان الرىّ؟

هل افتقدت حضن القرية وجوّ العائلة الدفىء؟؟ ما بقى لك من أحبابك القدامى أحد. رحل أبوك وأمك وكثير من الأعمام والأخوال، بقى أولادهم وكثير من الصبيةِ جيل جديد لا يقيم لهذه الأواصر وزنًا،ولا يُقدِّس روابط العائلة ولا الجيرة كما كان آباؤهم.

هجرتَ مكاتب الموظفين الخشبية التى أكسبتك كرشًا ضخمًا، وملفّات مصالحهم المكدَّسة. هاهى أعين الشماتة تلاحقك دون أن تمتد يد العون لك كما كان يُفعل آنفًا ؛فيهتزّ كرشك وينتابك اللهاث وتغرق فى بحر تعرُّقك بينما يهتف صوت بلهجة بغيضة فى لكنة ريفية مميّزة :

- وجاى عليك من الشقى ده بأيه ياخال دا انتا صاحب وَلايه مِسيرهم يتجوزوا سيب الأرض للى يقدر على خدمتها باقولك بعها والا اشاركك فيها بالزرعة وكله يُرزق.

قتلوه مكرًا بدلاً من أنْ يُعينوه ولو بالنُصح وقتلوه مرةً أقسى وهم يلوكون عِرض بناته حبيباته ورثته فى حياة عينه دون خشية من ضمير أو ربٍ يُحاسِب!!

وقتلوه وهم يُكيلون له اللوم حين جذب الولد "حسام" "نجاة" من ضفيرتها وهى تركب القطار الصباحىّ فى طريقها للمدرسة الثانوية للبنات فسقطت على الأرض. كان يناديها بالدكتورة وأمنية عينه أنْ يراها فى البالطو الأبيض تُقلِّد عُنقها سمَّاعة الطبيب. سقطت وسقطت أحلامها واستشرافها المستقبل. لم ترِد أن تضيّع أمل أبيها كاملاً فالتحقت بكلية التمريض :

- وبرضه يابابا هتشوفنى فى البالطو الأبيض والسماعة وهبقى رئيسة الحكيمات. يضحك "عبد الودود" ؛ فيهتز لغداه فلم يكن يرجو لبناته إلاّ السعادة والتى ربما افتعلنها رغبة فى إرضائِه، ليحتضنها فى حنوٍّ بالغ وتترقرق عيناه بالدموع ؛ فتربت على كتفيه تغالب دمعها وهى تقول :

- بس بقى "يا دودو" انتا عارف انك أغلى حاجه عندنا.

شعر "عبد الودود" بالإخفاق وخيبة الرجاء، انغرست قدماه فى طين قريته فلا خلاص كما انزلق آنفًا فى طين حقله الصغير، ليته انزلق وحده ولم يصحب بناته فيعانين معه.هو عاد لأصله الذى تبدَّل وتغيَّر. لم يعد للرجولة فيه مكان بعد أنْ غدا الرجال فيه صبيانًا لا يكترثون لحرمة ولا يأبهون فيه لعصبية أو قربى ؛ فليتحمَّل عاقبة اختياره، وبناته ما ذنبهن أنْ يُعانين صراعًا مرَّا بين ثوابت وتقاليد تفتحت عليها أعينهنّ وسط جوّ القاهرة الشعبى وبين تقاليد وثوابت أخرى يغلب عليها المواربة والتخفّى،الانغماس فى الرذيلة فى الخفاء وإطلاق العنان للنزوات تحت أجنحة الستر والظلام ثم التظاهر بكل فضيلة؟؟ لعلّ معاناة "نجاة" و"وجيدة" أختها التى تصغرها بعامين كانت أكبر من "شيرين" الصغيرة البلهاء التى لم تستشعر البون بين مجتمعين أحدهما يموج بالضجّة والتلوّث والزحام والآخر بالهدوء والخبث والأحقاد.

النيل البهىّ الفسيح الذى يموج بالأنوار والنهير الصغير أو الترعة التى تنقنق حولها الضفادع بينما تعزف الخنافس بصريرها المزعج لحن الليل الأبدىّ هناك.....

تمرَّدت "نجاة" على اسمها القديم "ست أبوها" حين أصرَّ أبوها على تسميتها باسم أخته الوحيدة وتسمية الثانية باسم أمّه "وجيدة"، لم تجد "وجيدة" غضاضة فى اسمها بينما سعت "نجاة" طيلة عمرها لاستبدال "ست أبوها" " نجاة" كما أحبّت دائمًا أن ينادونها ربَّما حبًّا فى

"نجاة الصغيرة" ذات الصوت الحنون وسعت لذلك فى السجل المدنىّ والمحكمة حتى غيَّرته!!

قدَرك يا "نجاة" أنْ تصبحى أولى تجارب "محمود"، ربما أوّل طارق يطرق قلبه، قلبه الجبان الذى يخشى كل ما يدور حوله حتى النجوم والأفلاك،ذلك القروىّ الغِرّ الذى انحدر من بيئةٍ اعتادت أن تدفن مشاعرها فى النهار ؛ لتحييها فى الظلام وراء ستُر الليل وبين أعواد الذرة الطويلة..

ولكن كيف لى أنْ أواجههم أو أتحمَّل نقدهم، لا أتخيل أن أغدو قصّة يلوكها البعض فى ليلة سمر صيفية حول راكية النار (حفرة صغيرة فى الأرض ترصّ فيها قوالح الذرة واقفة على شكل هرم تتأجّج منها نارٌ صفراء وزرقاء يعلو دخانها بينما يتطاير منها الشرر ثم تصفو ؛لتغدو القوالح جمرٌ أحمر صافٍ يُنضج الشاى فى البرّاد الصاج ويشوى فوقه كيزان الذرة) تخيَّل سيرته تطقطق ككوز الذرة أو تئِزّ كالماء فى الإبريق الصاج بينما تنطلق ضحكتهم الماجنة فى حلْقتهم البغيضة.

أو يتهامس إخوانى فى الجماعة سابقًا سيرة صاحبهم الذى تمرَّد عليهم وانساق فى غرامياتٍ مُطلِقًا العنان لهواه يُسيّره ويتحكَّم فيه، لا أتحمَّل تبِعة هواى ولم أكن صلدًا "كوحيد" أو واثقًا من ذاتى مثلهم، أخشى القيل والقال فما بالى بمجابهة غيرى؟؟

رأيتها فى حلمٍ تعتصره الذكريات جرَّدها الشيطان فتبدّت شهية أثارتنى ما إنْ هممت بها حتى استحالت جسدًا صغيرًا فى حجم

مساخيط الفراعين وأيقونات الرهبان بوجه تكتنفه الأحزان أحجمتُ وجلاً تقودنى ساقاى للريح، هل كانت إرهاصة للنهاية الحتمية لهذه العلاقة الومضة العابرة؟؟

فى لقاء آخر بيننا كنتُ كالمرتاب الذى يتلفّت يمنةً ويسرةً يخشى أنْ يراه أحد ؛فتصيبه سهام نظراتهم الفجَّة المتطفِّلة فى تبجُّح، كان الطريق الزراعىّ المرصوف المتماوج بين الحقول غير آهِلٍ بالمارّة هيأ الشتاء للطريق السكون، فليل القرية الشتوىّ يبدأ من الغروب ؛فينقطع المارّة عن الطريق، ويلجأ الفلاحون لجحورهم يستدفئون بالعشاء ونار المنقد وظهر فرن الخبيز الذى يستلقون عليه بعد أنْ تخمد ناره فيظلّ محتفظًا بسخونته ودِفئه، ينزع عنه ضوء النهار الذى غدا يتقهقر أمام زحف الظلام وعتمة الغروب، ربما تبدَّد الضوء من تلقاء نفسه لعلّه خشى المواجهة جبُن هو الآخر عن مواجهة الظُلمة والمجهول. بدت أنفاسى لاهثة يزعجنى حفيف أوراق الأشجار الذى تناثر على جنبات الطريق وكأنّى صرت أخشاها، بدأ يفترش الضوء الأصفر المنبعث من أعمدة الإنارة المصطفّة على الجانبين كأشخاص يرمقون لقاءنا البرىء بعين الترقُّب والريبة الأسفلت والطريق، غمر ضوء الأعمدة النفس بشىء من التوتّر والقلق كأنَّه يبعث فيها ذبولها وفى الأرجاء لون المرض والخوف حين يُبدى كآبة وخفوتًا...

تزيد من قتامة المشهد الخنافس بصريرها المزعج والضفادع التى تقض بنقيقها السكون المنبعث من المصرف الموازى للأسفلت.....

قليلٌ من كلمات الحب وكثير من الوجل والتردّد الذى غدا كالحمّى التى انتقلت عدواها إليها فانتهى اللقاء، وكأنّه لم يبدأ قط، فقط أُمعن فى وخز بالون علاقتنا قبل أن يمتلىء هواءً بمخرز كبير، فانتهت قصة لّما تبدأ!!

كيف تخشى المواجهة وترغب بالحب؟؟ تريد العسل ولا تطيق لسعات الزنابير؟

ترجو أن تهنأ بنظرة عينيها دون أنْ يرقُبك أحد وكأنَّك تودّ لو تُضْرب عليكما خيمة من ستر تدرأ عنكما الأعين المُتلصِّصة، نوع جديد من الحب الخفىّ الذى يخنقه النور وتسحقه أعين الرقباء وكأنَّه حب محرّم وجريمة كبرى.....

– اسبقينى للقطار لا أريد أنْ يرانا أحدٌ معًا.

فى دهشةً زادت من التماع بريق الحزن فى عينيها :

– ماذا فى ذلك؟؟؟

– يكفى ما قالوه عنّى وعنكِ.

فى استنكار غلَّفته حديثها :

– قل ما قالوه عنك يا طبيب المستقبل...طالبة التمريض المصراوية المستهترة تلوف على طالب الطب الخام عديم التجربة، اللى هوه أصغر منها...أنت لا تهتم إلاّ لشأنك.

– اعذرينى فأنا أخشى على كلينا الألسنة حادّة لا ترحم .. يكفى أنَّهم أوصلوا حكايتنا لأسرتى.

تلتفت فى نظرة استهجانٍ وكأنَّ جملةً ما فى حديثى استنكرتها :

– حكاية أيه ليس بيننا حكاية بعد، كل ماهنالك إعجابٌ مُتبادل واستلطاف.

– تخيرى عربة مظلمة، أخشى أن يرانا من يعرفنا يكفينا ما حاكوه عنّا، لم أعد أتحمّل النقد ولا الأعين اللاذعة.

تضحك فى حزن منْ قَهَرَه شعورٌ مؤلم أوان سعادته؛ فغلبهُ خيبة الرجاء:

– ظننتك أقوى من ذلك.

وانصرفتْ مُسرِعة الخُطى لا تلوى على شىء.

كانت عربة القطار الأخيرة هادئةً مظلمة سرعان ما اكتظّت بالناس وأُنيرت مصابيحها فغدت مسرحًا ينتظر عرضًا لمن يرغب، على غير عادة قطارات الأقاليم الهادئة المُظلمة فى المساء. وكأنَّ مسًّا من جانّ طرقنى أجوس العربة بعينى وأتطاول بعنقى أتأكد من خلوّها ممن يعرفنا ؛ فيرانا متجاورين، تفكير صبيانى أنَّ رؤيتنا معًا فى وسيلة مواصلات عامّة جُرم لا يُغْتفر كمنْ يخشى الناس وظنَّهم به أكثر من أى شىء عداه، داء الوسواس الذى جعلنى أضع لنظرة مجتمعى الضيّق ألف اعتبار ولو على حساب حبّى وسعادتى، تبدَّى لى من على البُعد فى

آخر العربة شبح صديقٍ لوالدى فانتفضّت كالملدوغ مذعورًا فى رداء من الجبن والخسّة أهرب كطفل غرير لا ألوى على شىء فى مشهد صبيانىّ لم ينمح مِنْ ذهنى أتندر عليه وآسف له كلما طرق ذاكرتى، بينما هى فى تعجُّب :

- فيه أيه؟؟ أيه اللى حصل؟؟

وسقطتُ من عينىّ ذاتى قبل أنْ أسقُط منْ عينيها إلى الأبد، لم تنفع الأعذار ولم ألقَها فى طريقٍ عابر إلا لِمامًا كالغرباء دون تحية بعد أنْ تلبّسها رداء من الندم فوق مُسوح الأحزان القديمة التى استغرقت فيها!!

لعلّها علاقة لم تمتلك مقومات النجاح من البداية لقَّننى فيها "وحيد" دروسه الأولى فأثبتُّ فشلى عن جدارة، أردت أنْ أحيا فيها الحب وأُثبت أنّى مرغوب وفقط وفى أوّل اختبار عندما أُتيحت لى الفرصة تنازلت عنها طواعية، صبىّ يعبث بسكّين الحب فأدمى غيره أو كاد دون قصد بعد أنْ أدمى فؤاده!

سيطر الخريف على الأجواء التى تخلع مسوح الصيف رطوبته وعرقه وملالته يبسط رداءً كآبيًا كأنما ينزع عن الأشجار أرديتها فتقف خجِلة عارية تتوارى خِزيًا كأنثى مُجرَّدة، ويلوح فى الأجواء نسمات باردة كأنها تمهد للقادم الغائب بسطوته وبرودته التى تذعن لها الرقاب وترتعش الأنامل فى بواكير الصباح حين تتخبط الأكُفّ باحثة عن الدثار الذى يحمى الجلد المبرود من قشعريرته ونهش صقيعه.

بينما يستعد العام الدراسىّ للمثول فى واقع الشوارع والبيوت والمحلات، فتخلو من ضجيج الأطفال وصخب الصبيان ويبدو كل شىء ساكنًا إلا باحات المدارس والفصول تضجّ فى الصباح أنشوداتها المميزة وطبلها المدوّى وصياح ولغط الصغار الذى يوقظ فيها الحياة التى توقفت يبعثها من مماتها، والأنفاس التى سكنت معظم فصل الصيف تعود ؛ لتتردد من جديد، بينما تكتظّ الشوارع وتزدحم المواصلات فى الصباح وبعد الظهيرة أوان العودة حين تصطبغ الأجسام الصغيرة بالكاكى والكافيه وألوان المدارس الموحّدة الزىّ كالبرتقالى والكُحلىّ والأحمر والأصفر، وحين يُخيم السكون على الأرجاء مع العتمة التى تظلل الأرض مبكرًا ؛فيصبح النهار غير ذى جدوى لِقصره المُتناهى، والليل طويل سرمدىّ لا ينتهى تسكن الشوارع وتهجع البيوت ويسكن قاطنوها بسكون أبنائهم من الطلاب الذين يستذكرون دروسهم ؛ فينعم الطريق بالهدوء والكآبة التى تكتنفها زخّات مطيرة وعواصف رعدية وصقيع وهواء بارد مؤذنًا بقدوم الشتاء الذى يكتنف الجدران والبيوت والنفوس التى تتوارى تحت الأغطية الكثيفة ؛ لتلوذ بالنوم والدفء. لا تزال نسمات الخريف تحمل إلى ذاتى الاكتئاب كأنّنى طالب انتهت فترة الاستجمام الصيفىّ والراحة لديه وبدأ عام دراسىّ جديد شاقّ لتُمنى فترات استراق اللهو وتبديد الوقت بتأنيب النفس والضمير وغطرسة ولاة الأمور.

* * *

فى صحبة القطار الذى يشق صوته الأفق مع جلبة ودوىّ تهتز له بيوت القرية التى تولّى أدبارها لشريط السكة الحديدية والكوبرى الخشبى مُمعِنة فى إنزوائها عن كل مظاهر المدنية أوما يُحمل من ريحها إليها،وكأنها تلفظ نفحات التمدُّن القادمة إليها من الشمال نحو (طنطا) وللجنوب نحو العاصمة الغامرة الفسيحة وما فيها من خفىّ الألطاف، ربما لم تكن ترفضها وكانت متلفحة بعباءة الخشية والارتعاب من المجهول ولو كان محاطًا بالحداثة مشمولاً بالنور وإلاّ لماذا ترسل لبراح المدنية والجامعة خيرة أبنائها من النابهين الذين شقّوا طريقهم فى المدارس الإلزامية دون أن يكلفوا آباءهم عناء الاكتراث لهم أو متابعتهم؟ حظوا بقدر من الذكاء جعلهم رغم سوء الأحوال وضيق أفق وذات يد الأهل وجهلهم يستأهلون هذا التميّز.....

يصحبنى "إسماعيل حوّاش" الطالب الأزهرىّ الذى لايكاد يبرح الكتاب يده حتى وهو يتبع حماره مِن وإلى الحقل لا يتقاعس عن معاونة أبيه ومراجعة دروسه فى غدّوه ورواحه وسط الحقول وضجيج المارة

وإرهاق العمل المُضنى، يرضى بالنذر اليسير من الطعام المش والعسل الأسود، يوقن أنَّ أسباب نجاتهِ من حياة قاسية كهذه بين دفتى كتبه ودروسه يقول لجلسائه إذا تمادوا فى نقده: (إذا مِت فألحفونى بالكتاب)، غدا جليسى فى قطار الخامسة صباحًا حين نخرج إليه فى برد الشتاء القارس والعتمة التى ينهشها ضوء الفجر المتأرجِح بين جناحى الضباب الكثيف والشبّورة المُتكثفة على أوراق الأشجار نقاط ثلجية تنصبّ فوق الرءوس تكلل الهامات..

سعاة وعمّال نظافة فى مرافق القاهرة والمطاحن وموظفين صغار وأفراد أمن الشركات الخاصة وبائعات محلات وسط البلد والطلبة الذين لم يلتحقوا بسكن جامعىّ أو فى طور التقدّم للقبول فيه، أنماط من البشر لم أكن ألقاها رغم كوننا أبناء قرية واحدة فهم يغادرون قبيل الشروق ويئوبون فى عتمة المساء وقد أنهكوا عملاً وترحالاً لا يشهدون شمس النهار إلا فى القاهرة أو هى مُحرَّمة عليهم فى قريتهم عدا يوم الجمعة ؛فيغدون كالغريب الآيب بعد طول غياب، يقضون ما يزيد عن الست ساعات فى هذا القطار اللعين جيئة وذهابًا.

لا يتبرمون ولا تند عنهم شكوى فقدْ فَقَد الصبر معانيه أمام جلد هؤلاء فى تحمّلهم المشقة الزائدة من أجل قروش زهيدة وتكييفهم أوضاعهم على هذا النحو وكأنهم مقيّضون لتعبيد شوارع القاهرة ؛ ليتبختر فيها غيرهم!!

القطار ذاته درب من المعاناة بدائىّ خالٍ من أى مظهر آدمى نوافذه مهشمة الزجاج تندفع منها بقوة موجات من الصقيع فى عكس اتجاه

سيره، لا توجد به دورات مياه يرجى استعمالها فقط حجرات ضيقة دون مياه تفوح منها روائح مُقزِّزة وبقايا مخلَّفات آدميه سائلة ولزجة ربما يضطر أحدهم لاستقلالها حين لا يغدو أمامه خيارٌ آخر حين يصير القطار كعلبة سردين يتضاغط فيه الجميع ويكتظون جثامين مكدَّسة يعصر بعضها بعضًا ؛فتلوذ النساء بالفراغ الضيق بين المقاعد المتقابلة ويؤدى ذلك لاحتكاك مباشر مع ركب وأجساد الجالسين ولكنه أهون بكثير من وقوع إحداهن وسط الزحام حين يحظى كل واقف منها بقطعة وقد يتفرّق لحمها بين الوقوف جميعًا لا تدرى بالتحديد من مدّ إليها يدًا أو قبض قبضة أو جعلها بينه مقبلةً أومدبرةً وبين الكتل البشرية التى تغدو كجدار أصمّ ليس فيه نجدة تتوه فى صخبه أصوات الاستغاثة أو اللوم والتقريع وربما ضرب الشباشب وتبادل الاتهامات والسباب حين يشرع أحدهم فى مدّ نخلته المنتصبه بين دفتى مؤخرة يبثها كبته وشبقه!! فتنأى بها بين المقاعد مستندة بظهرها تجاه النافذة التى غالبًا ماتكون مهشمة الزجاج أو غير قابلة للغلق بفعل القِدم والصدأ تدفع الريح الباردة فى جسدها دفعًا كخز مسامير من صقيعٍ فى الصباح.

كان القطار ملحمة مأساوية ورحلة معاناة تبدأ من طنطا قُبيل الفجر ربَّما فى الرابعة صباحًا ؛ لتصل القاهرة فى الثامنة تقريبًا كصندوق من حديد يزداد تكدسًا باللحم البشرىّ فوق حدّ الامتلاء كلَّما سار حتى يقىء ما امتلأ به جوفه وفاض من نوافذه وأبوابه وبين عرباته

وعلى جوانب قاطرته الجرّارة فى العاصمة الكبيرة التى تتوه فى فساحتها الكتل البشرية كما يتوه الماء العذب وسط موج البحر الهادر عند اللسان، والأسعد حظًا هو منْ استقلّه فى بداية مساره قبل أنْ يعُجّ بالركّاب ؛فتتاح لهم فرصة اختيار الكراسى الأميز البعيدة عن تيارات الهواء المتدفقة من الأبواب والنوافذ المكسورة ومكامن أخرى دفيئة علَّمتهم التجربة كيف ينتقونها كالأرفف الخشبية المُعدَّة للحقائب والملتصقة بأعلى الحائط الداخلى بطول القطار يتمددون عليها يكملون ما نقص من ساعات نومهم ويقتلون الوقت الطويل لساعات السفر المضنى ومنهم من يلف رأسه كمومياء بشاله أو كوفيته ويلقى برأسه مستندًا على جدار العربة ليغط بعدها فى نوم عميق لا يفيق منه سوى على أعتاب القاهرة، ربما تجنبهم الكمسارية (محصلو التذاكر) فلم يقلقوا منامهم فهم رفقاء طريق طويل لسنوات ألفوهم كما ألفوا زحام وصخب القطار الذى لا يُطاق وأيقنوا أنهم من ذوى اشتراكات الركوب السنوية وإن لم يروها أو يمعنوا فيها النظر فهم من ذات الطبقة التى يدركون كمّ معاناتهم بحكم انتمائهم لها!!

وقد ابتكر بعضهم وسائل للراحة حين لا يصادفون مقعدًا خاويًا حتى لا يضطرون لقطع الطريق الطويل فى قلب القطار المتأرجح وقوفًا ؛فتستجيب له الأجساد تماوجًا وتدافعًا ومقاومة للسقوط بفعل خاصية القصور الذاتى ماجعلهم يصنعون مقاعد بسيطة سهلة الحمل تُطوى وتفتح مثل كراسى الشاطىء الصغيرة تكاد تكفى مقعدة أحدهم

الاستقرار فوقها. شيء خير من لا شيء ومن ذاق الوقوف الطويل بالساعات بعد عناء يوم عمل شاقّ لا يتحرّج من أى تصرُّف يمنحه ولو قدرًا ضئيلاً من الراحة! مجتمع يوميّ شاقّ فُرِض عليهم فرضًا حتى صار لا يتجزأ من حياتهم وطقس وجب عليهم أنْ يألفوه ويتآلفوا معه،

ناهيك عن الشراذم الذين تجردوا من الأخلاق وتباهوا بالتبجح والغوغائية والجرأة المشبوهة الذين يكوِّنون مجموعة منَ البلطجية سمْتهم الفُحش والمجاهرة بالتفاحش واستفزاز الآمنين ومِنْ ماذا يرتدعون؟ فلا شرطة فى قطار الفقراء ولا سبب قوى يدفع المساكين للتعرض للإهانة والضرب أو الإصابة بسنجة أو مطواة فيلوذون بالخنوع والاستسلام والتغاضى عن هذا الاستفزاز؛ ليضمنوا السلامة من الأذى مبدأ (دول عيال صيع وانا مالى ياعم يكش تولع) وحين يَشُبّ الحريق وتشتعل المعركة يغوص الخاضعون المتسربِلون فى ذِلّتهم بأسفل المقاعد وأرضية القطار نجاة من زجاجة طائشة ومطواة تبحث عن لحم تنغرس فيه وهم من العمال البسطاء وأفراد أمن فى شركات خاصة سوّلت نفوس بعضهم لهم تنصيبهم بلطجية وفتوات مُتنفسًا لضغوط حياتهم وجدوا فى ذلك سلواهم وكأنّ توالى الضغط أدّى لانفجارهم فهم فى النهاية حطب لبناء المدنية البغيض يغسلون بلاط العاصمة ويكنسون طرقاتها ويحرسون مداخل الأبنية الضخمة أو يشيّدونها فيها.

يحملون على عواتقهم رملها وخرسانتها هم قناطر يعبر فوقها الكبار وأصحاب الأعمال ورءوس الأموال، ينتقمون لأنفسهم من

أنفسهم نفس طبقة المساكين الذين يرافقونهم وينتمون لهم،كالجائع الذى لا يجد ما يطفىء به نهم جوعه سوى تمزيق لحمه واستساغته مادرى أنه ينزف دمًا وأنه لم يجد غير ذاته يضطهدها ردًا على اضطهاد الدنيا له بأسرها. ما أثار تحفُّظى واستيائى قدر ما أثار شفقتى لم يعجبنى لكن لم يكن لدى بُدّ من أداء بعض فروضه والخضوع لقانونه ريثما يتم قبولى بالسكن الجامعىّ. اكتسبت قليلاً من خبرات انتقاء المقعد المناسب وحاولت قتل وقته الطويل بالنوم كالشيخ "الحواش" الذى كان يغطّ غطيطًا مزعجًا كأنّه مستلقٍ فى بحراية (مايجاور فرن الخبيز) قاعة الفرن فى داره فلم أُفلِح.

أدركت بعدها استحالة أنْ يطوف بخلدى النوم فى أية وسيلة مواصلات مهما كانت مريحة،حاولت أنْ أُراجِع بعضًا مِنْ دروسى لكنَّ السوق المُكتظ الذى استحاله جوّ القطارالخانق وفتيات المحلات اللاتى اقتحمن ما بين الأرجل لا يكففن عن الرغى وربما الغناء وكأنه فى داخل رأسى يقرع بلغطه وتداخله طبلة أذنى بسندان العشوائية والفقر والتخبط، فتضيق أنفاسى وتختنق رئتاى بأنفاسٍ ودخان سجائر وروائح كريهة منبعثه من أفواه البعض وأدبار آخرين!!

ضقت ذرعًا وكادت قدرتى على التحمُّل تخور لولا الشيخ "حواش" الذى كان يستيقظ أحيانًا ؛ ليجاذبنى أطراف الحديث ونفتعل مناقشات ساخنة نقتل بها الوقت قتلاً معظمها عن فكر جماعة القرية من منظور أزهرىّ ورأيه الشخصى فيهم والذى لا يعدو كونهم مجموعة

من التائهين الباحثين عن الحقيقة وأنَّ المستفيد الأكبر هو الزعماء فى القاهرة، وحين يشرع مصحفه ويبدأ التلاوة بصوت عذب رقيق ؛فيُنصت له مُعظم منْ حوله بما فيهم أنا، أو يتلو ألفية ابن مالك مُتغنيًا بها كأُنشودة جميلة ثم يُفسِّر لى طلاسم مايقول فأعجب لأبياتٍ غريبة تختصر علم النحو اختصارًا ملخّصًا، أو أتفرّس الوجوه والمعالم وعادات الراكبين ووجهٍ مليحٍ لطالبةٍ فى طريقها لكليتها أو وجهٍ مصبوغ بأحمر شفاه وبودرة ورميل لبائعة فى محل ملابس بمنطقة العتبة وكأنّ طيلة مكمنهن فى العاصمة لم تُضف إليهن مع بصمة الشقاء سوى هذا المظهر الخادع الذى يصمهن بالانفلات والتبذُّل:

- يقضين يومهن فى مصر دون رقيب بعيدًا عن أعين ذويهن!

- دول شقيانين ربنا يسهل لعباده.

- شقيانين أيه والنبى انتا اللى طيب.

شهرٌ ومايزيد فى معاناة السفر والترحال إلى أنْ قُيِلَتْ أوراقى فى المدينة الجامعية وكأنها تلقفتنى بين أجنحتها ؛ لتنقذنى منْ وَهن ومعاناة السفر اليومىّ الشاق، وانضمّ الشيخ "إسماعيل" لمدينة الطلبة بالدرّاسة مجاورًا لحى "الحُسين" وكليّة (الدعوة الإسلامية) التى انخرط بين صفوفها، لكن بعد وهلة بدا لى أنّ نار قطار الصباح اللعين أَخفّ وطأة من جنّة السكن الطلابى والاحتكاك بأنواع وأصناف من البشر احتكاكًا حياتيًا مباشرًا فى كافة مناحيها .....

بدت لى دراسة الطب استردادًا لكرامتى وصفعة لكل الأقران الذين شطّوا فى استهانتهم بى أو لم يعبأوا لى، يتملكنى الغرور وأنا أستشعر غيظ بعضهم حتى "وحيد" بدا منه ما ينمّ عن بعض الحقد الذى لم يستسلِم له وعُدنا صديقين لاسيما وقد التحق بكلية الآداب كما تمنّى أن يكون مدرسًا للغة الفرنسية – دروس وخلافه – كان يبدو لى أنَّه يدرس موضع قدمه فى أىّ مكان يضع خطواته،وإنْ فرَّقنا التنسيق هو فى نفس المحافظة وأنا فى "القاهرة" العاصمة الهائمة التى تموج وتهدر موجات متتابعة من الزخم البشرى، تتداخل وتتلاغط تحتدم وتستعر يتعالى الصخب والضجيج والدخان أين كل هذا من قريتنا التى نعرف فيها بعضنا بعضًا بشخصه وسماته البرّ والفاجر الطيب والقبيح الشرير والخيّر؟ وإنْ غدا لكلٍ حدٌّ لا يتجاوزه وكبيرٌ يأخذ منه ويردّ عنه وعليه،عصبيات تكتنفها الطيبة والبداوة والحنق والرعونة لكنه فى النهاية مجتمع محدود له أول وله آخر بداية ونهاية لا "كالقاهرة " محيط فسيح يسع الجميع ويصهرهم فى بوتقته ويضم أخلاط البشر وليس لشاطئه حدّ مرأى ّ ربما نهاية.

كان الجوّ ضُحىً وبدت شمس أكتوبر المُتأهبة لتوسّط السماء تشحذ أشعتها كان الممشى من مبنى الكلية للمشرحة عبارة عن شريط ممتد بعرض مترين مرصوف بقطع البلاط الصغيرة المربعة تصنع قوالب الطوب الأحمر حوله على الجانبين سياجًا كأنَّها شريطٌ يحدّه، يمتد الممشى نحو مائتى متر عبر حديقة جرداء خالية من الخضرة غير بعض أشجار الكافور العالية كأنَّها ندَّابات ينعين الممشى والمبنى والضيوف القابعين في أحواض الفورمالين داخله أو الممددين فوق طاولات رخامية فى بهو الصالة العتيقة عالية السُقُف، لا أعرف لماذا داخلت جسدى قشعريرة وأنا أدلج أولى خطواتى بها لم تكن قشعريرة الخوف فقد تملَّكَنِى الفضول الذى طغى عليه لكنّه شعورٌ آخر يخصّ هيبة الموت وجلاله الذى ألتقى به لأوّل مرة بعد وفاة جدّتى التى لم أطِق النظر لجثمانها المُمَدَّد فوق السرير فى حُجرتها الخاصّة واكتنفنى حُزن لم أكنْ لأبرأ منه لولا قوانين الحياة التى تُبرىء كلّ الأحزان بترياق النسيان مهما عظمت!!

لست أدرى ذلك الشعور الذى اقتحمنى وأنا أرمق الجثمان الممدَّد فوق الطاولة الرخامية من بعيد، لماذا تخيَّلته أحد من أكره يرجونى الصفح وأنا الموكَّل بإنقاذه.

وداخلت إرادتى رغبتان هل أصفح عنه أم أنتقم؟

حين أشهد فى عينيه التوسُّل والرجاء هل أضنّ عليه بأسباب النجاة أم أمدّه بها عن طيب خاطر ونفس متسامحة رءوم، لم يمنحنى القدر يومًا لذّة الانتقام ممن أساءوا إلىّ فقط أبتلع مرارة الإهانة بعد أنْ

أفشل فى ردّ الكيل وكأنَّ لسانى قُدَّ من صخر، بينما يشتعل الصراخ فى نفسى وفى أحلامى، تبًا للسانٍ لا يمتطيه صاحبه ويبارز به الأقران والأدعياء والمُدَّعين!

فى كل مضمارٍ أبوء بالفشل والأفول وكأنَّى خُلقت لأجتاز كل مضمارٍ وحدى.

ربما لم تكن دراسة الطب هى الأنسب لمن وصم برأفة المشاعر ورقة القلب ورهافة الحِسّ ذاك المنعزل المنطوى الذى يحب العزلة ويميل للشعر والأدب والتاريخ لكنّ المجتمع والأسرة والعادات جعلت من هذه الدراسة تاجًا يُكلِّل جبين كلّ مجتهدٍ بارع..

كانت الكُلية تضمّ أطيافًا وأجناسًا متباينة من البشر الشمال والجنوب الوادى الضيّق والبُحيرات حتّى "المالديف" لم تخل مدرّجات الجامعة من بعضهم،وكأنّك سمكةٌ صغيرةٌ تحملك أمواج بُحيرةٍ فسيحة بين أسماك من بقاعٍ شتّى. كذا الكلية تضم المتميزين من كل حدبٍ وصوب ؛ لذا لم أتصدَّر المشهد لكننى اكتفيت أنْ أسير مع موجات البُحيرة وتتابعها المُتسلسل المثير!!

استهوتنى أخيرًا مُتعة دراسة الجسد الشائقة وتفصيلاته، كنت أتساءل فى استنكارٍ كيف يحملنا جسدٌ لا ندرى عنه شيئًا؟ نتنفس ونخرج دون أنْ نعى آلية ذلك ولا كنهه.استحالت دراسة الطب نَغمًا مُتّسقًا يقود بعضه إلى بعض. الجسد – المرض – الدواء ' شِعرٌ ' من نوع خاص فلسفة أزليّة وعمق فى أغوار أعظم إنجاز على الأرض ألا وهو

الإنسان. كنت كالتائه فى دروب الكلية العريقة أجوس أقسامها أتعرّف عليها ؛ فتأخذنى الطرقات لردهاتها الفسيحة. متحف الباثولوجيا (فاطمة عابدين) الأجزاء المريضة فى جسم الإنسان التى أفنت عمرها فى جمعها ؛ فكوَّنت مجموعة هائلة تزيد عن الثلثمائة قطعة فى صناديق زجاجية مغمورة بالفورمالين كبد وطحال وقدم سكرى وبنكرياس، لست أدرى لماذا أترنَّم بطقطوقة سيد درويش :

– كلها حاجات لوجيا وأمور أونطا لوجيا –

مع انبهارى التام وإيمانى بأهمية هذه العلوم،سرعان ما تلاشت السخرية الناجمة عن الخوف وترقُّب المجهول وحلّ محلَّها إيمان عميق بعظمة ورُقىّ وإبداع هذه الدراسة الشائِقة التى تُعنى بأدق التفاصيل فى أعظم كيان شيّده الله وسخّر له كل مافى الكون منْ شمس وضياء وأجرام وأفلاك وحيوان وبحار!!

كان صوت المعيد الذى يئزّ فى بهو المشرحة الفسيح وكأنّه نشاز صادر من موسيقى الميتال(المعدنية) فترنّ أصداؤه فوق أحواض الجثث الغائصة فى الفورمالين وفوق مناضد الرخام المستطيلة المرتكزة على ركائز من قوائم الحديد بما تحمله من الجثث وأجزائِها وتنعكس فوق الجدران السيراميك الملساء البيضاء التى تبطِّنها.

على منضدة رخامية تتوسط بهو المشرحة الفسيح كانت ثمة جثة شديدة الضخامة لرجلٍ أسود ربما إفريقىّ نمَّت عن ذلك تقاطيع وجهه

التى وشت بأصوله فأنفه كبير أفطس، وعيناه كبيرتان جاحظتان، وشفتاه غليظتان تغطيان فمًا كبيرًا. ضجّ فى كيانى أسئلة كثيرة :

- أىّ حظّ عاثر أورد هذا الجثمان ذلك المصير؟؟ وأتى به من مجاهل غابته فى القارّة السوداء، ربما كان يتهادى فى أعماق الغابة بين أشجارها الكثيفة وتحت أمطارها المتواصلة الغزيرة وشمسها التى تلدغ الرءوس وتحرق الجلود فتصبغها بالسواد!! فلا يجترئْ مجترىء أنْ يمدَّ إليه يدا أو ينظر إليه نظرة تؤذيه.

هل كان يدرك أنَّ نهايته ستكون هنا مطروحًا عاريًا فى مشرحة [كلية الطب] بمدينة "القاهرة" تغتاله العيون وتمزقه المباضع ويمعن فى دقائق جسده الدارسون؟ هل تُحلِّق روحه فى فضاء المشرحة الواسع أسفل سقفها تتأمّل ما حاق بجسدها من مهانة؟ ولكن أليس بقاؤه على هذه الحالة المزرية زمنًا أفضل من اندثاره وفنائِه سريعًا وتسلُّط العفن والتحلل والدود عليه ؛فيغدو ذو رائحة مقزِّزة منفِّرة كريهة؟

- أليس الفورمالين وإن أسال الدمع وهيّج العين وأثار الأنف أفضل من ذلك جميعاً؟؟

هو يؤدى رسالة بجسده لم يكن يعبأ بها ولم تواته الفرصة لأداء غيرها فى حياته.

هل لو خُيِّر أن يوارَى فى الثرى مخفيًا عن الأعيُن المُستقذِرة لحاله أم مركزًا يلتفّ حوله الدارسون كمأدُبة يلتفّ حولها الأضياف كأنَّه يهب

جثمانه فى سبيل خير الإنسانية كعمل خيرىّ! كيف يكون اختياره؟؟ لكننا نمزقه بمشارطنا ؛ نستكشف كل جزء فيه!! لالا ربما لم يكن ليقبل بهذه النهاية الأليمة مطروحًا مُمزقًا، فهل ترثى روحه لحاله؟؟؟؟؟؟؟؟

كانت أوّل جثة تبعتها جثامين إناث ورجال وجه مجنون قادم من العباسية ووجه طفل، ترتسم على وجوههم جميعًا مظاهر التعاسة والألم هل هى رهبة الموت؟ أم انعكاس لذكرى أيامهم التعيسة التى ربما كان آخرها تجاهل ذويهم لهم وإهمالهم أحياءً وأمواتًا أو ربما كانوا بلا أهلٍ من الأساس. لم يعُدْ إحساسى بالجثث كالسابق. صار يتلاشى ويضمحل حتى غدت مجرَّد مادّة تعليمية يجب أنْ أُمعِن مِبضعى فيها وأُدقِّق نظرى في تفصيلاتها حتى لا أتأخر عن أقرانى.

يجب أن أتجاهل التفكير فى كلّ جثمان: أصله وحاله ومآله،الأحلام التى كانت تكتنفه الطموح والألم أو لاشىء من كل ذلك عند منْ غابت عقولهم!!!!

كل يوم يمرّ تنفصم عرى ارتباطى بالقرية بحكم نشأتى فيها، تتلاشى رويدًا رويدًا لم أحبها يومًا وإنْ كان محض ارتباطى بها الانتماء والكيان الأسرىّ الدافىء.

و لكن!!! لم تخل ساحة الجامعة من نسخهم الكربونية المكررة ولا فكرهم العقيم الذى يبهرك أولاً وسُرعان ما تكتشف خواءه وكأنّه امرأة تدّعى القدرة على الإنجاب بينما تنتفخ بطنها بحمل كاذب. هكذا بدا الإخوان الذين عرفتهم بِسماتهم الموحّدة وحرصت على مجافاتهم من

البداية للنهاية. خشيت انزلاقى فى بئر أوهامهم السحيق فانتشلت ذاتى منهم قبيل الغرق.

درب آخر للتيه يضمنى يجذبنى فلا أصل فيه لنهاية أو أنل فيه طمأنينة بل جوّ رهيب من العمل السرىّ اللعين الذى ربما ناضل مع من ناضل ؛ لإخراج الإنجليز وطرد اليهود. ولكن ثمّة تحالفات أخرى يعقدها الكبار بغرض المقايضة والمصلحة لا تعتد إلاّ بهما. وكراهية المجتمع واحتقاره والفخر والتعالى على أفراده! فهم أهل الحق المُطلق المُبين ومَن سواهم على الباطل. وانسبتُ فى ندوات الكُتّاب والمثقفين ومقاهى "الحسين"، تطلّعت فى مرايا "الفيشاوى" العملاقة علّى أرى وجه "محفوظ" مُتضائِلاً تكتنفه العبقرية والحكايات و دلفت بيت ووكالة "الغورى" مبهورًا بعظمة وفخامة الزمان والمكان عروض ثقافية مُمتعة تُضفى على المكان سحرًا وخيالاً وحميميةً وألَقًا، فى أروقة "المُعزّ" وجدت شيئًا ضالاً لا يوجد إلاّ فى تلك الدروب إحساس غامر بالوطنية والأصالة والغموض. كل شبر فيك يا"قاهرة" يجذبنى يجتثنى من منبتى ؛ليزرعنى فيكِ ؛ فأظل دائمًا مأسورًا بك لا أملك الفكاك، يحكى قصص وحكايات وعبارات الأقدمين أتطلع إليها فى الوجوه والناس وشيم أهل البلد وخصالهم. كل حجر فيكِ يا"قاهرة" يحمل عبقًا وذكرى!! حتى الحمّالين وباعة الأقمشة والملابس والمفروشات لكنّ عشقًا قديما يوقفنى دومًا أمام محلات العِطارة والأنتيكات.....

أنتِ ياقاهرة التاريخ والحياة والعشق وربما تكونين الحب... مَنْ يدرى ربَّما؟

* * *

تلك الحياة التى أُقْحمنا فيها عنوة وأُرغمنا على خوض معتركها السخيف ، غمار تجربة يجب أن تخوضها رغمًا عن أنفك دون أنْ تملك حتى حق الاختيار!!

أليس من حقّى أنْ أرفض اختبارًا يُقيّمنى وأنا غير قادر على اجتيازه ما حاجتى للإقدام على الفشل ربما حتى دون أنْ أوافق أو أُبدى استعدادًا فأُرغم على ما تيَقن فى داخلى خُسرانه، بل لماذا اجتُثَّت روحى من العدم من اللاشىء لعلها كانت هانئة مطمئنة تنعم بالسكينة والراحة!! ألم يكن خيرًا لها من عالم المادّيات والصراعات حين تتلبّس الروح فى سجن جسدٍ يعذّب حيًّا وميّتًا؟؟

أولو خُيّرتْ روحى؟ ربّما كانت اختارت العدم أنْ تظلّ لاشىء تهيم فى الكون المترامى بين النجوم والأفلاك والأجرام السماوية تنعم بزرقة كثيفةٍ قاتمة فى صفحة الوجود العريض تتناثر بينها النجوم كاللآلىء حين يبدو كل شىء مهما عظُم غايةً فى الحقارة والدناءة والصغر، وترى الأرض وما يعتمل فيها من أحقادٍ وصراعاتٍ وشرور

مجرد كُرة بلهاء صغيرة تدور كالأمَة حول سيدتها الشمس وتدور حول نفسها فى تعبير عن التردّد والحيرة وعدم الثبات وتهيم مع الملكوت كله، شىء ضئيل لا يذكر وسط مجرّاتٍ ضخمة مهولة لا يحدّ حدودها اتساع ولا تحصيها النهاية!

ولا تتلبّس بجسد هو مجرّد رقم يقيم ثم يظعن فى تعداد كوكبها، وبطن يأكل ويخرج وذات تتنازعها الأحقاد والأطماع، حبيسة عراك أزلّى لا ينتهى سوى بانتزاع أنفاسها وتوقفها نهائيًا عن الضجيج وبعدها يُنصب لى الميزان.....

لو مشيت على الحبل ألف مرّة لسقطت من فوقه فى كل مرّة ولو بارزنى أى فارسٍ ولو كان من الأقزام لقهرنى ولو كُتبت لجميع رفقائى فى سفينةٍ النجاة لكنت الوحيد بينهم من الهالكين، نفسى هشّة كزجاج رقيقٍ واهِنٍ أتّى لها بمقارعة الزمان؟؟

حواجز وعراقيل أمعَن الزمان إقحامها فى طريقك بحرفية ودهاء، أتُراه ينصب لك الأفخاخ فينعم بمشهد تعثُّرك وسقوطك فيضحك سعيدًا ويهتزّ كرشه السمين؟

لم يكن الموت ذا بال لكنّ مرارة الفقد داء متأصل فى الذات البشرية، إحساس الرحيل الوداع الأخير، المحفّة (النعش) المحمولة على الأعناق ؛ ليقبع الجسد بعدها فى قبو مظلم ضيّق حيث لا إياب. حشرجة الروح وتلاحق الأنفاس، جحوظ العينين سيلان اللعاب والألم الوصية الأخيرة ثم السكون الأبدىّ،تسليم الجسد الذى كان

يموج بالضجيج والانفعال للقانون الأزلىّ حين تتخلّى عنه روحه ؛ فيضحى لا شىء.مرتعًا للعفن والدود والفناء وكأنَّه كان زورقًا يُقِلّ الروح لفترةٍ ثم تتخلّى عنه ؛ لتنعم هى بالخلود ويحظى هو مرتعًا للفناء جثمانًا مهدورًا يذبل ويتحلّل ويذوب فى أطباق الثرى؛ ليغدو جزءًا من أديمها تطؤه النعال.....

أليس الجسد ما كنّا نسعى لراحته :غذائه أبّهته نظافته؟؟؟ أليس هذا ماكنّا نتألم حين يعتريه مكروه ونضعه فى أشرف مكان وأبهى حُلّه؟

لماذا سكن جسدك ياجدّتى وخبا فى عينيكِ البريق فذقتُ مرارة الثكل والفقد حين رحلتِ بعد أنْ ظللت فى غيبوبةٍ كاملة لأيّام ثلاثة ارتفعت فيها "البولينا" فى الدم وصرتِ أنفاسًا لاهجة تخبو رويدًا رويدًا بينما يتعالى الشخير والحشرجة ومددت كفّى المرتعشة أحتضن أناملك الواهنة الدفيئة آخر ما مسست منك بعد أنْ كنت أُلقى بنفسى فى أحضانك أنأى بين ذراعيك عن العالم أجمع ؛ فانفرجت عيونك المتيبّسة عن نصف نظرةٍ خافتة حزينة وأطبقتِ بأناملك على أطراف أصابعى تودعيننى والدنيا التى لم تخطِّ فى صفحتها بقلم ولم تفكِ فيها طلسمة حرف ومع ذلك وهبتنى رافدًا من الحنان وعلمتنى كيف يكون الحب والعطاء. لأوّل مرّة يتسلل الموت إلى حياتى ليعبأ الهواء برائحته القاتمة فذُرِفت الدموع وتناثرت الهمهمات وضجَّ النحيب ليعتصر فؤادى فقدك يا عزيزتى، جمُدت فى عيناى الدموع كمن يستشعر إحساسًا جديدًا ثم انهمرت وأنا أودع شاهد قبرك جريدة خضراء، وازداد دمعى

انهمارًا حين دخلت حجرتكِ فوجدت كل أدواتكِ وآثاركِ قائمة عدا سريركِ الذى بقى خاويًا منكِ وكأنّ كل ما فيها يسألنى أين صاحبتى؟؟

لله درّ العالم الذى يودع فى قلوبنا المحبة والتعلّق بالآخرين ثم يحرمنا منهم فجأة دون أنْ يوطّن فى نفوسنا الصبرعلى مرارة الفقد، يرغمك على تجرُّع كئوس الأحزان ولا يمنحك الترياق إلاّ بمشقّة بالغة بعد أنْ تترع من الكأس المرّ والعلقم حتى يوارى النسيان كخيمة كبيرة سحائب الأحزان ويتلاشى الحزن رويدًا رويدًا عدا بقعة سوداء تصبغ القلب الناصع تكدّر عليه صفوه وتبقى فى غور النفس مرارتها التى قد تتهدهد وتتجدّد فى أوقات بعينها..

جاور جدّى (إبراهيم) مقام الشيخ (الصمدىّ) بعد وفاة جدتى، آثر أن يكون جليسه فى أيامه الأخيرة،فغدا من سكان حجرة الضريح لا يبرحه رغم محاولاتنا إعادته فيرد دومًا :

- سيبونى براحتى أنا مرتاح كده....

مجتمع القرية ومجتمع المدينة حيث الاغتراب والتجوال فى شوارع القاهرة الفسيحة، أنْ تهجر مجتمع القرية الحميمىّ لحد الاختناق، وحضن الأسرة الذى ماشعرت بفضله إلاّ بعد أنْ هجرته ؛ لأغزو عالمًا جديدًا بينما أحمل فى جنباتى نقاء طويّتى الساذجة الريفية وانطوائيتى ووحدتى وتجاربى الضئيلة التى لا تعد شيئًا وصمتى وسكونى المفعمين بالضجيج كبركانٍ هادئ السطح بينما تتأجج فى جوفه الحِمَم. فى المجتمع الطلابى المدينة الجامعية التى تموج بالحراك خلية نحل لا تَكُفّ

عن الطنين ورحىً لا تتوقف عن الدوران طقوس مشتركة يجب أن تتعلّق بساقيتها التى لا تهدأ أبدًا الشراكة فى كل شىء :الإقامة والمنام وتناول الطعام والتوجّه للمدرجات وساعات الاستذكار الطويلة المُضنية. وعلىّ أنْ أتواءم وأواكب كل هذه العادات الدخيلة على طباعى. دنيا استغربتها ثم راقت لى.

كنتُ أقرأ وأطالع أو أنعم بنوم هادىء دون مُنغِّصات فتغمرنى جدَّتى الراحلة بحنانها أو تُغطينى أمى بعد أن أغطّ فى سباتٍ عميق، اليوم ليس هناك بُدّ من التأقلم مع غرباء والتوافق مع أنماط معيشة جديدة، فلأُجرِّب النوم وسط الضوء والضجيج فمن يستذكر طيلة الليلة ولا يحلو له التحصيل إلاّ فى سكون السَحَر، ولعله من اللياقة أنْ أسير على أطراف أصابعى أوان خلودهم للراحة حتى لا أزعجهم ؛ فيزعجوننى. أقبل توجهاتهم ورؤاهم التى لا تروق لى بابتسامة، وسماجة البعض وفظاظة آخرين، كلنا من الأوائل لا مكان بيننا لمُتأخِّر.

لم يعد التميّز العلمىّ لأحد دون آخر يسير المنال فالكل تقريبًا من الفائِقين حين يذوب قالب الثلج وسط بحر من الجليد و لكنّ عهدًا قطعته بينى وبين نفسى ربما قرأه أبى فى عينى فلم أُعالنه به – أنّنى لن أعود خاوى الوفاض –

لكن القروىّ الساذج والإخوانىّ القديم لازال فى طور النزق وباكورة الشباب والوجد توًا ماانفك من قيده فبدا بلا أغلال سوى أغلال قرويته وأفقه المحدود الذى لم تفتحه له الكتب وتوقانه للجسد

الأنثوى المثير بتفاصيله المثيره وتعاريجه المجنونة رغم أنَّه لايزال لا يقوى على مواجهة أنثى ؛فيكتفى بأن يطلق لعينيه العنان فى الشوارع المزدحمة ليرى نسوة وبنات العاصمة فى أرديتهنّ الفاتنة جينز لاصق وجيبات مجسمة لن يرقبنى اليوم أنسان ولن أخشى أعين الطفيليين والدخلاء، وأطلق روحى المكبَّلة من أسرها بين الشوارع والمبانى ذات الطابع التاريخى ؛ فيطغى الحلم على الواقع وكأنّه يرتئى أصحاب المكان الأقدمين قد آبوا وفاح فى جنبات المكان أريجهم وطباعهم ومع هذا فهو لا ينسى حلم الأُسرة الذى تعلَّق فى رقبته بمواصلة النجاح.

أتاح لى الطريق مرافقة اثنين من زملائى الجُدد اللذين كانا يراجعان محاضرات اليوم، وتوجيهات الدكتور المحاضِر بذاكرة قوية وقدرة على التركيز ما أثار اندهاشى فأنا كالوعاء الخاوى إلا من ذكرياتى التى كانت تطيش بتركيزى من أرض المصطلحات اللاتينية الجلمودية الصماء لأودية شتّى .

أستشعرُ الخوف، توالت على ذهنى قصص فشل سابقة لغيرى فى أروقة دار الحكمة وموطِن "أبقراط" الذى لا يسع إلاّ النابهين ويمُجّ غيرهم إذا توانوا أو تكاسلوا دون اعتبار لنبوغهم القديم فمواصلة النُبوغ شرط لاستمرار بقائهم فى رِحابه، غادَرتْ جارتى "أُلفت" التى فُصِلت ؛ لتكرار مرّات الرسوب رغم تفوقها السابق،عَجَزَتْ عن المواصلة فباتت عاجزة أمام علوم اللوجيا والتشريح، وخشيت أنْ يحيق بى مصيرها.....

أتاح لى سكن المدينة الجامعية مشاركة "المغاورى" القادم من (أجا) والذى يبدو كأحد أبطال كمال الأجسام و"حسن الدمياطى" طويل ناحل خداه ممصوصان تنبت فيهما شعرات كالشوك، وجهه أصفر وعيناه زائغتان، كانت الصُحبة يكتنفها الترقُّب نستكشف شخوصنا القادمة من أعماق الريف، قدرتنا على التواصل والتشارُك فى السُكنى والمنام وساعات الاستذكار الطويلة، كلاهما وحش مذاكرة لا يترك الكتاب من يده ولا يبرح المدينة أو يرتحل لأهله إلاّ لمامًا كأنّهما بلا أهل ولا حنين.

"المغاورى" لايملّ الاستذكار ولا حشو عقله بالمعلومات مادامت بطنه مكتظَّة بالطعام فإذا خويت نفذ الوقود لديه فتوقَّف، بينما "الدمياطىّ" رغم أنّ والده بائع خضار سرّيح إلاّ أنَّه ينفق ببذخ وكأنَّه حفيد أحد البرنسات ويعيش قصة حب قاتلة تدفعه للاستماتة فى المذاكرة كأنَّه ثورٌ فى ساقية.المبنى رغم حداثته بارد كالح كأنّه ثلاجة كبيرة والحجرة رغم تنسيقها وتنظيمها بناء بلا روح جدرانها بيج مصقولة ودواليبها تجاويف مستطيلة فى الجدران لها أبواب خشبية. غمر نفسى ذات الشعور بالاكتئاب والضجر الذى انتابنى فى الفترة الأخيرة، لا أملك سوى الرضى ومحاولة التأقلُم فى تلك البوتقة الجديدة.

أين هذه الحجرة الباردة المنظَّمة من حجرة فى بيتى؟ ربّما تضيق بالأنفاس وبالأثاث ربّما جدرانها ليست مصقولة لامعة مثل هذه الجدران، ربّما لا توجد بها شُرفة تُطِل على حديقة فسيحة غنَّاء ومبانٍ

أخرى عالية تفوح منها رائحة الاستذكار والطلبة وكذا الريف الذى يحمله كل منّا فى قلبه وتكوينه، لكنّ منزلى هناك أكثر دفئًا وأُنسًا وراحةً واحتواءً!!

كنت كالغريق الذى يبحث عن برٍّ يرسو عليه أو قشّة يتعلّق بها فى يمّ المدينة،درب يتوه فيه الغريب يستبدّ به اغترابه ينهش قلبه كحيّة رقطاء.

وجوه كالحة متعرِّقة تصادفنى،تكتظ محطات الحافلات بها، تنتظره؛ لتتعلق به كيفما اتفق ولو فى موطىء قدم، يتداخل فيه الجميع وينحشرون كأنها أفران غاز "هتلر" المُتأهِبة للاشتعال، بينما يسيطر التأفُّف والضَجر على الزمان والمكان :

- أقف بجانبك يا أستاذ ما تتصدرش كده.

- ركوب الأتوبيس له أصول خش جوه خش جوه وسع للى جاى.

- اللى يعدى لازم يعدى من ضهره يعنى وراك علشان الحريم.

- أنتا ماركبتش أتوبيسات قبل كده والا أيه يا أخينا والاّ جاى م الكَفر على هنا طوالى.

كانت شمس نوفمبر قاسية بعد الظهيرة ربما كانت شمس القاهرة كلها كذلك يزيدها وهج الأسفلت اللامع تعكس من قسوتها على الغرباء ما جعلنى أهرع للمدينة الجامعية أتناول وجبة الغذاء المغمورة

فى زيت الكافور ثم ألوذ بحجرتى أخلُد لنوم أشبه بالخَدَر بعد عناء نصف اليوم الأول.

رمقته وأنا أجتاز البوابة الحديدية العالية فى رداء الشرطة الأسود الشتوىّ يتابع دخول الطلبة ويطّلع على كارنيهات بعضهم :

- إنَّه هو هو "سعد الأشمونىّ" بشخصه وهيئته.

- ازيك ياكابتن أيه المفاجأة الجميلة دى.

يرمقنى كأنَّه يتثبّت من وجهى فى نظرة بوليسية متفحصة ثم غلبتها ابتسامة مُتحفِظة:

- "محمود سالم" ازيك يادكتر أنا لسه منقول هنا وكنت هابتدى أدور عليك فيه توصيات قوية جدا جدا من البلد قال أيه ياسيدى بيوصونى عليك.

يضحك فى ابتسامة غامرة تضيق لها عيناه:

- طبعا ياباشا ما احنا قرايب حضرتك نسيت إننا ولاد عم.

بينما يشدّ على يدى فى مصافحتى كأنَّ كلانا عثر على كنزٍ يبتغيه، كانت بيننا أواصر قُربى فِعليه من جهة الأب لكنها من بعيد. فجدّه وجدّى كانا أبناء عمومة صلة تقطّعت ربما تلاشت مع الأيام، ربما لم يعد لها وجود فى مجتمع المدينة بيد أنَّ استمساك القرية بمثل هذه الروابط أكثر.

النقيب "سعد" الغائب عن القرية منذ تخرّجه،والذى كان يُثنى على نبوغى كُلَّما التقينا ها نحن الآن وجهًا لوجه فى لقاءٍ لم نُرتّب له، كانت شخصيته لم تخل من كِبرٍ وتعالٍ خصوصًا بعد أنْ أتاح له تراقُص والده على حبال أعضاء الحزب و"مجلس الشعب" قَبوله فى كُلّيةٍ لا يُقْبل بها مثله فجدّه لأمه [تُرَبِىّ] ووالده موظف بسيط.

- أنا أعمل فى حرس المدينة ولازم هنتقابل كتير ابقى زرنى فى مكتبى بالليل.

- ماشى ياباشا إنْ شاء الله...

فى خجل قروى احمرّ له وجهى ممزوج بسعادة تائه لم يجد الطريق فحسب بل وجد معه رفيقًا يؤنسه بعد وحدة وتيه!!!

لم أكن أُحبه كثيرًا. لكنَّه اليوم أشبه ببلّة ريق فى يوم حرٍّ مُستعِر، فهو ولا شك يحمل شيئًا من عبق دنياى السابقة التى أحِن لأشياء فيها بعينها، وأبغض أخرى،كنت أشعر أنّ وجهه الأسمر،ورأسه البيضاوىّ، وعيناه المستديرتان الزائغتان تنمّان عن بلاهة وشخصية جوفاء يوارى كل ذلك بتصنّع مكشوف للعظمة والهيبة التى لم تفلح فى مواراتها مشيته العجيبة المُأرجِحة يديه كمسّاحتى زجاج السيارة يمنة ويسرة ولا النجوم الثلاث الرابضة فوق كتفيه ؛ فيُبدى غرورًا وصلفًا ينقم ماضيه ويلعن جذوره ؛ فيمشى مُنتفخًا فى زهو كأنَّه ينحدر من سلالة ملكية يجرى فى عروقها الدم الأزرق، يتيه على أقرانه منذ التحاقه بكلية الشرطة وكأنّه قادم لإلقاء القبض على أهل قريته جميعًا لا سائرًا فى

دروب بلدته وسط أهله وذويه الذين كانوا يدهشون له ويتغامزون فيما بينهم :

- ابن التُرَبى فاكر نفسه قائد طابية.

يذكرون حال أجداده منْ فقر وحاجة وما آل إليه بعد تزلّف أبيه على أبواب الكبراء وبذله حياء وجهه، حين غدا ضابطًا نسى أصله، حتى والده الذى ظنّ أنّ كونه أصبح والد الضابط يؤهله أن يترشّح لعمودية القرية بعد وفاة العمدة "مصيلحى" فأخفق مسعاه بعد أنْ خذله الجميع وتنصّل له أقرب الأقربين.....

كان الوقت عصرًا ينام "المغاورى" على السرير المواجه لمكتبى كالجُثّة، وخرج "الدمياطىّ" عن الحجرة لبعض شئونه لم أكترث إنْ كان قد انضمّ للمظاهرة التى تدور فى ساحة المدينة وبين مبانيها التى قد دعت لها جماعة سرّية تدعى (جيل النصر المأمول) أمس حين فوجئنا بمنشورات فى كل حجرات المدينة قد سرّبوها أسفل أعقاب الأبواب تحت دعوى نصرة (القُدس) لم يبدِ أحد منّا اهتمامًا فقد كنت آليت على نفسى منذ ولجت القاهرة ألاّ أشارِك فى هذه الفتن التى تخلّصت منها فى قريتى وانبريت وسط كتبى ومقرراتى أبحث عن ذاتى!!!

يدور حديث مُطوّل بينى وبين جُمجمةٍ تقبع على مكتبى منذ أيام أتفرّس معالمها وأراجع النتوءات العظمية والبروزات والثقوب فيها. كل مللى له اسم ووظيفة والثقوب مهما صغرت تغدو معبرًا لعَصَب أو حِزمة منَ الأعصاب،أنا أرمُق بقايا عظامه وهو يرمقنى من تجويفى

عينيه حيث تعدو روحه خلف التلال البعيدة وراء أسوار الدنيا وربما قدمت لتحوم هاهنا فى حجرتنا حول جمجمته الجوفاء الفارغة تتعسسها وتصب فوق رأسى اللعنات على الحىّ الذى تدبّ فى صدره الأنفاس يطيل المُكث فى صحبة جُمجمة عظمية كأنَّه يصادقها ويطيل معاينتها والتحديق فيها. بَدونا مترابطين رجلين منْ عالمين وزمانين مختلفين فى المواجهة يتبارى كل واحد منا بذكريات زمانه.

استفضت فى جلسة صمت أُشير بقلمى لمواضع معيّنة فيها مُكررًا عبارات لاتينية صمّاء، لكنّ طرْقًا خفيفًا على الباب أثار انتباهى هل هى طرقات منَ العالم الآخر؟ رُبّما، راعيت الهدوء فى حركتى نحو الباب حتى لا أوقظ "المغاورى" غريب الاسم والجسم والأطوار.....

كان وجهه مضطربًا ينمّ عن قلق واضح، يرتدى زيًّا مدنيًّا (قميصًا وبنطلونًا) كانت مفاجأة أذهلتنى وأسعدتنى ظننته قادمًا للسؤال عن أحوالى فى زيارة ودّية :

- أهلاً ياباشا اتفضّل، كنت هامرّ عليك بس حضرتك شايف المذاكرة.

أشار إلىّ مامفاده أنْ لا تبالغ فى التحية، قرأت فى وجهه المذعور أنّه تسلل لحجرتى لأمرٍ جلل ولا يريد أن يفطن لزيارته أو يراه أحد، لوهلة جاس بعينيه فى أرجاء حجرتى بنظرة بوليسية فلمح خلوّها إلاّ من زميل مستغرقٍ فى نومه ، دعوته للدخول فأسرع بالإجابة و تأكّد لى أنّه

لايرغب أنْ يراه أحدٌ عندى، داعبته لأخفف من وطأة الموقف حين جلس أمام المنضدة التى فوقها الجمجمة قائلاً :

- جلست ولم تخش من هذا الرفيق (فى إيماءة ضاحكة للجُمجمة التى أمامنا).

تجاهل دُعابتى كأنّنى لم أقُل شيئًا، زاد زيغ عينيه كأنّه موشكٌ على الغرق مصفرًّا مرتعش اليد قد تخلّى عنْ صَلفه أو تخلّى عنه غروره وعنجهيته فبدا حُمقه واضِحًا جليًا وقال بلهجة أقرب ماتكون للتوسُّل والرجاء:

- لأوّل مرة سأطلب منك طلبًا اعتبره رجاءً أرجو ألاّ تردَّنى فيه يتعلّق بمستقبلى.

- أمرك ياباشا..... خيرًا.

فى ابتسامةٍ وجِلة كمن انتقلت إليه حُمَّى القلق والتردُّد منْ ضيفه الغريب القادم فى زيارة أكثر غرابة يكتنفها الغموض (ثوانٍ ويستبين كُلّ خفىّ)، استشعرت أنّى فى مركز قوة وأنا أشهده بهذا الضعف :

- ليس قانونىّ أنْ أدخل حجرات الطلبة لكنّ الضرورة والعشم دفعانى لذلك، هناك طالب خطر كان يقود المظاهرات الآن تسلَّل وسط حجرات مبنى (د)، فقط أعرف لى رقم الحجرة التى يلوذ بها وتكون قد أسديت إلىّ جميلاً عظيمًا وصدِّقنى أنا أخذت هذا الأمر بصفة شخصية ولن أطلب منك طلبًا بعدها.....

أُسقِط فى يدى تبًا لك ألهذا تزورنى،وهذا حق القُربى والبلد الواحد، لم أشأ أنْ أرفض أو أحتجّ وكأنّى خشيت أنْ يطول أمر الحوار السخيف ؛ فيتسلل لأذن "المغاورى" النائم على بُعد مترين منّا ؛ فيوقظه ويظنّ بى الظنون، أدرت رأسى نحوه فى هلع فوجدت جفنيه يختلجان وكأنَّه استفاق لكنَّه تظاهر بالنوم.

- نُكمِل كلامنا بالخارج.

- لا داعى أنْ يرانى أحد برفقتك،لقد أنهيت حديثى (وهو ينهض مستعدًا للمغادرة لمح المغاورى النائم وكأنَّه تذكَّره فجأةً بعد أنْ أهمل تواجده فى الحجرة).

- الواد ده اسمه أيه؟شكله لبط ومش سهل.

- لا لا لا ياباشا دا واد غلبان ومالهوش دعوة بحاجة.

كان كمن يبحث عن متهم يُقدِّمه قُربانًا يوارى به خيبته وإخفاقه، أىّ متهم والسلام،لايهم إنْ كان مظلومًا أو مُدانًا، "المغاورى" غلبان جاى يذاكر وياكل وينام...

صرَفْته على وعدٍ كاذبٍ بلقاء فى المساء مذيّلاً وعدى ب (ربنا يسهِّل) العبارة المصرية المطَّاطة التى لا تقدِّم أو تؤخِّر، وعُدت لحجرتى لأجد "المغاورى" جالسًا فى سريره بغير الوجه الريفىّ الساذج الطيب الذى أعتدته منه!!!!!!

لم أستطع مواصلة حديثى الودّى مع الجُمجمة الميتة بعد حديثى المُزعِج القلِق مع الرأس الجوفاء المُمتلِئة بالريب وسوء الظنّ وإلصاق التهم بالأبرياء ولم يغمض لى جفن، ولم أتطرق فى حديث يطول مع "المغاورى" فقط تكفينى نظراته المُستريبة.

ما أنْ ارتحلتْ الشمس حتى توجَّهت إلى مكتب "سعد الأشمونىّ" بالطابق الأرضى بمبنى (ج) الذى خُصِّصت حجراته الأرضية مكاتب وسُكنى لضُباط الحرس، كنت أتوارى أخشى ولوج هذا المكان الذى يبدو كأنّه مخفر شرطة لا مجرد طابق من طوابق السكن الطلابى مُتسللاً أخشى أنْ يرانى أحد يعرفنى ؛ فيظن بى السوء رغم أنَّ ولوجى المبنى مثل مئات الطلاب الذين يقطنونه أمرٌ طبيعىّ لو فكرت فيه ببساطة لكن التردُّد سمْتى الدائم وخشيتى الناس بسبب أو بدون جعلانى أبدو كاللص الذى يحوم حول جريمته وكأنه يُشهِد الجميع عليها، أخذتُ أطوف فى الحديقة الموازية للمدخل الفسيح للمبنى شارعًا أحد كتبى بين يدىّ حيلة اهتديت لها توحى لكل من يشهدنى أننى من هواة استذكار دروسى فى هواء الحديقة الطلق على الضوء البنفسجىّ المشرب بحمرة المنبعث من مصابيح أعمدة الإنارة المتناثرة فى أرجائها، أتسلل لحظة لحظة أتحيَّن خُلوّ مدخل المبنى العملاق منَ المارّة والداخلين رغم كونه لا يكاد يخلو عادة فى هذه الأوقات،ولجت الممرّ المؤدى لحجرات ومكاتب الأمن وأنا أبتهل إلى الله أنْ لا يرمقنى منْ يعرفنى وكأننى أودّ لو انشقَّت الجدران فتواريت فيها، بدا الممرّ أكثر برودة من كل أجواء

وحجرات وممرّات المبانى الأخرى، حجرات على الجانبين معظمها مُغلق عدا حجرة وحيدة لها مِصراعان مستطيلان كبيران يقف على بابها رجل يرتدى ملابس مدنية له شاربٌ كثّ ابتسم فى وجهى بتودُّدٍ خبيث وكأنَّه من المعتاد أنْ يستقبل زوارًا من طلبة المدينة، سمعت صوت "سعد الأشمونى" يصرخ من الداخل :

- يا زفت انتا يامسطول.

(يهرول الرجل ذو الشارب الكثّ للداخل وكأنَّه تغافل عن قدومى أمام صراخ سعد وندائه)

كنت مستشرفًا الدخول فأحجمت ريثما يعود الجندى الحارس فيستأذن لى. أتانى صوته :

- إنتا ازاى سايب ورق زىّ ده يودينا ف داهية من غير ما تفرمه او تحرقه إنتا أول مرّة تخدم هنا والاّ أيه؟؟؟؟

يغيبان لدقائق ثم يخرج الحارس معتذرًا :

- اتفضَّل يا أستاذ.

ربما صدق حدسى فأنا لا أحب تلك الطائفة رغم هذا الغرّ الذى يمت لى بصلة قرابة وزاد من حنقى نحوه ونحو طائفته فعلته ومنحاه تجاهى، شىء داخلى يجعلنى لا أشعر بالسعادة فى حضرتهم، ربما كان أهمّ أسباب هذا الشعور كونى إخوانىّ قديم قرأت كمّا هائلاً من قصص التعذيب والترويع والإهانة، وترسَّخ فى باطن عقلى أنَّ الأمن

عصا السلطان وهراوته، وأنَّ معركتنا الأولى مع أعداء الدين وأياديهم الباطشة!! ربما جرأتهم عيونهم الميتة كعينى سمكة القرش حين تمزِّق بأنياب كالمُدى ضحيّتها، تعاليهم وغرورهم وقسوة بعضهم المفرطة وسماجتهم، شعور آخر تسرَّب لذاتى منذ خطَّت قدماى أرض المدينة الجامعية حيال تلك البقعة بالذات فهى تبدو مُحرّمة وكأنَّها وكر للجواسيس سُمعة المترددين عليه من الطلبة غير محمودة يحتقرهم البعض ويخشاهم ويتجنَّبهم آخرون فهم عيون منثورة بين زملائهم وبصَّاصين على الطراز الحديث.....

بدا وجهه مُقنَّعًا من جديد بذات القناع من الكبر والخيلاء وكأنَّه استعاد موقفه الواهن سابقًا وتذكَّر كمَّ الهوان الذى كان عليه فاجتهد أنْ يبدو بصورةٍ مغايرة يسترجع بها هيبته ويقهر موقفه المُخزى وتوسلاته وانكساره :

- آسف لن أستطيع الاستجابة لطلبك، ولن أكون ذات يوم جاسوسًا على زملائى أو عينٌ لك ولا لغيرك عليهم.

(يُحملِق فىّ بعينيه الزائغتين البلهاوتين فى دهشة يبدو أنَّه يستجمِع ما يودُّ قوله) :

- لا عليك أستطيع أن أُسيّر أمورى بنفسى فقط ظننتك محل ثقة.

- الثقة والقربى أبعد ماتكون عمّا طلبته.

- لايهم لايهم..... (تظاهر بانشغاله بأوراقٍ يقلّبها بين يديه) لى رجالى وعيونى فى كل مبنى أنهوا الموقف كما أحب.

- إذن لا مشكلة نحن فى النهاية أولاد عم، أرجو أنْ لا يعكِّر هذا الأمر صفو مودَّتنا (رغم ثورتى وعدم رضائى على ما ظنّه بى وأوقعنى فيه إلاّ أنّنى كنت حريصًا ألاّ أخسره، خوفى من عاقبة ذلك وأنْ أكتسب عداوة شخص أحرى بى أن أكسب مودَّته، لكنها المعادلة الصعبة أن أخسر نفسى فى مقابل ذلك كلا وألف كلا وليكن مايكون).

(غير مكترث لما أقول ربما ضجِرًا) :

- طبعًا طبعًا لا تخش شيئًا لن يكون هذا فى مقابل ذاك أنا لا أكيل بمكيالين فقط أردت منك خدمة ظننتك قادرًا على تحقيقها.

(وكأنَّه ليس ذاك الشخص الذى كاد يبكى فى حجرتى أو ينكبَّ على يدى يقبِّلها رغبةً فى الاستجابة لمطلبه الدنىء).

- أعفنى رجاءً لست أهلاً لتنفيذ هذا النوع من الخدمات.

- هذه حريتك واختيارك فى النهاية نحن أبناء قرية واحدة وأصولنا واحدة.

(صكَّ بها وجهى كأنّه يقول لا تُرنى وجهك بعد اليوم).

ليتنى بادرته فصككت وجهه بِلا فى شجاعة وإباء فخذلته وأخزيته ولكن من أين لى ببسالة وجرأة تغيب عنّى لحظة طلبها حين أستدعى الكلمات فلا أجد إلا الخَرَس قد ألجم لسانى فأعجز عن البوح بما يختلج به فؤادى وتهمّ ذاتى أنْ تُفصح عنه فلا تستطيع، لن أصير عبدًا لدَعتى وخوفى كما تمرّدت على "جُبير" و"إسلام" سأتمرّد على هذا الدعىّ

وليكن ما يكون لن أخضع لأحد ولن أكون دُمية تحرِّكها أصابع أمير فى جماعة أو ضابط أمن متغطرس، اخترت حرّيتى ؛ فتخلّصت من سلطانهم ؛ لأكون كما أريد لا عينًا لأحد على أحد أو جاسوسًا أحتقر ذاتى قبل أنْ يحتقرنى الناس!!

انبرى بعدها فى زياراته الشحيحة للقرية أو لقاء مع أحد يمتّ لكلينا بقربى أو معرفة إلاّ وقدَّم له نصيبًا من خسّته ونذالته معى من منظور آخر:

- "محمود سالم "منضمّ لجماعات إرهابية فى الجامعة، جالى تقارير سيئة جدًا عنه أنا خايف على مستقبله، حذّرته كتيرًا بحكم القرابة وعلشان خاطر أهله ناس طيبين بس مش بيسمع كلام حد مُخّه ناشف متحجِّر.

- طول عمره منطوى وفى حاله ولما خرج من البيضة اتلم على "عبد الهادى" و"إسلام" وجماعة (حسبك) والأونطات دى.

صحيح هما مابيعملوش حاجه وحشه وشباب زى الورد بس المشكلة ف اللى ممشينهم وبيحركوهم تلاقيهم ولاد أبالسة.

كان كمن عثر على بُغيته فى حديثه مع أحد معارفنا فى القرية، هزّ رأسه كأنَّه وقع على مكمن الأسرار هاتفًا فى سريرته – الولد له جذور فى الإخوان علشان كده عامل لى فيها مناضل –

- خلاص بلّغوا والده إن ابنه ماشى فى سكه غلط وهيضيع مستقبله ومش هاقدر أعمل له حاجه أو أساعده.

ابتأس أبى لما وصله من أخبار عن ابنه البكرىّ قد تُهدِّد مستقبله وتملّكه الوجل ؛ فاستدعانى على وجه السرعة :

- خير يابابا حد منكم تعبان لا قدَّر الله.

كأنَّ الرجل أسنَّ فجأة لما ركبه من كرب وهم، صارحنى بما بلغه :

- كنت هنا أمام ناظرىّ لم يعجبنى كثير من أفعالك، انطواؤك وانعزالك ثم تعميق صلتك بفتيان جماعة المسجد، كنت أجد المبرّر وألتمس لك الدوافع، ربما ارتأيت بعضًا من الخير فى منحاك فاعتزالك عن فتيان السوء ونبوغك الدراسىّ شىء مشرِّف واختيارك خيرة شباب القرية ؛ لتكون لهم جليسًا رغم صغر سنك أضفى عليك تقوى ورجولة مبكرة، حتى علاقتك بالممرضة لم تخفَ عنّى، قلت نزق مراهقة قد تأخرت سرعان مايزول، لا تظنّ أنّك بعيد عن رقابتى أنا أُرخى لك الحبل وأثق أنّك لن تخنق به رقبتك...

(كانت أشبه بمحاكمة فردية أو كرسى اعتراف جلس فيه أبى أولاً ثم أجلسنى عليه، بعد أنْ عرّانى أمام ذاتى وكنت أظنّ نفسى أكثر مدارة وحنكة).

- ليه كل ده يا بابا ؟؟

لأول مرة يفتح لى أبى قلبه ويواجهنى بما فى ضميره، كنت أقيم الحواجز بينى وبين الناس، أهابهم وأنأى عنهم ولو كان على رأسهم أبى!

– أُقسم لك أنّ "سعد الأشمونى" كاذب في كل ما ادّعاه، إنّما يدارى خيبته فى تجنيدى عميل أمن وجاسوسًا على زملائى.

– النذل أهكذا تكون صلة القربى فى الغربة.

– أُقسم لك ياوالدى على القرآن أنَّ هذا ما حدث، صفعت وجهه الأبله برفضى فأضمرَ لى شرًا انتقامًا منّى لإهدارى كرامته.

– ربنا يحفظك يابنى ويقيك المكر والسوء ولجدّك مع أبيه شأن لا تحمل همّ شىء.

آلام نفسية جعلتنى أستثقل الأيام وكأنّ رحى الدهر جثمت عليها فأوقفتها عن الدوران أو جعلت دورانها وئيدًا متثاقلاً، لماذا أُخرجت من وحدة اختيارية لرحابة القاهرة فأعانى فيها وحدة إجبارية مع الاغتراب؟ يظنّ بى السوء رفقائى فى حجرتى "المغاورى" و"حسن" يسترقان النظر نحوى يتهامسان فينفضّ همسهما حين أقترب وكأنّى عميلٌ أمنىّ أو جاسوس زُرع بينهم، تبدَّلت مشاعر الزمالة وتراؤف الغرباء لنظرات تحتية خبيثة الطوية لئيمة مزدرية دون أن يفصح لسان، كانا أجبن من أنْ يواجهانى أو يُصرِّحا لى بما جاس فى صدريهما ربَّما خوفًا أو ضعفًا، وأنا لا تواتينى شجاعتى أو كرامتى لشىء من ذلك، تتقاذفنى التُهم الباطلة لا أدرى لماذا خطرت(نجاة) على ذاكرتى؟ غُربتها وسط قرية أبيها ومسقط رأسه وكأنّ زخم وضجيج العاصمة كان أكثر دفئًا من حضن الأقربين الذين تناولوها بألسنتهم ومزَّقوها بأباطيلهم حين تسلَّط المُرجِفون على سيرة حياتها يلوِّثون حتى نسمات

الغروب الشفافة الصافية المنبعثة فى الأجواء من حولها و كأنهم إنّما ينفثون سُمًّا يلوّث الهواء العليل!!

وهذا الغرير الأحمق المُتغطرس! لماذا أُقْحِم فى حياتى فلوّثها؟؟ كدتُ أبرأ من عنَتْ الإخوان وترّهاتهم لأسقط على يد هذا المأفون؟ فأغدو بصّاصًا حقيرًا مقابل رضائه! وما رضائه بجانب طموحى وتطلعاتى المستقبلية وما يعتمل فى ذاتى من أحلام.

التقيته مرّة بالقرب من مدخل المدينة الجامعية حييته بجفاء بدا متعاليًا تقتله الغطرسة استوقفنى للمكث معه قليلاً ربما وجدها سانحة لاستعراض عضلاته التى فقدها على باب حجرتى وكأنها قطع اكسسوار يرتديها عند الحاجة إليها وبدونها يغدو مهتزًا ضعيفًا :

– أيه أخبارك فى الدراسة بتذاكر كويس، الجماعة فى البلد مشددين التوصية عليك.

– الحمد لله كله تمام.

– احذر مرافقة أصدقاء السوء حتى لا تضيع مستقبلك فلا أستطيع مساعدتك بلغنى صلتك القديمة بالإخوان.

تحمل لكنته تورية مهدِّدة أنّ بإمكانه تدمير مستقبل من هو مثلى فى بلاهة ظاهرة لا تكاد تخفى على طفل، بدا محدود الذكاء لا يحوى تفكيره ولا ثقافته الضحلة على أقل قدر من الثقافة والفكر أو أدنى مستوىً من التحدّى والمناجزة، أغلظتُ له القول مباشرة وكأنَّ لسانى قد انفلت من أسره قائلاً :

- تخيّل أنَّ طالبًا من أسرة بسيطة لا يمتلك سوى مستقبله أوقعه حظه العاثر فى عداوة شرطىّ خرِب الذمّة، ربما يستطيع أنْ ينكِّل به ويعبث بمستقبله، تراه ماذا يكون فاعلاً بمن ضيّع أمله فى الحياة؟؟ لعلّه يكون ضياعًا بضياع ؛ فيأخذه فى طريقه غير مأسوفٍ عليه!!

فى تردُّد وتلعثُم من أدرك أنَّه انجرف نحو حافة بئر قد يسقط فيه حين طرق منطقة غاية فى الحساسية والخطورة أجاب :

- ومن يدريه من فعل ذلك بمستقبله؟؟

فرددت فى إصرارٍ وتحدٍّ زاد حين بدا تَرَدُّدَهُ جليًّا :

- لعلنى.. أقصد لعله يراجع أعماله ودائرة المحيطين به وأعداءه والمتربصين له (فى غلظة وإشارة واضحة تومىء إليه، ربما وعيها فارتعد).

لم يعد "لسعد الأشمونى" مكان فى مدينة الطلبة سرعان ماتمّ نقله لموضع آخر ربما لفشله الذريع فى قيادة أمن المدينة أو السيطرة على حِراكها الطلابىّ أو لأسباب أخرى من يدرى؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

كان علىّ أنْ أهجُر حجرتى أو أستبدلها فى أقرب سانحة لم يعدْ المكان مناسبًا لمرافقة "المغاورى "والدمياطى" اللذين نأيا عنّى وجافيانى بل وأظهر "الدمياطىّ" ميولاً إخوانية بزغت فجأة كأنَّه يتحدانى وكأنّه كان خليةً نائِمة توًّا ما استفاقت لمناضلة الباطل والضلال، انتقلت للإقامة فى مبنى آخر وحجرة مغايرة مع "مسعود

شحاتة" القادم من أدغالٍ مجاورة لقريتنا ويدرس بكلية الزراعة و"السيد الجميل" الطالب فى نهائى الطب والقادم من قرية على أعتاب الساحل بجوار بلطيم....

كان "مسعود" الفلاح الفقير يُعسكِر فى المدينة كعادة كثير من الطلاب لا يكادون يغادرونها وكأنه يكره الرجوع لقريته ربما كوخه الفقير، بادى الطول بارز العظام صلب العود له بنيان شبه قوى تكتنفه النحافة شقوق كعبيه غائرة كغور فقره، شعره رمادى هش كأنّه كومة من القش،وجهه باهتٌ وعيناه رماديتان لهما نظرة دومًا غير ذات مغزى لا يترك وراء مُحدِّثه انطباعًا مُعينًا سوى الشعور بعدم الارتياح. يتباهى بعلاقته بمكتب الأمن وأنّه يعرف (سعد الأشمونى) معرفة تكاد تبلغ حدّ الصداقة كمن يبحث عن شىء يتيه به ولو كان أمرًا مُشينًا.هو لا يملك شيئًا يخشى أن يخسره ؛ فليتباهى بصحبة رجال الأمن التى تغدو عند الآخرين تهمة يفرّون منها، يُشعرك أنّه مركز قوى يُمكّنه من انتقاء حجرات سكنى مميزة وإلحاق المقربين منه بها رغم كونه ينحدر من أسرة تعيش فى فقر مذقع، كان يغلى ملابسه الداخلية التى لا يبين لها لون من فرط قذارتها فى صفيحة سمن صغيرة فوق موقدٍ أثرىّ يقتنيه – ربّما من بقايا جهاز عرس أبويه – جالسًا القرفصاء على كرسى خشبىّ صغير(كرسىّ حمّام) يمرش (يُدلِّك) سراويله بحرفية ربَّة منزل مُحنَّكة، بينما يتفاخر بكونه الطالب الوحيد الذى يستطيع اقتناء ما يشاء من ممنوعات فى قوانين السكن الطلابىّ دون مساءلة كالسخان الكهربائى

وموقد الجاز، أمَّا "السيّد الجميل" طالب نهائى الطب ذو الوجه الضئيل المصفرّ كجسده الناحل كأنَّه مخرز مخيط فله صوت جهورىّ ولكْنَة أشبه مايكون بالسوْقة وأصحاب الحِرف تشوبه سخرية دائمة كأنَّه يسخر منْ ظروفه وأحوال المجتمع،يُتمه الذى نبت فيه مع أمِّه العجوز التى ليس لها غيره، يبدو فى حالةٍ متوازنة مع وضعه الاجتماعىّ لا يتنكّر له ولا يجعله مدعاة للفخر فقط يذكره ويتندّر له، ينتقم منه بعدم موارابته فى سرداب الخجل بل يعرّيه أمام الجميع وكأنَّه يقول :

– تلك حالى لا أنكرها ولا أتنصّل منها ولكن لا تحاسبونى عليها فقط حاسبونى على مآلى وما أُرتبه لمستقبلى رغم ظروفى الصعبة المُجحِفة.....

كان الوقت ظُهرًا بينما السيد مستلقيًا على سريره فى مواجهة البلكونة يرتدى ترننج أحمر له شريط أبيض على جانبى الأرجل والأكمام، يطالِع كتابًا فى يده يبدو أنَّه كتاب فى علم أمراض الأطفال من الصور البادية على غلافه وكأنَّه يطالع مجلة ترفيهية يُحملق فى السطور اللاتينية الجامدة كأنَّه يقرأ فيها آخر أخبار الفن دون عناء!

– سعيد بمشاركتى لك يا أخ "سيد" نفس الحجرة فأنت فى السنة النهائية وسأستفيد من تجربتك وخبرتك.

انتفض "سيّد" من اضطجاعه مذعورًا كمن لدغه عقرب أو مسَّا كهربائيًا طرَقه ؛ فبدا هُزاله واضحًا وحملق فىّ بوجهٍ مُصفرّ لم يفلح الضوء الآتى من البلكونة فى تبديده:

- هوه انتا منهم بتوع يا أخى وحسبُك وتقبيل الأكتاف.

- تقصِد من؟؟؟

- لا تتذاكى علىّ أنا متأكد أنَّك واحد منهم.

- لعلنى أخطأت حين رفعت بيننا الكُلفة كان لابد أن أخاطبك د. "سيد" فأنت أعلى منى سنًا ومقامًا.

كنت مصدومًا من ردَّة فعله أحاول تجاوز الموقف السخيف بقليل من الدعابة التى لم تنطلِ عليه فبدوت مرتبِكًا مُحبطًا (أطلع من نقرة ألاقى نفسى ف دوحديرة، أيه النحس ده)

- قول لى "سيد" سيد وبس لا دكتور ولا أخ سامع ولا أخّ دى.

يبدو أنَّ سمتى وطباعى لا زال يغلِب عليه النمط الإخوانىّ وللأسف يبدو أنَّ بينهم وبين "السيد" هذا مصانع الحدّاد ربما انطباع ذكريات سيئة أخرى.

(آه لو تريّثت قليلا يا أبو السيد لعلك اكتشفت جفوتى وانشقاقى عليهم، أما كان أولى لك أن تستشفّ أنّى إخوانىّ تائب عن طريقهم بعد أن لذت به زمنًا بدلاً من أن ترى فىّ الإخوانى القديم الذى تكرهه وأكرهه).

استطرد "سيد" فى شجاعة منقطعة النظير لا أعرف ما دفعه لهذه الصراحة التى بدرت منه دون داعٍ :

– أنا مجرد زميل لك فقط أسبقك فى سنوات الدراسة، شايف الجزمة اللى تحت السرير دى (وأومأ إلى حذاء قديم بعد أنْ أزاح عنه ملاءة مُدلاة) معايا بقالها تلت سنين وهتفضل فى رجلى لحد ما اتخرج كفاية أطلب من أمى مصاريف الكتب والمواصلات والكلية، والترنج اللى عليا ده مش هاشترى غيره إلا من أوّل مرتب أقبضه، لكنّى لا أملك التوقّف عن التدخين عادة بنت ستين....

كان "سيد" يدخن بشراهة نوعًا رديئًا من السجائر يجترّ دخانه بتمهُّل كأنَّه يرتشِفه ويستعذِبه ويطيل أمده فى أنفه وتجويف صدره ورئتيه وكأنَّه راضٍ ناقمٍ عن نفسه وحياته فهو رغم حاله شديد الذكاء متفوِّق بفطرته لكنَّه لا يصلى إلاّ لمامًا كمن قيّض نفسه لشىء واحد أن يستذكر وينجح ليحمل عن كاهل أمه الفقر والأتراح..

غدوت مرّة أخرى بين نارين لرفيقين كلٌ يقاوم فقره بطريقته الأوّل بالتقرُّب لمكتب الأمن ومشرفى المدينة ومدرائها ويشكِّل من علاقته بهم درعًا وحماية والآخر يتَّخِذ من تفوقه معبرًا يجتاز فوقه آفاق فقره، لم يخل جوّ الحجرة من التوتُّر كما لم يخل من بعض المرح حين نتجاوز حدود الترقُّب ويتجرّد كلٌ من حذره فيُعلِّق "مسعود" على "السيد" الذى يضع فى الكوب ستة ملاعق كبيرة من اللبن البودرة فيجيبه "سيد" بصوت معلم فى مقهى شعبى :

– باحب اركِّزه.

فى لهجة مشوبة بخبث الفلاحين يستحضر "مسعود" لكنته التى توارت فى زحام العاصمة و ميادينها الفسيحة :

- خللى التركيز ده بعد الجواز المثل بيقولك أيه (وطى اللمبة سنة واشتغل بذمة).

يرد "السيد" بينما يضيق عينه اليسرى غامزًا بها :

- واوطى اللمبة ليه أنا عايز أشوف كويس.

تضاحكنا جميعًا بينما استرسل "مسعود" فى شرح طقوس ليلة الدخلة فى عزبتهم البعيدة يرمقه "سيد" فى مكر بينما أغوص مع الشرح التفصيلى كأنَّه رأى العين.....

أسرّ لى مبروك ذات مساء بحديث أذهلنى :

- انتا فاكر إنْ علاقتى مع الأمن شىء سىء المفروض أداريه مش كده؟؟

فقط أطلت النظر فى وجهه فطنت أنَّه يودّ الاسترسال فى الحوار رغبة فى التداعى وإخراج مافى جوفه من توتُّر ربما تخلُصًا منْ حِمل ثقيل ناء به كاهله..

- أنا عمرى ماخبيت ده دايمًا باصرّح بيه لأنى عمرى ما بافتن على زمايلى وعلاقتى بيهم فى حدود الصداقة وبس يعنى "سعد بيه" لما يحب يبعت حاجة لأهله فى البلد والا يعوز بط بلدى والا حمام هوه والا زمايله باجيب لهم خدمة قصاد خدمة عمرى ماكنت خاين ولا غدار.

(لست أدرى لماذا استشعرت الصدق فى لكنته وحديثه فأومأت برأسى علامة على تفهمى الكامل لكل ما يفيض إلىّ به من صادق حديثه).

– لو هاودتهم على ما يطلبون لخسرت نفسى ووديت كل اصحابى فى داهية، تعرف انهم طلبوا منى تقرير عنك ورفضت قلت لهم ده واد غلبان وخام على الآخر.

(مذهولٌ كمن أُسقط فى يده لا زالت توابع "الأشمونى" لا تهدأ ولا تكف عن إثارة الغبار حول حياتى ومستقبلى).

– مش عارف الراجل ده بيكرهنى كده ليه؟

يضحك فى خبث كمن يعرف الكثير ولا يصرِّح إلا بما يحلو له.

– انتا كمان أهنته ورميتها له ف وشه خليته قد كده (و أشار بسبابته وإبهامه مُضيّقًا ما بينهما رمزًا للضآلة).

– هوه عرف يجنّد واحد من دفعتك يكون عينه على طلبة الطب الجداد نشِّن وأصاب.

(فى لهفة وتشوّف لمعرفة زميل دفعتى الذى غدا جاسوسًا "للأشمونى").

– ما انتا كنت ساكن معاه "حسن الدمياطى".

– لا لا ياعم متقولش كده ياجدع ده من نشطاء الجماعة فى الكلية وولد مجتهد ومتحمس كمان.

– ما هو علشان كده بياخد مكافآت محترمة بيصرف منها على تعليمه وكتبه وشياكته وبيجيب كمان هدايا لخطيبته أُمّال كنت فاكر ابن بتاع عربية الخضار هيصرف ويفنجر منين لو كنت خاين كان زمانى بالعب بالفلوس لعب زيه ويمكن اكتر كمان لكن زى ما انتا شايف مش عارف اشترى طقم داخلى جديد!! يالله

(يتنفس بعمق كمن يستحضر الزفرات من أغوار نفسه المنسحقة السحيقة)

(آخر ما كنت أتوقّعه "الدمياطى" الذى أذاقنى الأمرّين وكوَّن تحالفًا ضدى مع "المغاورى" الأبله وتظاهر بالصلاح والحماسة للدين يكون هو عين الأمن على الإخوان رغم كونه واحدًا منهم!!!

عُدتُ أستدعى ذاكرتى " الووكمان "والكاسيت" السونى" وأغلى البرفانات" والعطور التى كان ينثر شذاها على خطاباته لحبيبته بهدف تعطيرها ؛ فتطغى على أجواء الحجرة ويدوم عبقها طويلاً، الأطقم الكاملة من بذلات وجواكت والجينز الأصلى!! لم أفطن لكل مظاهر الثراء التى بدت عليه ولم أتساءل ما سرّها؟وأنّى لابن بائع خضروات سرّيح أن يخطب ويشبك وينفق كل هذه النفقات؟ أفيكون الكل باطل أم يكذبنى "مسعود" الحديث ليُبرأ نفسه؟)

– اللى مش قادر أفهمه "السيد الجميل" واخد منى موقف ليه ده حتى مش عاوز يشرح لى حاجه ولا قابل منى كلمة من ساعة ما سكنت معاكم.

- "السيد" متضايق منك علشان فاكرك إخوان.

- للدرجة دى ياساتر مع إنى أكدت له إنى مش منهم دلوقتى بالعكس ليا مواقف مش لطيفة معاهم.

- هوه بيكره الإخوان كُره العمى وبيقوللى انهم السبب فى فقره ويتمه.

كان أبوه حلوانى وعنده محل شغَّال كويس لحد ما أحد الإخوان فتح محل تانى وتحالف إخوان القرية وأجوارها ضده علشان دعم زميلهم فضلوا يحشدوا له الزباين ويبعتوا له قرايبهم ومعارفهم(اشتروا من اللى بيصلى الوقت بوقته وعارف ربنا) (كفاية دينه وأسعاره وأمانته)(ده حتى عينه مابترفعش فى الزباين) (صنايعى شاطر وحاجته نضيفة ورخيصة) لحد ما أبو صاحبك فلس واتقهر خربوا بيت الراجل..

- علشان كده عنده تحفُّز غير عادى!!

زادت من وحشة اغترابى صقيع الغربة وليل شتاء القاهرة الطويل وجو مدينة الطلاب - النائية عن صخب القاهرة – القاتم الكئيب، نعيق الغربان فى بواكير الصباح فوق أشجار الكافور العتيقة التى تحيط كغابة حول المبانى السكنية الضخمة تتخللها الطرق المرصوفة التى تقود إليها الآف الطلبة، القطط السمان كأنَّها نمور صغيرة مستديرة الوجه تفيض صحةً وضخامة ووخمًا ترتع فى مطابخ المدينة وبين

صناديق قمامتها العملاقة التى تزخر ببقايا أطعمة دسمة فتنالها دون جهد أوعناء، وكأنَّها مدينة جلمودية آلية يدور كل مافيها بإيقاع منتظم كل تحرُّكاتها محسوبة محسومة حتى صوت "أم كلثوم" المنبعث فى التاسعة مساء من بعض النوافذ والفارندات لتشدو "بسيرة الحب" نفوس توّاقة إليه من إذاعتها المحلية، ونتحرك كالتروس فى ماكينة ضخمة للجامعة فى الصباح وللمطعم بعد الظهيرة والخلود للنوم من العصر للغروب،عدا يوم الزلزلة الكبيرة حين ترنَّحت القاهرة كأنها تطفو فوق سطح ماء فمادت مبانيها وتراقصت ودفن تحت أنقاض بعضها أبرياء، عدا المدينة الجلمودية التى تشبه الثلاجة الضخمة التى اهتزَّت مبانيها دون أن يستشعره معظم قاطنيها وكأنَّ كل ما فيها خلد لسُباتٍ عميق فترة مابعد الغذاء الكافوريّ قليل الدسم الذى يفعل بكل من التهمه الأعاجيب يسلمه لخدرٍ غامر بعد أن يُسْلِم طيشهُ للخمول، لم أُبدِ انزعاجًا فقد كان قلبى أكثر انزعاجًا ووجَلاً، ترنَّح حوض الحمّام فظننته غير مثبت جيدًا لكنَّ الفزع غمرنى وأنا أرى الأسِرَّة والحوائط تهتز وتميل كأنَّها أوراق أشجار خريفية جافة تدفعها ريح الشتاء الباردة للسقوط، يبدو أنّنا استيقظنا جميعًا على نبأ توقُّف الدراسة وضرورة الإخلاء من وحداتنا السكنية والعودة لمحافظاتنا ليلاً حسب الأوامر الصارمة بفضّ التجمّعات السكنية ذات الكثافة كالمدن الطلابية أشبه بدولة تُجلى رعاياها أو تُخلى مدنها خوفًا عليه من الإبادة ؛ لتغدو مدينة أشباح كما تظلّ طوال فترة الإجازات، الجميع يرتحل يُلملِم شعث

أشيائه ويهرع لحمل متاعه ويتسابق فى جماعات للتوجُّه لمقرّ سكن ذويه فى أصقاع الريف النائى وفى أقاصى الصعيد.....

شىء أثلج صدرى ماكان يجب أنْ تأخذنى طباع اللؤم البشرية لهذا المنحى حين بلغنى من "إسماعيل حواش" ماطرأ على جماعة القرية من أحداث :

- فصلوا "عبدالهادى" ياسيدى اللى كان مزعلك من الجماعة، الراجل ما صدّق وكأنه ما اتعلمش منهم حاجه بيعمل أحْجبة وبيطلع عفاريت نسى أنّه مُعلم أجيال وإخوانك أيه نازلين فيه نهش وتقطيع ولا كأنه كان أميرهم فى يوم بيقولوا عليه اتجنن لكن ربنا يشهد وغلابة بلدنا انه زينة الرجال كفاية انه بيكفن الميتين ويغسلهم على السُنَّة من غير أجر غير ثواب ربنا.....

تملكتنى دهشة غامرة فُغِر لها فاهى :

- أكيد هما بيبالغوا ما حصَّلتش أحجبة الراجل رغم ما بيننا!! جامعىّ وحافظ لكتاب الله وله علم ودراية، انتا عارف اللى معاهم بيطلعوا بيه السما واللى ضدهم بيخسفوا بيه الأرض.

- ربك هوه اللى بيخلّص ، مسّكوا "مهدى" مكانه بس تحس برضه إن المكان كبير عليه ماهو اتجوز اخت "إسلام" بعد ما سفّروه السعودية واتجوز من هناك وبقى زيتهم فى دقيقهم.

- و"زاهر" و"النجَّار" ياترى أخبارهم أيه؟؟

وجم الشيخ "إسماعيل" وجومًا مريبًا حدست أنّ وراءه شيئًا يتحاشى الإفصاح عنه ربما ظنَّ أنَّ فيه مايزعجنى فأحجم و تطرَّق لعدة أمور بدا أنَّها دخيلة مُقتحمة على الحوار لم أنصت لها أو يصل لمسامعى شيء منها فاستأنفت :

- خير ياشيخ "إسماعيل" بتتهرب من سؤالى ليه؟؟؟؟؟؟؟

- بص بقى انتا عارفنى ما بعرفش اللوع "النجَّار" طول عمره صاحب قضية وتقريبا مستعد يضحى بروحه علشانها ما بيهمهوش منصب والاّ مادّة خسارة فيهم بصحيح.

(أُومىء برأسى حاثًا إياه على استكمال الحديث والدخول فى الموضوع الذى تهرَّب منه مباشرةً دون تأجيل).

فيسترسل زائغ العينين يهتز كرشه الصغير :

- بيقولوا "زاهر" خطب "نجاة" بعد ما ضمتها "سنية" أخت "إسلام" وزوجة "مهدى" لفرع الأخوات المسلمات فى البلد وبيديها دروس فى التجويد والتلاوة وتقريبًا لبست النقاب، ماهو قرّب يتخرَّج وهيا كمان ووعدوه يطلعوه السعودية زى "إسلام"..

(أُسقط فى يدى لقد تلاشت من حياتى كما تلاشت من ذاكرتى لكنّ فكرة ضياعها إلى الأبد لم تكن واردة كمن لايرغب فى شيء فيهمله لكنّه يحزن عليه حين يعثر عليه ويلتقطه سواه، ربما كانت الأنانية المفرِطة فى مجتمع ذكوريّ يحب أن يترك ولا يُترك ويجد من يتركها دومًا فى انتظار تعطّفه وإعادتها إليه)

- دى عمرها ماكانت ليك بس انتا كنت صغير وعايز تفرح بشبابك.

كلمات غير ذات معنى بالنسبة لى لكنها كانت الحقيقة مُجرّدة دون مواربة، سرعان ما تلاشى الأمر برمَّته وغدت الذكرى هى الشىء الوحيد الباقى دون سواه..

* * *

تاقت ذاتى للمدينة العمّالية الكبيرة التى تضمّ أخلاط البشر الذين اكتنفتهم مصانع النسيج فغدت المدينة كثوبٍ فضفاض مؤلَّف من قطع قماش مختلفة دونما تناسق واضح غير متآلِف فصارت ثوبًا مبرطشًا يعجّ بطبقات مجتمعية فقيرة وأخرى متوسطة وقليل من الأغنياء،عمال وموظفين من شتّى بقاع "مصر" وقُراها فى الدلتا والصعيد والثغر، تجمُّعات من البلطجية والنصابين، عدد كبيرٌ من النصارى وجموع كثيفة من تيارات الإسلام السياسى وغيره، أجراس الكنائس وأصداء الأذان أحياء مسيحية خالصة "السبع بنات" و"الحصّة"، وأحياء للأثرياء وأصحاب الفيلات (محب، وشكرى القواتلى) وأحياء للبلطجية وأرباب الأسواق (سوق اللبن، والشون) وجمهورية الصين الشعبية حى (الجمهورية) الشعبى الذى يزخر بتيارات الفقراء والموظفين والعمّال والتجّار ويسمونه "عزبة" وهو مساكن كثيرة متداخلة متراصّة دون تنسيق فيها عشوائية وزحام' تيارات فكرية شتَّى وكأنَّ التشتت والتشرذم الذى كوَّن نسيج المدينة صار سمتًا لها ولأفكارٍ حَوَتها

ولأشخاصٍ ارتأوا فيها مستقرًا ومثوىً لهم ولآلهم فى المستعمرة العمَّالية التى تحيط بالمصانع وهى عبارة عن الآف من الوحدات السكنية المتجاورة المتشابهة مؤلفة من طابق أوحد بدائية بسيطة، يحيط بكل وحدة حديقة صغيرة وسور قصير.....

كان سمتْ المدينة العمالية ثلاثة مداخن ضخمة عملاقة كأنَّها حُبلى بالدخان وبرج الساعة وتلك الرائحة التى تنتشر فى أجوائها من زيوت المصانع وشحمها ورائحة القطن والنسيج ممزوج بهم وكأنّ نسائم وأجواء المدينة تشى بطبيعتها الصناعية العريقة وكأنّ سكانها يتنفسونها وتصطرخ كياناتهم بهوياتهم.....

كنت أرتحل لهذا العالم المختلف لا لأنضوى فى صخبه ودخانه بل لأنعم بقدر آخر من الوحدة والانفراد بكتبى وأوراقى فترة لمراجعة النفس كلما حزَبنى أمر مع جدَّتى لأمىّ وخالتى ؛ فأقضى ليلى فى عزلة بعد أنْ تخلدا إلى نوم بكير وكذا النهار الذى لم يختلف كثيرًا فقد كانتا دومًا منشغلتين - بودودتهما- (مناجاتهما)وشئونهما الخاصة، فأطوف أرجاء المدينة أشهد طوائفَ تنتهج أفكارًا شتّى، مسجد (أبى بكر الصديق) ذلك الكيان السلفىّ المدعو "بالجمعية الشرعية" أو مسجد السُنّية، ضآل تائه أبحث عن استقرار نفسى التائهة المؤرقة فى صلواتهم التى تستغرق النفس والروح معًا ؛ فيطيلون التلاوة والركوع والسجود ويتزيّون بالعمائم يرخون عدبتها بين أكتافهم والجلباب القصير واللحى الكثّة الغامرة ، جماعة أخرى ترى فى التبتل والاستغراق فى العبادة

والالتزام بطريقة فى اللباس والسمْت منهجًا مميزًا يهادنون الحكومة وتهادنهم ليس بينهم نزاعٌ أو مواجهة.....

فى طريقى للمسجد كان ثمّة محل يبدو أنّه لتصليح الغسّالات لاثنين من الشباب الملتحين : أحدهما يرتدى نظارة طبية من زجاج سميك والآخر مكتظ سمين يتدلى كرشه فوق فخذيه.ورغم كونهما دائمى الجلوس أمام محلهما فى مواجهة المسجد إلاّ أنّنى كنت أعجب لعدم دخولهما إليه أوان الصلوات رغم مظهرهما المبالغ فى تدينه، لا يرتادونه للصلاة ولا يسرعان لتلبية النداء وهم مع ذلك يحملِقون فينا بحنق وكراهية سألت الشيخ "عبدالموجود" الذى نشبت بينى وبينه ألفة من تكرار تردّدى على المسجد :

– ماشأن هؤلاء يا شيخ "عبد الموجود" إنّهم حتى لا يردّون التحية ولا يجيبون السلام؟؟

– لاتشغل نفسك يا ولدى بما لا ينفع أو يفيد دع الخلق للخالق،(يسترسل فى طيبة بادية ووجهٍ بشوش سمح يغمغِم أولاً : لله الأمر من قبل ومن بعد يارب غفرانك).

– الحكاية يا أستاذ إن دول من أفراد "جماعة المسلمين" اللى الحكومة بتسميهم "التكفير والهجرة" ومنهجهم بيعتبر أنهم جماعة المسلمين القائمين على أصول الدين ومن عداهم كفار يجب استتابتهم.

– ولكن لماذا لا يُصلّون معنا رغم أن الأذان دعوة لجميع المسلمين وليعتقدوا فينا بعد ذلك ما يشاءون.

– هم يعتبرون مسجدنا هذا مسجد ضِرار لا تصح الصلاة فيه وأننا جموع من الكفرة والمنافقين لا يجوز لهم الصلاة معنا، ربّما ودّوا لو منحوا قوةً وانتشارًا فأحرقوا المسجد علينا كما أحرق رسول الله ﷺ مسجد المنافقين فى المدينة، وهم يقولون بالتقية والموارة يعنى لا يحتكوا بالكفار رغم اختلافهم معهم حتى تقوى شوكتهم ؛فينطلقوا من عهد الاستضعاف للتمكين والقوة.

– ربما أخذوا درسًا من "شكرى مصطفى" وإخوانه حين قتلوا "الشيخ الذهبى" فأودوا بأنفسهم وجماعتهم الوليدة.

– ولا تنسى "صالح سرّية" وتنظيم (الفنّية العسكرية).

– نعم لعلهم أخذوا درسًا كافيًا جعل بقاياهم وفلولهم تتمهل قبل الإقدام على أى عمل مجنون.

– ولهذا ترانا نعتزل كل هذا الدنس ونعتبر السياسة رجس يجب اجتنابه كما يجب علينا طاعة الحاكم ولو كان ظالمًا أو مُقصِّرًا ما دام لم يعطّل شرائع الله وها نحن نصلى ونصوم ونتعبد دون أنْ يسىء إلينا أحد، نحن والحكومة كفَّتا ميزان هم يمنحوننا الحق فى التأسّى بسنة نبينا وطرق الدعوة السلمية فى المساجد وخارجها ونحن لا نتدخل فى السياسة وأمور الحكم من قريب أو بعيد، أما تراها معادلة متوازنة، إنّ أحبابًا لنا قد تبنَّوا دعوة (التبليغ والدعوة) يخرجون بالأشهر يضربون فى سبيل الله لدعوة الناس للالتزام بالنهج القويم للدين من صلاة وصيام

والتزام وبعد عن الفواحش لا يتَعَرَّض لهم الأمن بسوء بل ربما مهدوا لهم سبلهم وذللوا لهم العقبات.

فى دهشة وانفعال ارتفعت حاجباى وضوّى فى عينىّ البريق :

- يخرجون بالشهور ويتركون ذويهم دون نفقة من أين يتعيشون؟؟

- النبى قال (اعقلها وتوكَّل) إنَّما يدبِّرون معيشة ونفقة ذويهم قبلها بفترة ويتناوب الإخوة فيما بينهم على ذلك... فأى متعة فى الحياة تعدِل الضرب فى سبيل الله؟؟

لم ترق لى فكرة أن يترك أحدهم أسرته ويهيم على وجهه يترك لهم قُوتَهُم بالكاد لينام فى المساجد ويطرق باب الفلاحين فى العِزب والكفور ليدعوهم للصلاة، ربما كان لكلٍ وِجهة نظر يرتئيها يرى فيها الصواب وما عداها الخطأ فهم وإن لم يؤذوا أحدًا فإنهم يؤذون أنفسهم وأهليهم..

يسترسل الشيخ "عبد الموجود" المُعمَّم الذى يفيض من عينيه نور ومن وجهه سماحة :

- أمَّا هؤلاء (يقصد التكفيريين القابعين بجوار باب المسجد لا يطرقونه أبدًا بينما يحملِقون فينا جيئةً وروَاحًا ربما ردَّ أحدهم سلامنا تُقية ومواراة وربَّما أدار وجهه نفورًا منَّا واحتقارًا لنا) فالعجب العجاب من أمرهم أنّهم من عائلة تكفّر بعضها بعضًا فأبوهم سلفى يصلى معنا وأشار إلى رجلٍ قارب السبعين قد انحنى ظهره له لحية بيضاء تنتشر

كجناحى طائر على صدره، والأخ الأصغر إخوانىّ النهج ولهم أخت قد تزوجت من موظف مستهتر هداها الله تغدو وتروح مبدية زينتها فى تبرّج واضح يقاطعها إخوانها هى وزوجها ويقولون هى معلّقة فى رقبة هذا الزنديق لا حكم لنا عليها!!!!!

ابتسمتُ متعجّبا من أمرهم وحالهم الأشبه ما يكون بحال مصر أبناء وطن واحد وأرض واحدة ولكن قلوبهم ومنهاجهم شتَّى .....

واستطردت قائلاً :

- إذا كان هذا حالهم مع ذويهم فكيف يكون حالهم مع النصارى الذين تعجّ بهم المحلة الكبرى، ربما كان هذا أدعى لبثّ بذور الفتنة والشِقاق؟؟

- لا والله يا ولدى فهم يُحسِنون إليهم بدعوى أنَّهم أهل كتاب أمر الرسول ﷺ بالإحسان إليهم.

قهقه الرجل من فرط الهمّ ربما من مضحكات مصر التى تفكهك لحد البكاء كما ذكر المتنبى!!

اقتربت بحكم الجيرة من الشيخ "عثمان" الذى كان يكبرنى بأعوام كان أسود الوجه كأنّه نوبى أصيل هزيل قصير ناحل وجهه المثلث ذو اللحية التى لم تنتشر فى أرجاء وجهه كلها بل فى عارضيه وأسفل ذقنه فقط،غدوت أقترب منه بهرتنى دنياه الجديدة بفكرها الرَحْبْ، دومًا هازلاً يبسُم وجهه فيضيء رغم سواده لا يبدو عليه مطلقًا أنَّه يتبنى فكرًا

جهاديًا متشدّدا لكنه فكر مجرد فكر والسلام اكتسبه من طول تطوافه بالكتب الأصولية ومنهاجها القويم كان أشبه بدودة كتب ومراجع إسلامية لم أسمع بها قبلاً، كان علىّ أن أُقحِم نفسى فيها بعين التطفّل والنهم لا البحث عن الذات أو دور أشغله فى الحياة فقد زلزلت كيانى تجربتى السابقة مع الإخوان لم يعد بى طاقة ؛ لتبنّى أفكار أخرى أو العمل فى جماعة ربما لم أُخلق لهذا أو لم يكن ذلك خليقًا بى :

- ولماذا لا أكون كالمتنزه على شاطىء جدول أحظى من نسائمه الطريّة بالمتعة دون أن أغوص فى بحر مائه لأكتشف فى النهاية هل كان مالحًا أم عذبًا؟ربما بعد فوات الأوان فلأكتف بمتعة المشاهدة ورؤيتكم تسبحون ربما تستمتعون أو تصطلون بنارٍ كالمهل تشوى الجلود!!

- تعرف بداياتى كانت ازاى؟

- لأ طبعًا بس احكيلى.

- مش فاضى رايح لزيارة بعض الأصدقاء لو ما عندكش مانع وتحب تيجى معايا أهلا وسهلا.

- طبعا موافق مش ممكن أضيع على نفسى حديثك الممتع ده المهم ما تسببش صحبتى لك إزعاج.

- إزعاج أيه تعالى ياراجل.

أسير متأبطًا ذراع "عثمان" الذى لم يرتد الجلباب ولم أشهده يرتديه أبدًا وسط شوارع تقودنا لحارات وبيوت عشوائية متداخلة تكاد تلتقى

من فرط تقاربها بينما القمامة مبعثرة فى كل الأرجاء تفوح منها رائحة العفونة، يبدو أنَّ مِعول الإهمال البغيض قد أفرخ وباض وسط هذه الأكوام التى تتوسط الحارات والبشر.

- لم أكن أعبأ بالالتزام ولا بالكتب فور انتهائى من (دبلوم الصنائع) كان اهتمامى مُنصبًّا على لعب كرة القدم والحصول على فرصة عمل مناسب ربما لم أكن أعنى بأداء فريضة الصلاة ولا أكُفّ عن التحديق فى أرداف النساء تقودنى عيناى كأنها تسوقنى نحو عجيزة محترمة أو صدرٍ ناهد فأمضى وراءه لا آبه لشىء سواه..

كانت هناك مظاهرة ربما لا أتذكر سببها يقودها مجموعة من الملتحين بجوار (الشون) وكنت عائدًا لتوّى من مباراة كرة قدم فى نادى الشركة لفت نظرى أحد العساكر يطارد صبيًا صغيرًا حتى سقط الصبى على الأرض ورفع الجندى هراوته الغليظة ؛ ليهوى بها على الصبى المسكين كادت الهراوة تسقط فوق رأسه التى ربما هشمتها، فدفعنى دافع الشهامة أن أسرع بإمساك الهراوة قبيل أنْ تسقط على الصبى، فاغتاظ الجندى الذى رفع هراوته مرة ثانية ليهوى بها على ساقى التى كادت تنكسر من قوة الضربة نظرت فى عينيه وأنا أتابع سيرى عرِجا مترنحًا وقلت له :

- بس أنا برضه أجدع منك.

نظر إلى متألمًا فى خجل لا ينبس بحرف، بينما لاحقتنى دعوات البعض وعبارات الثناء والتشجيع. (الله يكرمك يا شيخ – ربنا يكتر من

أمثالك – هى دى الشهامة والمجدعة) شعرت أننى الذى أصبته بالألم وانتصرت عليه ، كانت نقطة فاصلة فى تاريخ حياتى عُيّنْتُ بعدها موظفًا كتابيًا فى مصنع سماد "طلخا" وسكنت فى مساكن العمال والمغتربين هناك وجلست إلى الشيخ (أبو إسحاق الحوينى) جامع الأحاديث ومصححها وإلى الشيخ (إحسان) وقرأت فى (العقيدة الطحاوية) و(نيل الأوطار) "للشوكانىّ"، صرت كدودة كتب أحيا بين الأوراق والأفكار أتقلّب بينها ولا أرضى إلاّ بالفكر السلفى والأصولية الإسلامية لكنى سأظل أقرّ أننى لست أنتمى لجماعة بعينها ولكن آخذ الخير من المجموع.

– صرت مثلى لكننى تبنيت الفكر الإخوانىّ زمنًا حتى تبيّن لى أنّه ليس الأمثل..

نظر إلىّ بعد أن توقّف أمام منزل قديم من طابق أوحد تحيطه الزراعات ها قد وصلنا، لكن نقطة أخيرة قبل أن نزور صديقنا ونطرق بابه :

– هم هنا لا يحبون الإخوان يعتقدون أنهم جماعة وصولية انتهازية همَّها الأول تجميع الأنصار! ألم يقل "البنا" أنهم طريقة صوفية وفرقة رياضية وجماعة سنية، (يضحك فى صمت)– كمن يريد أن يستحوذ على الكل – تهدف للوصول للحكم بأى ثمن ولو على حساب مبادئها وشرائع الله يكفى استساغتهم الغناء وتقنينه إنهم يشجعون الأناشيد ويحفّون اللحى ولا يجدون غضاضة فى الانضمام للأحزاب...

(يكفى هذا دعنا ندخل حتى لا يلفت الأنظار استطالتنا الوقوف أمام الباب)

يطرق طرقًا خفيفًا فيجيبه صوت من الداخل :

- مَنْ؟

- عثمان.

يفتح الباب رجل ملتح موهن القوى نحيف لا يبدو من وجهه سوى عظام ولحية ونظارة طبية كثيفة يبدو أنه فى منتصف الثلاثينيات وأنّ مظهره العام يمنحه ضِعف عمره تقريبًا يرتدى جلبابًا وطاقية شبكة، يعانقه عثمان فى حميمية ومودَّة :

- حمد الله على السلامة ياشيخ أحمد غُمَّة وانزاحت ربنا يجعلها آخر المِحن.

فى ردهة بدائية مؤلفة من أريكتين متقابلتين وخوان بسيط دعانا للجلوس كان الضوء الخافت المنبعث من مصباح الإنارة الكهربى يضفى على المكان غموضًا ورهبة.

- ثَ ثَ ثَانية ويكون الشاى جاهز.

يبتسم فى وجهى بودٍ مشوب بالترحيب بغريب لم يلقه ولا يعرفه ؛ فتغوص عيناه الهائمتان خلف نظَّارته السميكة وكأنَّهما نقطتان تنبعثان بالضوء :

– أهلاً وسهلاً م م م رحبًا يا أخخخ ى الكريم مش تعرّف ففنا يا "عثمان"؟

– الأستاذ "محمود سالم" من الأقاليم جاى يزور جدَّته وهو طالب طب ومهتم بالقراءة فى العلوم الإسلامية.

– ت ششر ررفنا يا استاذ م م نهم لله ض ضربونى على دماغ غى جامد كنت هام موت بس ربنا سلّلم.

يتدخّل عثمان ؛ ليزيح عن كاهِل الشيخ أحمد عبء الحديث الذى غدا لا يجيده وأصبح تلعثمه فى الكلام آفة ملازمة له.

– الشيخ "أحمد" قارىء لا يشق له غبار أفنى عينيه فى أمهات الكتب والمراجع والعلوم الإسلامية له مكتبة كأنها دار الوثائق القومية لكن فى فروع الدين والحديث والتفاسير والملل الدخيلة عليه وكذا شئون الجماعات الإسلامية تقدر تقول عنه شخصيًا أنَّه مكتبة متنقلة لكنّه اعتقل ظلمًا منذ بضعة سنوات وأصابه الظَّلَمة بهذا الداء الوبيل بعد أنْ كان خطيبًا مفوّهًا يهزّ العقول قبل المنابر عقِب أنْ أمعنوا الضرب فوق أم رأسه التى لو فطنوا لقيمتها لقبَّلها كبيرهم قبل صغيرهم..

رغم جدّية الحوار إلاّ أنَّ أسلوب "عثمان" السلِس خفّف من حدّة الموقف، تمثّل لى "أحمد" شخصية أسطورية أثارت إعجابى قدر ما استثارت شفقتى، أخذتنا أحاديث ودية نحو (الأزهر) الذى فقد علماؤه بريقهم ودعاه "أحمد" هازئًا – أزهرست – وعن "جماعة المسلمين" التى رأت فى كل شىء يخص المجتمع كافرًا خبيثًا فهجر الموظفون

وظائفهم بحجة أنَّهم يقبضون رواتبهم من مال البنوك الربويّ واعتزل الطلاب منهم جامعاتهم ورفضوا تعليمًا يخالف شرع الله وسنّة نبيه واعتزلوا كل ذلك ؛ ليقيموا مجتمعًا إسلاميًا مثاليًا كما كان المسلمون الأوائل، يرعون الأغنام ويتداوون بالحجامة والأعشاب ويزرعون الأرض ولا يدنسون أنفسهم بالسير فوق أراضى الحكومة الكافرة المرصوفة ولا يدخلون الكهرباء النجسة دورهم الطينية البدائية بما تأتى به من روافد الراديو والتلفزيون الفاسد..

خُضنا فى الحديث عن فكر الجهاد والتغيير بالقوة وتبنّى بعضهم العنف وإباحة الاستيلاء على أموال "النَّصارى" ومحلات الذهب ودماء المخالفين،ما آل إليه حال المجاهدين الأفغان حين تحوّلوا من نضال الروس إلى نضال أنفسهم فصائل متناحرة تطحن بعضها بعضا، لست أدرى لماذا قفزت لذهنى صورة الشيخ المجاهد " عبدالتواب" وأفغان "المبرّة" تُرى مع أىّ فرقة من المتناحرين يجاهد وإلى مَن منهم ينتمى؟؟ أتراه وإخوانه يقاتلون مخالفيهم من بنى دينهم وجلدتهم بذات الحماس الذى كانوا يقاتلون به الشيوعيين والملاحدة؟؟

كأّنها بحر من العلوم لا ينضب رغم ثأثأة "أحمد" وصعوبة نطقه الكلمات أهدانى كتابًا لوهابىّ من الجزيرة وغادرنا على وعد بزيارة لم تتكرر ولم أصادفه بعدها أبدًا.

اقترب موعد أوبتى فقد قاربت الإجازة على الانتهاء لكنّ خِضَمّ الأفكار المتصارعة فى ذهنى التى أضافتها زيارتى الأخيرة لمدينة أمى أقضَّت مضجعى، أثار أمرهم استيائى وقلقى لم أشهد فى قريتى مثل

هذه الأطياف المتماوجة المتنافرة التى تغدو كموج يصطك ويتناحر ولا هذا الصلف والعناد، وجوه مكفهرة يكسوها الحنق تنظر إليك كأحد المنافقين الذين فى ضلالهم يعمهون، وأخرى تدَّعى السماحة وتفيض بِشرًا ومودّة بينما تظهر مخالبها إذا استفزَّت أو استشعرت الأمان فى حضرتك، كيف ينعم مجتمع بالأمان تموج فيه هذه الانقسامات كأنَّه مِرجل يئزّ تحت نار الفرقة والتشرذم وكراهية الآخر لحدّ إخراجه عن صحيح الدين ونعته بالكفر أو الضلال، تصورتهم كالبركان الذى تغدو قمّته هادئة بينما يموج باطنه بالفوران استعدادًا لقذف حممه وصخره المُذاب وحوله المُخلِصون الذين لا حول لهم ولا طول لا يدرون عن أحوال هذه الجماعات وكيدها شيئًا ولا يكفّون عن الدعاء والتقرّب إلى الله ولو بالتوسّل بالأولياء والصالحين طالبين من الله رحمة قريبة وأنْ يحفظ أبناءهم من كل سوء.............

(كلهم فى النار إلا واحدة، كلهم فى النار إلا واحدة) تطنّ فى أذنى هذه الجملة من حديث شريف رواه لى "إسلام" فى قريتنا لست أدرى لماذا عاد يطنّ فى أذنى صداه:

(تختلف أمتى على إحدى وسبعين فرقة كلهم فى النار إلاّ واحدة) ربَّاه من تكون لقد اختلفت الأمة فمن تكون الفرقة الناجية من نار السعير؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

وصلاة الآخرين وصيامهم وزكاتهم وتبتلهم ودعائهم ما يكون موقعه؟ هل كنت فى الركب الناجى حين التحقت بالإخوان؟ وهذا

المُعمّم المُسِنّ الذى يسابقنى الخطى بهمة ونشاط نحو باب المسجد أفلا يكون فى فرقة الناجين؟ وماسح الأحذية هذا الذى لايقرأ ولا يكتب لكنه يقفز نحو المسجد كلما استمع الأذان مع من يكون ياترى؟

أفلا يشفع له صلاحه وإنْ لم يزكّه بجهاد فى النجاة من السعير؟؟

ربما كانت النجاة فى هذين القابعين أمام بوابة المسجد لم تمسّ باطن أقدامهما أرضه، ربما كانا ينتهجان الفكر السديد وماعداهما باطل فى ضلال وتيه!!

ولكن ما للبسطاء وهذه الأفكار المسمومة أين أبى وأمى وجدى وجدتى الراحلة التى لم تفك الخط ورجتنى قبل أن تموت أنْ أُعلّمها الفاتحة ؛لتصلى بها حتى تلقى ربًا كريمًا،وجدتى لأمى التى تصلى رغم عجزها عن الحركة ولا تترك فرضًا ...

إنهم ليسوا إخوانًا ولكنَّهم مسلمون وجموع المصلين الذين لا يمتّون بصلةٍ لجماعة ربما لم يسمعوا من خبرهم شيئًا لكنى أنتحب لنحيبهم وبكائهم وخشوعهم لله!!

مايكون مصيرهم إذا كانوا لم يسمعوا عن "البنا" ولم يحفظوا رسائله ولم يقرءوا "العقيدة الطحاوية" ولا "الفريضة الغائبة" ولا "الرسالة القُشيرية"؟؟

أى تيه وضلال بل أى حظ أسعد انتشلنى من هذا الخضمّ فى التوقيت الأكثر مناسبة وتوافقًا، ها هنا بدوا كنقطة فى بحر بل يشوبهم

النقص والاتهام يتهمونهم بالتفريط فى السنن وحلق اللحى والتمرد على زىّ رسول الله من جلباب وعمامة وإباحة الإنشاد والتغنّى ويتهمهم الجهاديون بإسقاط فريضة الجهاد والتفريط فى حدود الله والاستغراق فى مواءمات سياسية يبتغون بها عرض الدنيا والمناصب والحكم!!

ألا تبًّا للجميع.....

تستشرى العداوة فيما بينهم فيتصارعون على الاستحواذ على مسجد من مساجد الأهالى وفرض سلطانهم عليه وكأنَّ بيت الله لن يصير كذلك إلاّ حين تقبع فيه أفكار بعينها ينتهجها هؤلاء وأمثالهم فيغدون أئمة وقادة، ربما تعاركوا بالأيدى وتنابذوا بالألقاب وأصبح بيت الله مرتعًا لهوام يرتعون فى ماديتهم وصلفهم لايعبأون بحرمته ولا قدسيته، يريدون أنْ يجعلوا منها قلاعًا وحصونًا يربضون فيها ليعودوا ويخرجوا منها كالجراد الذى يُحيل الحقول الخضراء إلى رماد وخراب، لا لا لن أكون معهم وأنبت فى تربتهم وأنزلق فى أوحال تطرّفهم.....

يكفينى ما عانيت منْ برودة وجفوة غمرتُ فيها روحى كدِثار يقطع عنى نسائم الرحمة والراحة. لن أبغض العَلم وأدّعى أنَّه صنم كما يقولون وأحرِّم تحيته والوقوف له، سأظل أطرب للصوت الجميل وأتمادى مع النغمة الحلوة والمعنى الرائع،لن أكره الغناء والصوت الرخيم ولأصدح بحب "الحصرىّ" و"الحذيفىّ" وتغريد "عبد الوهاب"....

ألم يخلق الله النغم الشجىّ فى تغريد البلابل ودعاء الكروان وزقزقة العصافير؟؟

ألم يبدع بريشته أروع الفنون وأجمل الألوان فوق أوراق الزهر وفى ألوان الطير وقشور الأسماك؟ هو خلق الجمال الذى عشتم زمنًا تنفروننى منه فأتوارى حين أستمع لحنًا شجيًا وبعدها يقتلنى الندم، لن أستمر فى كراهية وتكذيب كل ما تصدره الدولة من صحف وأخبار وأتوهم العكس والأسوء، يكفينى انفصالى عن ذاتى التوحّد والتشرنق معهم فى مجتمع وهمىّ من نسج أيديهم فأُسجن فى بوتقة كبيرة كبيرة ؛ لأتنسم هواءهم ونتبادل الشهيق والزفير!!

يكفينى شعور قاسٍ أنانىّ أنّنى وصُحبتى من الناجين بينما يتهاوى أهلى وأحبابى على حافة السعير، وما عانيت من انقسام وشعور بالفصام عن كل موروثاتى وأصولى وكل جميل أحببته وعشقته حتى القراءة والاطّلاع كان علىّ أنْ أقرأ ما يُعيّنونه لى من كتب وأرفض ما ينهوننى عنه وكأنّهم ماعادوا يسيطرون على أفكارى وتوجّهاتى فقط بل صاروا مسئولين عن المادّة التى أُغذى بها عقلى والتى يجب أنْ أحشو بها رأسى دون سواها و لن أعد بعد اليوم منهم ولو منحونى مفاتيح الجنّة وصكوك الغفران ولو كانوا حرّاسًا على أبوابها، وسأعبد ربى كما يعبده أبى على سجادة صلاة فى بيتنا الصغير أو جدّى فى مسجد القرية أو حتى أمى وجدتى بقلوبهما المطمئنة الآملة فى عفو (الله) تعالى وغفرانه ولو لم تجيدا تلاوة الفاتحة وتوسلتا بالأولياء والصالحين، سأعبده كما عبده كل الناس من لدن عهدنا هذا إلى عهد الرسول الكريم ﷺ، سأتخلّص من

قيدى ولن أظل خاضعًا مسخَّرًا كالآلة فى محراب (راسبوتينهم) الرهيب، وسأفخر رغم أنوفهم "بالأفغانى" الذين أنكروا أصله وقالوا شيعىّ باطنىّ من 'أُزد آباد'، والشيخ "محمد عبده"، و"مصطفى كامل" و"سعد زغلول" الذين قالوا عنه مقامر فاسدٌ شرير وكأنهم أوتوا معاولاً لهدم 'الأهرام' بدعوى انتمائها لعصر الكفر السحيق، ولأضحك من قلبى على فكاهة "الريحانىّ" وظرف وطيبة "سُمعة"، سأظل أقرأ ماحييت فى [القرآن الكريم والتوراة والإنجيل] "للعقاد" و"الرافعىّ" و"طه حسين" سأميز الغثّ من السمين والنافع من غيره،والخبيث من الطيب، لكنى سأتنفس هواءً نقيًا من أريج نسمات الحرية فى بلادى التى يتدفق عبقها كماء نيلها منذ آلاف السنين، سأعود لإهابى وأنسلِخ من جلدٍ سربلونى فيه فصار الغل أو القيد كلما حلَّقت روحى وطارت ارتدَّت ثانية إلى الأرض رضوخًا لتعليمات الأمير الخاضع بدوره لأمير منطقته الخاضع بالتبعية لأمراء القاهرة ومرشدهم سلاسل من التبعية والخضوع والانبطاح وكذا القمع والبطش والتناحر والانتقام بينهم وبين أنفسهم وبين الحكومات المتعاقبة من عصر الملكية للاشتراكية الديكتاتورية وما أعقبها من انفتاح حتى عصر التحلُّل وسيطرة رجال الأعمال بنفوذهم على الحكم والتضليل!

سأعود أنا وأنا فقط بحُلوى ومُرّى نجاحى وفشلى نزقى وجنونى تمرُّدى وسكونى كما خلقنى الله وأرادنى أنْ أكون لا كما يريدون تشكيلى كالصلصال وتغيير ملامح ذاتى ووجدانى...

* * *

كان الجنوب يُداعِب خيالى منذ الصغر أنا أتصوره مجتمع لا مثيل له بتماثيله الضخمة وأعمدته العملاقة كما شهدتها فى التليفزيون، وادى الملوك ومقبرة "توت" وبيت "كارتر" فى القُرنة أعلى التلة، وهاهى الفرصة قد واتتنى قطار الشباب الجامعىّ الذى سوف يقلّنا بسعرٍ زهيد إلى أرض الخيال والأحلام ، كنت طالبًا فى السنة الخامسة بالكلية توالت خطاى فيها أجتاز بعضها بيسر وأخرى بمشقة لكنَّ هذا لا يوقف عجلة تتابع الدراسة عن الدوران، أصبحت أكثر نُضْجًا وتودُّدًا للحياة، يكفى أنَّنى اقتربت من بؤر النيران وذقت لسعتها، فعرفت كيف أصنع لذاتى مساحة بينى وبين الخطر، أُحلِّق حوله كفراشة لكن لا يبهرنى ضوؤها فيخفى عنى حقيقة نارها الحارقة وحجزت للرحلة الرائعة التى طالما تمنيتها، يوم الجمعة مساءً يقلنا قطار الشباب نحو الجنوب..

كانت المصيبة أكبرمن أى توقُّع دائمًا تقتحمون تفاصيل حياتى فتصبغونها بالكآبة والسواد، طعم الردى ونكهة الموت ورائحة الخراب والفقد والألم!!!

طالعتنا أخبار المساء بأحداث مؤسفة فى معبد "الدير البحرىّ"، هجوم خلية إرهابية على السائحين وقتلهم والتمثيل بجثثهم بقر البطون وجدع الأنوف والآذان بدم بارد

لا فرق يستوى الكل فى القتل والتنكيل سواء حتى النسوة والأطفال وخصوصًا نسوتهنّ أشباه العرايا اللواتى يظهرن لحومهن شديدة البياض الضاربة للحمرة (ليتهن كن سبايا نصيب من لحومهن الدفء والحنين)!!

لم يبالغ أبى فى الاعتراض على الرحلة ولم تُثننِ دموع والدتى عن الرحيل، كان والدى بيتوتىّ لايبرح المنزل إلاّ لمامًا يغادره فقط إلى عمله ثم يئُوب إليه بحنين جارف ولهفة كأنَّما يتوق لحبيب طال غيابه عنه :

- لا تخش شيئًا يا أبى ولا تحرمنى من هذه الرحلة.

- ولكن الحادثة البشِعة لم يمض عليها سوى بضعة أيام.

- هذا أدعى للاطمئنان سنكون فى حراسة الداخلية بكامل قواتها وأنت تعرف أنهم كثّفوا من تواجدهم وتعزيزاتهم الأمنية فى الأقصر والصعيد كله، كما شاهدنا رئيس الجمهورية بعد سويعات من الحادثة قد توجَّه للمدينة فعاين مكان الحادثة فى "الدير البحرىّ" وأقال وزير الداخلية وعاقب المتقاعسين منهم.

يبدو أنَّ الكلام قد صادف موافقة من والدى الذى كان يحسم كثيرًا من الأمور بعقلانيّة تامة اعتمادًا على ثقته المطلقة في كل ما أقول وأفعل :

– نعم يا محمود فجميع قنوات التليفزيون تنقل صورًا من الأقصر اليوم فى غاية البهاء والنظام والانضباط.

– يجب أنْ تطمئن يا أبى وتُهدِّىء من روع أمّى لا داعى لتحميلها الأمر أكثر ممّا ينبغى وهى فى النهاية مُجرّد نُزهة طويلة لمدة أسبوع ومعى شباب من كافّة الجامعات حتى "وحيد" صديق طفولتى اشترك من خلال جامعته ؛ ليصحبنى ونستمتع سويًا .....

فَكِهًا أطرد ما داخلنى من وجلٍ وقلق :

– سنكون هناك فى حراسة الداخلية بجلالة قدرها من يقدر يُطرف لنا جفن؟؟

كنت أبحث عن التاريخ بينما يمحِّص وحيد عن الحبّ لله درّ قلبك العليل الذى لن يتوانى عن مطاردة الحسناوات الشقراوات بدعوى إجادته للغة الفرنسية فقد كان فى عامه النهائى فى 'كلية الآداب' وحاصل على الدكتوراه فى فنون العشق والجمال كما يقول عن نفسه دائمًا.

كانت الرحلة رائعةً رغم انقباضة اعترت صدرى أوان أوَّل تحرُّكٍ للقطار الذى تسلَّل بخفوت بين جنبات الوادى المُفعم بتواريخ القدماء والآثار والثآرات والصورة الكرتونية للصعيدى الغِرّ فى عمامته وجلبابه وحسن طويته، ظللت أرقب الطريق طيلة ليلة كاملة لم يغمض لى فيها جفن بينما غطَّ "وحيد" فى سُبات عميق أشبه بالموت، كانت المدن نائمة هادئة يغمرها الضوء الصفر المنبعث من أعمدة الإنارة فى مداخل المدن

وقليل من الأضواء المتسلَلة من البنايات والبيوت، يبدو أنّ كلّ شيء خلدَ لنومٍ عميق عدا القطار وأنا فقد كنت مستغرقًا فى ارتشاف رحيق النشوة من كأس مُترع بالنور الأصفر القشيب، هل هذا هو الصعيد مهبط الأساطير ومستقرّ الفراعين العظام؟ أرض الشمس القاهرة والحرارة العاتية التى تعصف بالرءوس، العنجهية والعصبية "طه حسين" و"العقّاد" "المنفلوطىّ" و"الطهطاوىّ" ولا يبدو خلف زجاج نافذة القطار سوى محطّات ومدن بعضها بدائى وبعضها صاخب كأسيوط والمنيا،وبيوت وظلام دامس حول حقول القصب وهذا النيل الذى يرافقنا ويبدو أنَّه يرتحل معنا فى هذا الليل الساحر البنفسجىّ الرطيب!

"مغاغة" "طهطا" "أسيوط" "جرجا" "قنا"،أسماء مدن ارتبطت فى ذهنى بأشخاص وأحداث. ليست مدن الصعيد وقراه كمدن الشمال طعمٌ خاص يعكس ثقافة وعمقًا وكأنَّ كل ذلك تمهيد وتقديم لدخول المدينة المقدسة المهيبة التى تسلل إليها القطار حين بزغ النور ونفضت شمس الصباح بكفها الواهنة عن كتفها كسوة الظلام البغيض، كأنّ طقس الجنوب ومراسمه التطهر بالنور أنْ يغمرك شعاع الشمس فيربت على رأسك قبل أنْ تدقّ قدماك أرض اغتسلت فى طهر 'بحيرتها المقدَّسة' فى ساحة "الكرنك" الهادرة....

يتثاءب "وحيد" الذى انتفخت عيناه منْ جرّاء النوم غير المريح مستندًا برأسه على نافذة القطار ويتمطَّى بيديه يحدقّ فى وجهى يبدو أنَّ

ضوء النهار والجلبة التى أحدثها توالى استيقاظ الرفقاء أقضَّت مضجعه غير المريح :

– انتَ لسه مفنجل يا أخى مانمتش شوية لية طول السفر مبحلقلى فى الضلمة والطريق، انتا مخك ايه حجر؟؟

رُبَّما كان "وحيد" هو الإنسان الذى أتقبَّل منه النقد والتقريع والدعابة دون غضاضة فقد كنت أستشعر محبته لى وأننى صديقه الأوحد رغم اجتماعياته وعلاقاته.

– حاولت يافلحوس بس فشلت اكتشفت انى ما بعرفش انام فى القطار ولا وانا جالس، عمومًا قدامنا فرصة طويلة طول النهار للنوم والراحة برنامج الرحلة بيقول كده.

– استريح انتا أنا هاخد دش وآخد لى جولة حرة مشتاق لبنات فرانس يابا بيقولوا البلد مليانه سواح تخبل..

ممازحًا يحاكى لكنة الجنوبيين :

– مليحة جوى يابوووووووووى.

أضحك من غمزه وطريقته فى الكلام فيضحك معى ونتبادل أحاديثًا ودّية طويلة فى شئون شتّى.

كل شىء فى المدينة الجميلة أثار انتباهى كأننا نسير فى متحف مفتوح كل هذا السحر والغموض الذى لم يتبدَّ منه إلاّ القليل ولم

تكشف لنا الأرض من الأسرار المتوارية فى جنحها إلاّ النذر اليسير بينما البواخر النيلية الراسية تقل السائحين الذين استلقوا على أرائكهم تستقى جلودهم العارية من شمس الأصيل الدفء المخلوط باللون البرونزى الذى ينطبع فوقها كأنها قبلة شمس الأقصر عليها،كانت أجساد العجائز العارية تثير التقزّز والنفور بينما بدا جسد غادة فى البكينى بقوامه الرشيق وشعرها المنحدر فوق ظهرها كسبائك الذهب كأنها إحدى حوريات "ألف ليلة وليلة" قفزت لتوّها من السحاب واستلقت تستقى من نسائم الغروب ما يعيد إليها الحياة أصرّ "وحيد" أنْ يهبط الكورنيش ويقصد الممشى الخشبىّ ذا الدرابزين المُعدّ للمرور من الباخرة للشاطىء والعكس لالتقاط صورة مع ملكة الحسن والجمال دون تردد دفعته الجرأة لذلك وحجبنى الجُبْن، بدت بيوت القُرنة مُضوّية ليلاً يتناثر ضوؤها فى أرجاء الجبل كقطع الجوهر والماس بينما نسائم النيل تفيض من عبق الأقدمين وتحكى للفانين قصة العظمة والخلود،،،،،،،،،،،،

كانت رحلتنا فى الصباح لزيارة "وادى الملوك" و"معبد حتشبسوت"،كنت أترقَّب هذه الزيارة وأخشاها لا تزال رائحة الدم عالقة بالمكان وكأنَّ الدير البحرى كله مكلل بالسواد يُحِدُّ على زوّاره المغدورين. كان الجوّ صحوًا مُنعشًا لم تنشر الشمس بعد شعاعاتها الحارقة رغم كون الجو شتويًا فى يناير لكن الشتاء يتوارى أمام شمس الأقصر التى تُحيل الشتاء دِفئًا وحرارة، كنّا جميعًا نخطر فى أرديتنا

الصيفية الخفيفة و كانت خطواتنا الوئيدة نحو المعبد تعكس حالة الحزن وجلال الموت التى نبَّهَنا لاحترامها خفراء المعبد والمرشد السياحى المصاحب لنا :

- لا تصخبوا ولا تعلوا الأصوات فهاهنا أقرباء للقتلى يصلّون من أجلهم ' يمارسون طقوسًا خاصة لا يتعرض أحد لهم دعوهم وأحزانهم.

كانت السيدة السويدية الشقراء ترتدى البياض عدا إيشارب ملون تلفه حول عنقها ونظارة سوداء كبيرة تغطى معظم وجهها تجثو على ركبتيها فى بهو الدير البحرى توقد الشموع وتضع بعضًا من زهور صفراء فوق رمال تغطّى بلاطه الحجرى لتخفى آثار الدم الذى سال عليه منذ أيام، تذرف لؤلؤًا يسيل خلف إطار نظّارتها السوداء تمسح ما تناثر منه أسفل عينيها ، مشاعر حزن أسيفة على حبيب رحل فى هذه البقعة فجاءت تودِّعه موضِع إزهاق روحه، انفطر قلبى لمشهد الوداع الحزين فى حضرة الأقدمين على مشهد من "حتشبسوت" الملكة، التى راعتها هذه الوحشية فذرفت الدمع معنا.....

كانت رائحة الموت لا تزال تحيط بالمدينة انعكست فى حالة الكساد ورحيل الكثيرين من زوارها وإلغاء معظم حجوزاتها السياحية فى أوان أوج نشاطها وحراكها صدىً لهذه التجربة المؤلمة البشعة بينما خيّمت رائحة الموت على المدينة بأسرها مما رأيناه من التواجد الأمنىّ الكثيف والأكمنة الشرطية فى كل خطوة نخطوها، ما أباح لنا أن نشهد تزيّى

المدينة السعيدة بسواد الأحزان والكساد، كأنها مدينة الفقد والكمد. الجثث الست القابعة فى مشرحة مستشفى (الأقصر العام) للقتلة الذين لاذوا بإحدى مغارات الجبل بعد أنْ حوصروا ولم يتمكنوا من الفرار يبدو أنَّ الأوامر الصادرة من أمرائهم هى تصفيتهم لأنفسهم فى حال تيقنهم من استحالة الفرار وهذا ماتم حين أخبرنا "مصطفى" وهو شاب أقصرىّ من أصحاب البازارات يسمُّونه (مينوكمب)، غدا لنا صديقًا نجالسه فى البازار فى شارع 'السوق السياحى' المُشرف على النيل نشاركه الشاى والشيشة والحكايات عنّا وعنهم :

– وقفوا ملتفين فى شكل دائرة وصوَّب كل واحد منهم النار على رأس صاحبه وعندما صاحوا جميعًا (الله أكبر) انطلقت نيران مسدساتهم فى آن واحد لتفجّر الرءوس، كانوا بلا هوية ولا شىء يثبت أصولهم ولا ما يدل عليهم ، كما أنَّ التشوّه الناجم عن انفجار الرءوس لقربها الشديد من فوهة إطلاق النيران جعل من العسير التعرّف على وجوههم.....

يستطرد "مينوكمب":

– ولاد أبالسة تفكير شياطين.....

قاطعته وأنا أرتشف دخان نرجيلته التى لها فم يشبه الكوبرا وقنينتها من زجاج بللورى مصقول :

– تشكيل إرهابى مصغّر يطلق عليه (الخلايا العنقودية) التى تنتمى لخلية أكبر لكنها لا تتعرّف إلى بعضها فإذا سقطت خلية لا تقود إلى التنظيم كله.

يقول "وحيد" مندهشًا دون أنْ يذق بشفتيه طعمًا للشيشة التى لا تواكب صحته بأمر الأطباء :

- ولاد العفاريت أتاريهم خلصّوا على بعض علشان ما حدش يوصل للعصابة الكبيرة (بينما يحدِّق فى مؤخرة إحدى السائحات وهى تمُرُّ أمام البازار فى هوت شورت مثير) ثم يكمل :

- قرأت فى جريدة اليوم مع مرشد الفوج أنّ تحليل ال[دى. إنّ.أيه] تعرّف على هوياتهم وأنّهم من طلاب "جامعة أسيوط" ومن العناصر الجهادية الانتحارية فيها وأهاليهم فلاحون مش لاقيين الدُّقَّة!

يهز "مينوكمب" رأسه فى حسرة قائلاً :

- خربوا بيتنا الله يخرب بيتهم..

أوءمِّن على حديثه وكأنّى أواسيه أو أشاركه الحَسَرات :

- رأينا أنا و"وحيد" بعض تجار المحلات يشترون خزين البواخر النيلية من زيت وسكر وأرز، كان مشهدًا محزنًا للغاية حين باع أصحاب البواخر موادها التموينية بعد إلغاء الرحلات السياحية بها واضطرارها للرسوّ حتى يصلح الله الأحوال.

- ربنا يصلح حالهم وحالنا احنا اصحاب البازارات شوية شوية مش هنقدر ندفع الإيجار الله يرحم أيام زمان كنا احنا وأصحاب الحناطير ما بنلاحقش على الشغل والدولارات ربنا يفك النحس.

يضحك "وحيد" مدّعيًا البلاهة بينما يوعز فى سذاجة "لمصطفى" :

- احكي لنا بقى سموك "مينو كمب" ليه يا "مينوكمب"؟؟؟؟؟

- "مينوكمب" ده صاحب اسطورة فرعونية قديمة وكان رجل مسنّ حكيم وعندما خرج فرعون بجيشه المؤلَف من جميع رجال البلدة ترك النساء فى رعايته وعندما طالت غيبة الرجال لم تجد النساء غيره لمعاشرتهنّ فأنجب من جميع النساء تقريبًا الكثير من الصبيان ، وعندما عاد الفرعون من غيبته الطويلة وجد جيلاً من الأولاد أنجبتْهُنَّ النسوة من "مينوكمب" فرِح وغضِب حين وجد ذكورًا فى مملكته عِوضًا عمّن فقد من الرجال فى الحرب وانتابه الغضب من خيانة "مينو كمب" للأمانة فأمر بقطع يدٍ وقدمٍ "لمينوكمب" ثمّ نصَّبه إلهًا للفحولة والخصوبة له ذكر منتصب!!

وأشار بيده نحو الفاترينة الزجاجية خلفه لتمثال من بازلت أسود له تلك الهيئة المدهشة وهو يقول :

- هاهو مينوكمب "أبو الرجال" مبتور قدم وساق ونخلة مايعدمهاش، ما كنّاش ملاحقين على الطلبات عليه كان التمثال المفضّل لسائحات (اسكتلندا) و(النرويج)!!

ضحكنا جميعًا حتى كدنا نستلقى على ظهورنا وسألته فى مِزاح :

- وأنت "مينوكمب" هذا الزمان؟؟؟؟

– مش للدرجة دى ، عندى...سهرة عجب فى فندق "إيزيس" تيجوا معايا؟ رقص وديسكو وهيصه .. وهو مغمور فى الضحِك...

سارع "وحيد" بالاستجابة :

– أنا معاك يا "مينو كمب" عصرك وأوانك وانتا يا "محمود" مش جاى معانا؟

– لأ ياعم أنا مش قدكم كفاية عليا البصبصة من بعيد..

أتفَّهم دوافع "وحيد" الذى ربَّما يريد أنْ ينْهل من كأس حياته المُترعة بالشراب قبل فراغها وكان يوقن أنَّ خطواته فى الدنيا لم تعُد كثيرة، رَقَصَ فى الديسكو وجثا على ركبته يصفق للراقصة المتوارية معالم وجهها فى الأصباغ كما فى الصور التى التقطت للسهرة، لم يكن ماجنًا فقط يرى عمره ينسرب كحبَّات الماء بين أصابعه لا يريد أنْ يجلس وينتظر النهاية الحتمية المقدَّرة له علّها تخجل ولا تأتى أو تتوارى فتفجأه من حيث لا يتوقّع فلا يضيق بمرارتها..

المتعة المشوبة بالألم وكأنَّها الشمس البرتقالية تطرح نفسها بدلال وغموض حسناء تتوارى فى ظهر الجبل لتطرح عن جسدها ثوب النهار الطويل الذى لوَّثه الدخان والغبار، ويستحيل الجبل بالتدريج من الرمادىّ للأسود القاتم حتى يندسّ فى سواد ليل البر الغربىّ الدامس فلا يبدو منه غير ضياء متناثر كالنجوم على روابيه حين تنير "القرنة" مساكنها فوق مدينة الموتى، جذور تجذبك للأرض تاريخ وطن يفيض

بالشموخ الذى حُفِر كوجوه الفراعين فى صخر "البازلت"، حين تسفحك رياح الجبل الغربى بصفيرها ودويّها كأنَّها تُرجِّع صوت الأقدمين تهتف بك من أودية الزمن السحيق كلكم من تراب هذا الوادى أبناء وطن واحد وأرض واحدة....

* * *

لحظة الخلاص من أسْر الواجبات الكثيفة وساعات الاستذكار المُضنية الطويلة وكأننى أُمْنح صكّ حرّيتى أستشعر طعم الوقت ولذَّة الزمان وكأنّ اختبارات التيرم والمدتيرم وال ٢٠٪ والتقييم الدورى فى الراوندات والسكاشن شبح رابض فوق رأسى يهمّ بافتراسى لو استسلمت للدَعة ومنحت عقلى فرصة للاسترخاء، سنوات من الجدب المُضنى وتأنيب الضمير، إذا استغرقت فى النوم أنهض فزِعًا مؤرَّقًا كيف أنام وفوقى تلٌ من المذاكرة، وإذا تماديت فى لهو مباح أمام فيلم أو مسلسل قتلنى الشعور بالتقصير والتفريط الذى يفتح للإخفاق الأبواب ويمنحه الذرائع، لا... ما تغرَّبت واجتهدت لأُمنى بالفشل والخيبة فأُضيّع أمل الأُسرة المعقود على ناصيتى..

نعم أصبح لنسيم الهواء عبق مختلف ولإنفاق المال مذاق جديد مميّز، لم أعد أتلقَّى مصروفى من والدى فأعْنى وأُدقِّق عند إنفاقى أنْ يُنفق فى وسائل مُقَننة لا أحيد عنها فى خدمة التحصيل من كتب وملابس ودروس.

أتلهَف للحظة أنعم فيها بكسبى الخاص لا أشمّ فى كل ورقة نقود عرق أبى ومستقبل إخوتى الذين يلوننى ودموع أمى مخلوطة بدعائها أنْ يوفِّق الله مسعاى ويجعل لى فى كل خطوة سلامة، أخيرًا سأحظى بعد سنواتٍ سبعٍ عجاف براتب من كدّى أُنفق منه كما أشاء دون أن أستشعر الهمَّ والحرج أو تأنيب الضمير!

هل كنت متفاقم الإحساس رقيق المشاعر أحمل همّ عبء أهلى على عاتقى وإنفاقهم دون تبرّم أو ضَجَر رغم أنّهم كانوا ينعمون ببعض اليسار لا يجدون فى نفقتهم غضاضة غير مُقتِرين....

وعندما أهيم فى القاهرة أنعم بترفيه مباح لا يكلّفنى فأستنشق نسمات طريّة فوق كوبرى (قصر النيل) أو أقطع شارع(٢٦ يوليو) وميدان (الأوبرا) وأغوص فى زحام وسط البلد وضجيجه أو أتنسم نسائم المدنية وأتطلع لتلك السيقان البيضاء كالعاج تكاد تضوى فى عتمة الليل الشتوىّ بين محلات فخمة ومبانٍ فارهة سيارات غاية فى الأناقة شقق وفيلات ترى أجمل مافى القاهرة وتتطلع إليه وقتما تشاء شارع "عباس العقاد" و"روكسى" فلا يصيبنى حقد وحنق بل يتخاطفنى أمل أن أنل مثلهم قدرًا من النعمة والنعيم، لازال المستقبل أمامى مطويًا كبساط علىّ أن أنشره فيتدحرج أمامى ينفكّ ما التفَّ منه أجتاز عليه ماقُدِّر لى الاجتياز ربما أصل إلى مرادى وأُحقق غايتى!!

مرحلة عمرية جديدة من التمتُّع كالطير المأسور الذى حان له الفكاك فحلّق عاليًا يجتاز الآفاق، نسيم الحرية وكأنَّه كان يرسف فى

الأغلال، ولكن! مَنْ قيَّده؟ سوى ذاته ومن وضع فى طريقه الضوابط والنواهى والممنوعات سواه، لم يتسلَّط عليه الأب بسلطانه بل أطلق عنانه منذ نعومة أظفاره كان دائمًا ودومًا يؤكِّد على رجولته منذ الطفولة ربما بقسوة غير مقصودة ينكر عليه استغراقه فيها :

- "سينما الأطفال" دى للعيال إنما أنت راجل!

يرفض أنْ يستشعر ابنه البكرىّ طفولته رغم أنَّه يسمح لإخوته الصغار بذلك وكأنَّه يسلبها منه ويأبى عليه أنْ يحيا سنى عمره الطبيعى، واستبدّ به هذا الشعور نمى فيه وتعاظم، واجبات الرجولة المطلقة مفترض أنْ أُعنى بإخوتى أراجع معهم دروسهم وأقدِّم لهم أوراق الالتحاق اللازمة للانتقال من مرحلة إلى مرحلة، لم يصحبنى يومًا فى طريقى لاختبار كبقية الآباء أحمل عبء ذاتى دون محاسبة لم أكنْ أبدًا مُقصِّرًا دائمًا وأبدًا أعرف ما علىّ وأتناسى مالى، اليوم صار أملى الأوحد أنْ أجتاز عقبة دراستى الكئود وكأننى أتخطّى الحاجز الأخير الذى أنعم بعده بالحرية الكاملة والفكاك من أسر الخضوع المالىّ لسلطان الأسرة أرتع بعدها فى مضمار الانطلاق الغير محدود لا تُكدِّر متعتى استقاء روافدها من معين غيرى ولو كان أبى ناهيك عن الكدر الذى يُنَغِّص هنائى أنْ أتنعم مستغرقًا فى متعة من كدّ غيرى أعنى شعورى بمتعة ناقصة تجعلنى أزهد فيها رغم أنَّ مَنْحهم وعطاءهم عن حبٍ وسعادة لا ولم يضيقوا به أو يُظهروا معه ضَجَرًا....

لماذا أستقلّ حافلة مادمت قادرًا على السير المسافة لا تعدو محطتين أو ثلاث السير متعة فى حدّ ذاته أستمتع بالطريق وبالخلوة فيه مع نفسى رغم ما يعتريه من صخب فلا أستشعِر التعب، استقلال التاكسى درب من الاستغراق فى الترف الذى لا أستحقّه الآن، ولكن لماذا كنت أستسيغ الماء المُشمِس الدفىء منْ صنبور الماء دون تبرُّم ولا تتوق نفسى للمشروبات المُثلّجة التى يدمِنها بعض رفاقى، رضائى بالقليل لأنى لم أزل آخذ مصروفى من جيب والدى جعلنى أزهد فيما يتعدّاه حتى حين، أترفّع عن المغريات فلا أشتهى طعامًا أو شرابًا ولو بينى وبين نفسى ولو كنت أملك ثمنه فما فى جيبى ليس مالى بل وديعة لأبى عندى ولو فعلت لما أنكر ذلك علىّ..

* * *

أصطحبت "وحيدًا" لطبيب القلب بحكم صداقتى الوطيدة به وبحكم عملى كطبيب حديث التخرُّج، خرج من عنده هازئًا كاد فى هذه الزيارة أنْ يُمزِّق روشتته :

– عمّال يقوللى ابن ال... ما تاكلشى ما تشربش ما ينفعش تحمّل قلبك عبء الزواج ومجهود العلاقة الزوجية ناقص يقوللى ما تعيششى و يمكن هوه اللى يفيص قبلى.

(كانت نبرة الحزن لا التحدّى كما عهدتها فيه دائمًا هى ما يهيمن على صوته بعد أنْ حقق كثيرًا من طموحه تخرَّج وعمل معلمًا للفرنسية وذاع صيته وأحبّ غادة غاية فى الحسن والجمال وأحبته،كان يقول عنها:

– حبيبتى برنسيس.

من كانت تستطيع مقاومة جاذبيته وفيض الحب الذى يتبدَّى ألقه فى عينيه؟؟ بعد أنْ جهَّز شقّة العُرس وأعدّ العُدّة للتقدُّم لخطبتها)

– وحيد مش لازم ندفن رأسنا فى الرمل ما تنساش انى كمان دكتور وشايف نفس رأى الاستشارى الكبير.

يومىء إلىّ برأسه إشارة إلى عدم الاكتراث، بينما عيناه زائغتان تُنبئان عن حالته النفسية السيئة.

هرُعت لغرفة العناية التى ضمَّته لم يكن ارتياد مثل تلك الأماكن غريبًا علىّ بحكم عملى لكنَّ رهبة داخَلتنى أشعَرَتنى أنَّ شبحًا خفيًّا يجوس فى أرجاء الحجرة الفسيحة لعله يترصّد أحد العجزة المضطجعين على الأسرَّة حولنا والذين يفصلنا عنهم فقط ستائر مشمَع بلاستيكية، وفرغ أملهم من الحياة وفرغ أمل الحياة منهم ، لكنّ انتفاضة "وحيد" كأنَّه يقاوم الموت ويُصِرّ على استعادة حياته المُوَلّية استجابة لصرخات إحدى الثكالى فى البهو المُفضى للعناية ثم الإنفراجة الصغيرة لجفنيه المسبلتين والدموع التى برزت من إحدى زوايا حدقتيه وما اطّلعت عليه من فحوصات وتقارير أودع فى نفسى بما لايدع مجالاً للشك أنَّ أوان رحيل صديق العمر قد حان بعد أنْ ملأ الدنيا صخبًا وضجيجًا، اصطرع معها وحاول أن ينل منها نصيبًا وافرأ.....

قضى "وحيد" الذى كان أكثر جرأة وشجاعة وحبًا للحياة مِنّى، مات بعد أستغرق فى غيبوبة شبه كاملة أسبوعين كاملين إثر حادث سيارة مروّعة أطاحت به وفرّت هاربة،صدمه طالب مستهتر فى كلية الشرطة من أسرة غنية يقود بسرعة جنونية وفرّ بخِسّة على مرأى ومسمع من مُجنّدي وحدة المطافىء الذين لم يروا ولم يسمعوا شيئًا فقُيّدت الحادثة ضد مجهول، مات من كان شبح الموت يُخيّم على أعتابه مذ ولِد ينتظره فى كل يوم وليلة لكن على خلاف كل التكهنات التى قرَّرت أنَّ

قلبه العليل لن يستمر فى ضخّ الحياة فى شرايينه الشابة متى تجاوز الثلاثين، هاهو يتجاوز الثلاثين ولا يُعِر لنصائح الأطباء التفاتًا كأنَّه كان يعرف أنَّ قلبه الوفىّ لن يغدر به ولن يتوقف عن الضجيج لن يكون البادىء بصافرة النهاية ربما يكون آخر من يستجيب لها بعد أن يوقف نزيف المخ قدرته على مواصلة التعلق بالحياة، فى مراحل عمره النهائية.

أودع "صابر" ابن "عزيز" التربى "وحيدًا" مقبرة أسرته المتواضعة المشتركة مع عشرات الأسر غيرها، لم أبكِ "وحيدًا" رغم شعورى الدائم أنَّ بكاءَ ذاتى سيظلّ سرمديًا لا ينقطِع، ربما هيّج ذاكرتى مشهد صديقى "وحيدًا" مُدرجًا فى كفنه الأبيض بديلاً عن بذلة العُرس هذا المشهد الأسيف، وانهمرت دموعى حين خلوت لنفسى فى حجرة مُظلمة.....

امتصّت بلاد النفط صديقى الآخر الداعية "الحوّاش" لم يعد منها إلاّ مريضًا تتعارك فى جوفه الأدواء اشترى أرضًا وابتنى منزلاً وحيا أيامه المتبقية مع أسرته فى يسار من مُدَّخرات سنى الاغتراب والمعاناة لكنّه حُرِم نعمة الاستمتاع بجنى ما غرسته أزمنة الكد والسهر والسفر أقسى أنواع الحرمان أنْ تملك أسباب المتعة ولا تملك وسيلة الاستمتاع بما تملك..

اقتحمنى لحنٌ لست أدرى، لماذا هذه الترنيمة التى لم تخطر لى على بال فى هذا الموضِع أبدًا "لمحمد منير" وهو يشدو على شاطىء البحر مرتديًا البياض فى حالة تناغم واضح مع البحر والسماء :

أنا باعشق الطريـــق لأن فـــيه لقانـــا

وفرحنا وشقانـــا واصحابنا وشـــبابنا

وفيه ضحكة دموعنا وفيه فرحة رجوعـنا

وضاع فيه الصديـــق أنا باعشق الطريـــق

لكنى لم ولن أعشق الطريق الذى ضاع فيه الصديق والصاحب...

* * *

كل شىء فى قريتى تغيَّر أصبحتُ أرى شوارعها ضيّقة كحارات وحاراتها دروب وأخاديد والمسجد الجامع الكبير زاوية صغيرة بعد أنْ هُدِم وتغيَّرت معالمه وزِيد فى رُقعته وبُنيت له مئذنة جديدة غير التى اعتدتُ طلَّتها المميّزة من بين السُحب فى سماء القرية كنت أرقبها من نافذة القطار قديمًا فترنو إلىّ دروب التذكّر وأستشعر القرب والطمأنينة أمَّا الجديدة فمطمورة غائمة كأنَّها تطأطىء هامتها أو تتوارى خلف البنايات المسلحة التى أحاطتها من كل جانب، حتى شجرة التوت العتيقة التى كانت تلاصق ميضأة المسجد موضع المدافن القديمة التى انتقل رفات مافيها ناحية الساقية البعيدة فى مدخل القرية منذ زمن بعيد وعزفنا عن أكل توتها بعد أنْ أوهَمنا البعض أنها تشرب من مجارى حمامات المسجد وارتوت مِن رُفات المقبورين حولها قديمًا قُطِعت كأنَّها اجتُثّت من جذورها كما اجتُثَّت القرية بأكملها، كل موضع لذكرياتى تلاشى كمنزلى القديم الذى بُنى بالأسمنت والمُسلّحات وتغيّرت معالمه بعد أنْ أوشك على الانهيار، موضِع جلسة القرآن ' الساعة الأثرية

القديمة التى لا تعمل والقناديل والطريق المُفضى للمسجد ومحطة القطار والنُهير الذى كنّا ندعوه (بحرًا) ماله تضاءل فرأيته ترعة ضيّقة مُهملة تُغَطّى صفحة مائها الحشائش وورد النيل،لم يعد يغيض وتنكشف سوأته فيُفصِح عمَّا فى جوفه ويشى عمّا يجوس بباطِنه من أوهام وأراجيف، غدا الباطل مخبوءًا لا ينكشف ولا يُفصِح عن وجهه القبيح، أصبح وجه النهر عابسًا مكفهرًّا قد لوثته نباتات ورد النيل والحشائش. طالته يد الإهمال التى طالت كلّ شىء فلم تعد تعنى بصيانة جسوره ودعامات كباريه وتطهير قيعانه و لم تعُد تعبر الكوبرى المراكب ذات الأشرِعة، لذا لم يعد يدور وينفتح لمرورها كلّ حينٍ، غاب عن مرآى المراكب المُشرعة بالقلوع البيضاء كأجنِحة الحمائِم تحمل البلاصات وزلع العسل وصفائح السردين المُمَلّح،غاب نداء : يا مراكبى معاك سمك طازة...

كأنما غابت عن النهر سميكاته، ما عادت شباك الصيادين تصِيد شيئًا، ولا سنّارة الهواةِ تئوب بخير!!

غاض الخير والجمال حين كفّ نُهير قريتنا عن الغيض!!

حتى الوجوه أصبحت كثيرة مختلطة غريبة ماعُدت أعرفها ولا تُلقى لأمثالى من الكهول بالاً بعد أنْ اخترم القرية نسلٌ جديد وغرباء طرقوها هربًا من غلاء سُكنى المدن المجاورة، الشوارع المهجورة غَدَت تضُجّ بالبيوت،عامرة بالمارّة والدكاكين صار فى قريتنا مخابز، وحلوانى،متاجر، وسوبرماركت،وصيدليات وورش،وعيادات طبية،

صارت قرية تضجّ بمظاهر المدنية البغيضة قرية لا تهدأ ولا تنام، تجوسها التكاتك وتفغر فاها بأغنيات متشرذمة غبية غريبة كل شئ تغيّر حتى ما تبقّى من شعرى الذى اخترق البياض سُمرته كل شىء يتغيّر كل شىء يموت كل شىء يفنى لا غرابة أن يغدو الرضيع صبيًا والصبى شابًا والشاب رجلاً وامرأة يتزاوجان لتدور الدائرة من جديد فيشيب من يشيب ويرتحل من أعدّ أو مَنْ لم يُجَهِّز عُدَّتُه للرحيل..... فقط تعملق المخبوءون وغدَتْ شوكتهم أحدّ وصار منْ يتستر وراء العمل السرىّ يتيه فخرًا بلحيته ونقاب آله، طغى السواد على القلوب قشرة واهية لبيضة نيئة لا تحوى إلا خواءً، غدا المجتمع مُهلهلاً تملؤه النقمة الكل يتردّى فى هوّته، التمرُّد على الثوابت والقيم سَمْت هذا الأوان والعجوز الخرِف نائمً فى قصره يعد العدة لتوريث ولده تركته التى نخر فى قوائمها سوس الفساد والاستبداد وطغى حزب ضالّ واهن على مقاليد البلاد والعباد!!

غدت الثورة حتمية على مجتمع يضيق بالظلم والفساد شعب مطحون قاسى القهر والويلات على مرّ العصور كان الدم المراق على تراب السويس شرارة نجاحها فالدم يغلى ويصرخ ويشعل النار فى القلوب والأبدان ثورة قامت على أكتاف الشعب المُنهك ليتسلق الانتهازيون أكتافهم ويرتقوا سُلَّمها ويضجّ المجتمع الذى مالبث وأنْ تطهّر بالرجس والإرجاف والأباطيل.....غدا "سعد الأشمونىّ" مسئولاً كبيرًا بوزارة الداخلية وصارت له اليد الطولى فى التفاوض وإقامة الصفقات مع أعضاء الجماعات الإسلامية بحكم عمله السابق فى أمن المُدن الجامعية!!!!!

قضى "مهدى" المحامى فى "الصين" بعد أن موَّل الإخوة عملية زراعة كبد له بعد أن تلفت خلاياه وتليّف بفعل 'فيروس سى' اللعين مِنْ أثرٍ لبلهارسيا قديمة ساكنة على شاطىء نهير قريتنا، ومات "النجّار" فى "موقعة الجمل" بعد أنْ أوسعه الإخوة ضربًا ظنًا منهم أنَّه عميل أمن مندسّ كما تمنّى ورغب لنفسه فى الشهادة لكنَّه ويالالأسف مات على يد إخوانه بطريق الخطأ، أمّا "زاهر" الكامن فى دهاليز قريتنا أصبح يملك مركزًا للدروس الخصوصية وغدا أمير منطقة القرية وأجوارها وشاركته زوجته المنتقبة الشيخة "نجاة" إدارة المركز وقيادة فرع الأخوات المسلمات، يقطنون فيلاّ على حدود القرية بعد أن كانوا من قاطنى المساكن الشعبية.....

عاد "إسلام" من بلاد النفط بأوامر عُليا ؛ ليغدو متحدِّثًا إعلاميًا باسم الجماعة يتكلم بثقته ولكنته المعهودة ازداد ثقلاً بما ازداده رصيده البنكى. لم يعد يتكلم فى شئون الدعوة والإصلاح فقط بوق يدحض عن جماعته كل اتهام سياسىّ ويقابل الهجوم بأعنف منه كأنه لسان موكّل بالرد والكيد ودرأ التهم بالحق والباطل غدا دبلوماسيًا يجيد منطق الجدل العقيم الذى لا يصل بك لشىء فقط يجعلك تدور فى حلقة مفرغة!

يقطن فيلاّ "بالتجمُّع الخامس" ويستقل "لاندكروزر" بالسائق كأنَّه أحد أمراء النفط، فقط غدَت له لحية صغيرة(سكسوكة) كأنَّها رمز لانتمائه. الأغرب أنْ فاجأنى اسم الأستاذ الدكتور/ "حسن الدمياطى"

صاحب مستشفى "الشفاء" الاستثمارى الكبير والتى شيّدت على الطراز الإسلاميّ على قائمة أبرز المرشحين لوكالة "حزب التنمية والكرامة" لم تنقطع علاقته بصديقه القديم العميد "سعد الأشمونى" يبدو أنّها توطَّدت أكثر بما يخدم مصلحة الفريقين، وشت بذلك بعض الصحف المحدودة الانتشار عن ثمة (علاقة مريبة بين قيادات الأمن وقيادىّ بارز فى تنظيم الجماعة) لم يعد "حسن الدمياطى" الطالب الفقير والعميل المزدوج ولا "الأشمونىّ" ضابط الحرس الخائب، كانت بدايات الخيط عندى فى أوانٍ تداخلت فيه جميع الخيوط والأوجه والتكهنات، لم أكترث ولم يثر الأمر تعجُّبى سوى للحظات!!!

ويتوّج بعدها حاكم من لدنهم فى يوم خلت فيه الشوارع من المارّة كمُن الجميع فى ترقُّب من سيحمل تبعة مصر على أكتافه ؛ ليُخرجها من الزمن البغيض الذى جاست فيه أفاعى الكذب والنفاق والنفعيون أوديتها، وتولّى كل من له صلة بالجماعة منصبًا قياديًا وغدا "إسلام" وإخوانه وحزبهم الكهل الوليد أصحاب نفوذ وسيادة وقرار غدت ألسنتهم الطويلة هى الرد المنطقى على كل من انتقدهم أو شجب أفعالهم وتبدَّل شعارهم من "الإسلام هو الحل" و"نحمل الخير لمصر" إلى "موتوا بغيظكم"!!

كل يوم تنزلق خطانا نحو كهف مظلم رهيب ننتظر الخروج من تيه أنفاقه ودروبه وكأنّ مصيرنا المحتوم أن يتوالى على حكمنا الفراعين من الطغاة حتى هذا الطاغية المسخ الأضحوكة من سيء لأسوأ "التمكين

سبيلنا" "وتوطين الأمر لجماعتنا أسمى أمانينا" لينتهوا بأسرع مما بدأوا ويلفظهم الناس وتصير شمسهم التى مالبثت أنْ أشرقت لتنير لهم السبيل وحدهم إلى زوال بعد أن دسّوا مصر فى [درب التيه] العظيم.

* * *